



الشيخ عايّ حسن غلوم

حروب الردّة

الحقيقة والأساطير

١	١. مقدّمة المؤلّف
٢	٢. مدخل
٣	٣. الردّة في اللغة والاصطلاح
	أولاً، الردّة في اللغة
	ثانياً، الردّة في الاصطلاح الفقهي
	٤. القرآن يتحدّث عن الردّة
	الردّة في المعهد المكي
	الردّة في المعهد المدني
	٥. الكتاب المقدّس والردّة
	حرق المهرطقين
	٦. المرتدّون على عهد النبي
	عبيد الله بن جحش الأسدي
	السكران بن عمرو
	مجموعة من المسلمين
	الحارث بن سويد
	طُعمة بن أبيرق الخزرجي
	مقيّس بن صُبابة الكناني
	عبد الله بن سعد بن أبي سرح
	عبد الله بن خطل
	الأسود العنسي
	طليحة الأسدي
	مسيلمة الكذاب

٧. النبي يتحدّث عن الردّة من بعده
٨. الرواية الأولى
- الرواية الثانية
- محاولات للتوجيه
- تعليق
- الرواية الثالثة
- إلا ثلاثة
- محاولات للتوجيه
٩. سيف بن عمر
- كتابان غيرا وجه الحقيقة
- قالوا عنه
- نماذج من اختلافات سيف
- ذات السلاسل
- صورة مغايرة تماماً
- من اختلافات معركة القادسية
- يوم الجراثيم
- يوم النحيب ومعركة الجمل
- اختلاق الأماكن
- سبب انتشار أخباره
١٠. مقدّمة ضروريّة
- أمثلة قرآنية
- مثال تاريخي
- حقائق تاريخية مهمة
- إخراج غير المسلمين من الجزيرة

١١. مشاهد الردّة، المشهد الأول : ردّة طليحة وعُيينة
 عند غير سيف
 عند سيف
 المقارنة بين الروایتين
١٢. المشهد الثاني : ردّة الفجاءة السُّلَمي
 عند غير سيف
 عند سيف
 المقارنة بين الروایتين
١٣. المشهد الثالث : دخول سجاح التميمية على الخط
 عند غير سيف
 عند سيف
 المقارنة بين الروایتين
١٤. المشهد الرابع : ردّة مالك بن نويرة
 عند غير سيف
 عند سيف
 المقارنة بين الروایتين
١٥. المشهد الخامس : معركة اليمامة (عُقرباء)
 عند غير سيف
 عند سيف
 المقارنة بين الروایتين
١٦. المشهد السادس : ردّة أهل البحرين
 عند غير سيف
 عند سيف
 المقارنة بين الروایتين

.....	المشهد السابع : ردة أهل عُمان ومهرة واليمن	١٧.
.....	عند غير سيف	
.....	عند سيف	
.....	المقارنة بين الروايتين	
.....	الخاتمة	١٨.
.....	تاريخ تدوين المصحف الشريف	١٩.
.....	جمع القرآن على عهد النبي	
.....	مصحف الإمام علي	
.....	تدوين الكتب السماوية	
.....	من حفظ القرآن إلى تدوينه	
.....	أسلوب النبي في التدوين	
.....	توحيد المصاحف	
.....	مطابع حديثة	
.....	تجزئة المصحف وتحزيبه	
.....	الركوعات القرآنية	
.....	كلمة أخيرة	
.....	مصادر الكتاب	٢٠.

مقدّمة المؤلّف



مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على مبعوثه الأمين سيد المرسلين محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

تُعَدُّ «حروب الردّة» واحدة من المسائل التاريخية التي يندر - في الوسط الشيعي - البحث فيها والحديث عنها وعرضها في المؤلفات والمحاضرات، اللهم إلا ما له علاقة بموضوع منع الزكاة من قبل مجاميع من أهل الجزيرة العربية، ولا سيما ما جرى لمالك بن نويرة من مع خالد بن الوليد، وهي في نهاية المطاف مسألة مرتبطة بقضية الخلافة والحكم بعد رسول الله ﷺ.

واخترت في موسم شهر رمضان من عام ١٤٣٨هـ أن أتناول المسألة بصورة أكثر شمولية، وليكون ذلك منطلقاً لبحث بعض القضايا ذات الارتباط بتلك الأحداث، من قبيل حالات الردة التي شهدتها عصر النبوة، وتحدّث عنها القرآن الكريم، وكيفية تعامل النبي ﷺ معها، وأقوال الفقهاء بخصوص حكم المرتد، وغير ذلك. وطلب منّي عدد من الإخوة الأعزاء أن أقدم تلك المحاضرات بصورة كتاب كما هو شأن كتابي «السيرة العسكرية لسيد المرسلين محمد ﷺ»، فكان هذا الكتاب.

وتناول حروب الردّة يعد مسألة مهمّة وحسّاسة في نفس الوقت، وقد أدرك ذلك المؤرّخون المسلمون منذ القدم، وأفردوا لها كتباً خاصة، أشار إليها الباحث المعاصر أستاذ الأدب الجاهلي د. يحيى وهيب الجبوري في مقدمته على كتاب «الردّة» للمؤرّخ الواقدي. قال: (لقد حظيت حروب الردّة وما فيها من أخبار وأشعار باهتمام المؤلّفين العرب، فقد ألّفت منذ زمن مبكر عدة كتب أفردت لحروب الردّة، غير الأخبار التي تضمنتها كتب التاريخ والأدب، فقد وقفنا على ثمانية كتب كلها تحمل اسم الردّة هي:

لمحمد بن إسحاق «ت ١٥٠ هـ»

وسيف بن عمر «ت ١٩٣ هـ»

والواقدي «ت ٢٠٧ هـ»

ووثيمة بن موسى الوشاء «ت ٢٣٧ هـ»

وأبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي «ت ١٥٧ هـ»

وإسحاق بن بشر الهاشمي «ت ٢٠٦ هـ»

وعلي بن محمد المدائني «ت ٢٣٤ هـ»

وإسماعيل بن عيسى العطار^(١)

ولم يصل من هذه الكتب إلا كتاب الواقدي هذا، في نسخته الوحيدة النادرة التي عثرت عليها أثناء تسفاري في بلاد الهند في مكتبة «خدا بخش» في «يانكي بور» مقاطعة «باتنا»^(٢).

وأما الآغا بزرك الطهراني في كتابه «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» فقد

١. توفيت سنة ٢٣٢ هـ.

٢. الواقدي: الردّة، ص ٥.

جاء على ذكر أربعة كتب لمؤلفين اعتبرهم من الشيعة وحملت عنوان حروب الردّة هي:

١. كتاب الردّة: لإبراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي من ولد عم المختار بن أبي عبيد الثقفي. توفى ٢٨٣ هـ.
٢. كتاب الردّة: لأبي مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف المؤرخ، شيخ هشام الكلبى الذي توفى ٢٠٥ هـ.
٣. كتاب الردّة والدار: لأبي عبد الله الواقدي محمد بن عمر المتوفى ٢٠٧ هـ.
٤. كتاب الردّة: لأبي منذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى النسابة المتوفى ٢٠٥ هـ^(١).

وعلى الرغم مما أشار إليه الجبوري من ضياع هذه المصادر إلا نسخة من كتاب الواقدي، إلا أنه يمكن أن نصل إلى جوانب من مضمون تلك الكتب من خلال الموسوعات التاريخية التي أخذت عنها.

فالسيرة النبوية لابن إسحاق - على سبيل المثال - كتاب مفقود، إلا أن عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري «ت ٢١٨ هـ» صاحب السيرة النبوية المشهورة باسم «السيرة النبوية لابن هشام» أخذ عنه، وحدّد في كتابه الموارد التي أخذها عن كتاب ابن إسحاق، وبالتالي نستطيع أن نصل إلى تصور إجمالي حول مضمون ذلك الكتاب المفقود.. بل قام بعض المعاصرين بجمع الموارد المنقولة عنه في الكتب والموسوعات التاريخية فخرج كتاب حمل عنوان «سيرة ابن إسحاق».

١. الطهراني: الذريعة، ج ١٠، ص ٢٣٧-٢٣٨.

وهكذا بالنسبة إلى مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف الذي نقل عنه الطبري «ت ٣١٠هـ» في تاريخه، فالأصل مفقود، وقام بعض المعاصرين كذلك بجمع ما رواه الطبري في تاريخه عنه، وإخراجه في صورة كتاب مستقل حمل هذا العنوان.

ومن هنا فإننا سنجد موارد كثيرة من كتاب الردّة لابن إسحاق، وكذلك لسيف بن عمر التميمي مذكورة في تاريخ الطبري، كما سيتبين لنا لاحقاً خلال عرض تفاصيل أحداث حروب الردة بإذن الله عز وجل.

ثم إنني قد وجدت أنّ من المناسب تناول موضوع تدوين المصحف الشريف كبحث مكمل لحروب الردّة وذلك لما جاء في الأخبار من أن عدداً ملحوظاً من حفاظ القرآن الكريم استشهدوا في معركة اليمامة التي وقعت ضمن حروب الردّة، وقد أثار ذلك قلق الخلافة، فقامت بمشروع تدوين المصحف الشريف، لاسيّما وأنها ردّت من قبل مشروع الإمام علي عليه السلام لتدوين المصحف والذي قام به بعيد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسنتعرّف على تفاصيل ذلك كله في الفصل الأخير من الكتاب.

مدخل



مدخل

لا خلاف بين المؤرخين والمحققين على وقوع الردّة في الجزيرة العربية بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكذلك وقوع مواجهات عسكرية وحروب بين المسلمين والمرتدين، أو بينهم وبين بعض المرتدين على الأقل.

وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام - كما جاء في نهج البلاغة - حيث قال: (أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَمُهَيِّمًا عَلَى الْمُرْسَلِينَ، فَلَمَّا مَضَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي ^(١) وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ﷺ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْتِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ يَدْعُونَ إِلَى مَحَقِّ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ تَلْمَازًا أَوْ هَدْمًا تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ قَوْتٍ وَلَا يَتَكُمُّ، الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلِيلٍ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ، كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ، فَهَضُمْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاغَ الْبَاطِلُ

وَزَهَقَ وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهَّنَهٗ^(١). والعبرة الأخيرة تشير إلى أنه ليس فقط لم يكن صاحب موقف سلبي من قتال المرتدين، بل كان له دور إيجابي فيه، وهذا معنى قوله: (فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاغَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهَّنَهٗ).

بالطبع هذا لا يعني بالضرورة أنه خرج للقتال، حيث لا نجد فعلاً أي أثر لذلك إلا على رواية سندرسها لاحقاً ونعرف مدى مصداقيتها، وهي تذكر أن علياً كان يحرس نقطة حدودية تابعة للمدينة المنورة، كما أننا لا نجد أثراً لمشاركة كثير من كبار الصحابة في ساحات المعارك ضد المرتدين، ولعل سبب ذلك يعود إلى أن:

١. تلك المواجهات لم تكن تستدعي كل هذا الاستنفار الضخم للصحابة، لأنها لم تكن أصلاً بهذه الصورة التي قُدِّمت من حيث أعداد المرتدين الذين اشتركوا في القتال، ومن حيث حجم المواجهات.

٢. المدينة المنورة أيضاً كانت بحاجة إلى تواجدهم فيها لحمايتها من الداخل من الحراك المحتمل للمنافقين، ومن احتمال تهوّر بعض المرتدين بالهجوم عليها.

٣. عدداً من الصحابة كان قد اتخذ موقفاً سلبياً من السلطة السياسية في المدينة بعد وفاة النبي ﷺ، بلحاظ أن الأمور جرت على خلاف ما هو مفترض. وهذا ما قد يكشفه النص التالي الذي رواه البلاذري «ت ٢٧٩هـ» حيث قال: (لَمَّا ارْتَدَّتِ الْعَرَبُ، مَشَى عَثْمَانُ إِلَى عَلِيٍّ، فَقَالَ: يَا ابْنَ عَمٍّ، إِنَّهُ

١. الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٦٢.

لا يخرج أحد إليّ. فقال: هذا العدو، وأنت لم تبائع^(١) فلم يزل به حتّى مشى إلى أبي بكر. فقام أبو بكر إليه، فاعتنقا، وبكى كل واحد إلى صاحبه. فبايعه، فسُرّ المسلمون، وجدّ الناس في القتال، وقُطعت البعوث^(٢).

إلى هنا تبين أن وقوع الردّة بعد وفاة النبي ﷺ أمرٌ مفروغ منه كحدث تاريخي، وهكذا بالنسبة إلى مواجهتها بالقوة، إلا أن الكلام يقع في المديات التي بلغت تلك الردّة جغرافياً وتعداداً وأحداثاً، وآثارها وتبعاتها العقديّة والعسكرية والأمنية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

فالتصور التقليدي الذي يُقدّم عادة من خلال المؤلفات والبحوث والمحاضرات يؤكد على ضخامة الحدث، وسعته، وآثاره الخطيرة. وفيما يلي بعض النماذج من أقوالهم:

روى ابن هشام: (ولما توفّي رسول الله ﷺ عَظُمَتْ به مصيبةُ المسلمين، فكانت عائشة، فيما بلغني، تقول: لما توفّي رسول الله ﷺ ارتدت العرب، واشراّبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقد نبيهم ﷺ، حتى جمعهم الله على أبي بكر)^(٣).

وروى الطبري: (عن المجالد بن سعيد، قال: لما فصل أسامة^(٤) كُفرت

١. في العبارة ارتباك، ولعل الصحيح «إنه لا يخرج أحد إلى هذا العدو وأنت لم تبائع».

٢. البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٨٧.

٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٦٥.

٤. أي خرج وفارق كما قال جرّلاً: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾. «سورة البقرة: ٢٤٩». فقد أمره النبي بالخروج نحو الشام لمواجهة الروم وحلفائها ثم توفّي النبي وأسامة ما زال في المعسكر بالقرب من المدينة، فأمره الخليفة أبو بكر بعد ذلك بالحركة نحو الشام، فتوجه إليها وعاد لاحقاً دون أن يقع قتال بين الطرفين.



الأرض وتضرمت، وارتدت من كل قبيلة، عامة أو خاصة ^(١) إلا قريشاً وثقيفاً.... عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: لما مات رسول الله ﷺ، وفصل أسامة، ارتدت العرب، عوام أو خواص، وتوحى مسيلمة وطلحة ^(٢) فاستغلظ أمرهما ^(٣) واجتمع على طليحة عوام طيئ وأسد، وارتدت غطفان إلى ما كان من أشجع ^(٤) وخواص من الأفتاء ^(٥) فبايعوه، وقدمت هوازن رجلاً وأخرت رجلاً، أمسكوا الصدقة، إلا ما كان من ثقيف ولفها، فإنهم اقتدى بهم عوام جديلة والأعجاز ^(٦) وارتدت خواص من بني سليم، وكذلك سائر الناس بكل مكان ^(٧).

١. أي القبيلة بأكملها أو بعض منها.

٢. أي ادعى نزول الوحي عليهما.

٣. أي اشتد وقوي.

٤. اسم قبيلة.

٥. يُقال: رجل من أفتاء القبائل أي لا يُدرى من أي قبيلة هو.

٦. وهم بنو جُشم، وبنو نصر، وبنو سعد وكلهم بنو بكر.

٧. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٤٢.

وقال ابن خلدون «ت ٨٠٨ هـ»: (وقد ارتدت العرب، إما القبيلة مستوعبة، وإما بعض منها، ونجم النفاق، والمسلمون كالغنم في الليلة الممطرة لقلتهم وكثرة عدوهم وظلام الجو بفقد نبيهم)^(١).

ومن المعاصرين قال محمد حسن بريغش «ت ١٤٢٤ هـ»: (..... وبلغت الردة حداً غطت فيه وجه الجزيرة العربية ما عدا مكة والمدينة؛ وارتدت أسد وغطفان وطيء وعليهم طليحة الأسدي، وارتدت الأعراب والقبائل حول المدينة من بني عبس وبني مُرة وذبيان وبني كنانة)^(٢).

السيد مرتضى بن محمد إسماعيل العسكري، نسبة إلى ولادته في مدينة سامراء حيث مرقد الإمام الحسن العسكري. يعد من أبرز العلماء والمحققين المعاصرين في التاريخ والعقيدة. امتاز بذهن وقاد وقريحة ناقدة وبموضوعية عالية وهمة رسالية قليلة النظير. أسس ببغداد كلية أصول الدين، ومشاريع أخرى في العراق وإيران، وألف عدة كتب، من بينها: عبدالله بن سبأ وأساطير أخرى، خمسون ومائة صحابي مخلق، أحاديث أم المؤمنين عائشة.

إلا أن بعض المحققين أشاروا. بعد التدقيق في الروايات المبنوثة في كتب التاريخ ومقارنتها ببعض البعض. إلى أن الصورة الحقيقية للأحداث والوقائع ليست كما تقدّمها القراءة التقليدية، بل أقل من ذلك بكثير، وأنه تم تهويلها لأغراض معينة.

ولعل أول من اكتشف ذلك وقدمه في صورة دراسة علمية مقارنة ومتمينة هو العلامة المحقق السيد مرتضى العسكري وأثبتته في كتابه

١. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر «المشهور باسم تاريخ ابن خلدون»، ج ٢، ص ٦٥.

٢. بريغش: ظاهرة الردّة في المجتمع الإسلامي الأول، ص ١٠٠-١٠١.

«عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى». قال: (وكثيراً ما نجد في روايات سيف^(١) ذكراً حروب للمسلمين أبادوا فيها عدداً ضخماً من الناس، وهدموا دورهم، وتركوا الأرض يباباً بعدهم، في حين أن تلك المعارك لم تقع بتاتاً، وكل ما ذكره فيها - من قادة الفتح الإسلامي وأشعارهم وقتلاهم وهدم مساكن الشعوب - اختلاق في اختلاق. من ذلك: ما ذكره من تهويلات في حروب الردة والتي لم يصدق في شيء منها، ونذكر أمثلة منها فيما يلي....)^(٢).

فأي صورتين أقرب للحقيقة والإثبات التاريخي؟

سنتناول هذا الموضوع لاحقاً أثناء قراءة التفاصيل التاريخية للأحداث التي جرت في الجزيرة العربية بعيد وفاة رسول الله ﷺ، وبعد أن نتناول مجموعة من الموضوعات المهمة كمقدمات ضرورية للبحث.

١. سيف بن عمر التميمي «ت ٢٠٠هـ» وسنحدث عن هذه الشخصية لاحقاً بالتفصيل وأثرها في كتابة التاريخ الإسلامي.

٢. العسكري: عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، ج ٢، ص ١٨-١٩.

الرَّدة في اللغة والاصطلاح



الردة في اللغة والاصطلاح

• أولاً، الردة في اللغة:

قال العلامة ابن منظور «ت ٧١١ هـ»: (ارتدَّ وارتدَّ عنه: تحوّل. وفي التنزيل: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾^(١) والاسم الردّة، ومنه الردّة عن الإسلام أي الرجوع عنه. وارتدَّ فلان عن دينه إذا كفر بعد إسلامه)^(٢).

قال الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني «ت ٥٠٢ هـ»: (الارتداد والردة: الرجوع في الطريق الذي جاء منه. لكن الردة تختص بالكفر، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾^(٣) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾^(٤) وهو الرجوع من الإسلام إلى الكفر، وكذلك: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾^(٥)، وقال عز وجل: ﴿فَارْتَدُّوا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾^(٦).

١. سورة البقرة: ٢١٧.

٢. ابن منظور: لسان العرب، مادة ردد.

٣. سورة محمد: ٢٥.

٤. سورة المائدة: ٥٤.

٥. سورة البقرة: ٢١٧.

٦. الراغب: المفردات في غريب القرآن، ج ١، ١٩٢-١٩٣. والآية الأخيرة من سورة الكهف: ٦٤.

• ثانياً، الردة في الاصطلاح الفقهي:

لم يبتعد التعريف الفقهي لمعنى كلمة الردة عن المعنى اللغوي، وهذا ما نلاحظه على سبيل المثال في تعريف الشهيد الأول الشيخ محمد مكي العاملي «ت ٧٨٦هـ» حيث قال: (الارتداد: وهو الكفر بعد الإسلام)^(١).

ولكن الأهم من معرفة معنى الردة في الاصطلاح، أن نعرف متى يتحقق الكفر بعد الإسلام، أو بحسب تعبير الشيخ الحسن بن يوسف المعروف بالعلامة الحلي «ت ٧٢٦هـ»: (قطع الإسلام من مكلف)^(٢). ويمكن أن يتضح ذلك من خلال كلمات الفقهاء التالية:

قال المفكر الإسلامي المرجع السيد فضل الله «ت ١٤٣١هـ»: (الارتداد هو: اعتقاد المسلم - البالغ - لغير الإسلام من العقائد والأديان، كاعتقاده عقائد الإلحاد أو الوثنية أو أهل الكتاب، أو إنكاره لأصل من أصول الإسلام الثلاثة، وهي التوحيد والنبوة والمعاد، أو إنكاره لما ثبت في الدين بالضرورة إذا استلزم إنكاره له تكذيب النبي ﷺ، فإن كان قد تولد من أبوين مسلمين. أو أحدهما مسلم. ثم ارتد بعد بلوغه فذلك هو المرتد الفطري، وإن كان قد تولد من أبوين كافرين، فأسلم بعد بلوغه ثم ارتد، فذلك هو المرتد المِلِّي)^(٣).

وسئل المرجع الديني السيد علي السيستاني عن ماهية الشروط التي يترتب عليها الأثر في الارتداد، فأجاب: (يشترط في ترتيب الأثر على الارتداد:

١. العاملي: اللمعة الدمشقية، ص ٢٤٦.

٢. الحلي: إرشاد الأذهان، ج ٢، ص ١٨٩.

٣. فضل الله: فقه الشريعة، ج ٢، ص ٤٥٨، م ٦٥٧.

البلوغ، وكمال العقل، والقصد، والاختيار، فلو أكره على الارتداد فارتد كان لغواً، وكذا إذا كان غافلاً أو ساهياً، أو هالماً، أو سبق لسانه، أو كان صادراً عن الغضب الذي لا يملك معه نفسه ويخرج به عن الاختيار، أو كان عن جهل بالمعنى^(١).

وقد قدّم العلامة الحلي أمثلة لما عبّر عنه بالقطع «الارتداد» وهي: (بفعل، كالسجود للصنم، وعبادة الشمس، وإلقاء المصحف في القاذورات، وشبه ذلك مما يدل على الاستهزاء، وإما بقول، عناداً أو استهزاءً أو اعتقاداً)^(٢).

وعلى الرغم من الكلمات السابقة وغيرها مما تناولها الفقهاء في كتبهم، إلا أنه تبقى الكثير من الأسئلة الحرجة والحساسة والتفصيلية التي تحتاج إلى بحث عميق ومترىث فيما له علاقة بالحكم على المسلم بالردة من عدمه، فضلاً عن حكم المرتد بقسميه الفطري والملي، والخلاف المطروح مؤخراً بشكل مكثف حول صحة الحكم المشهور بالقتل بحق المرتد، سواء بعد الاستتابة أو من دونها، لاسيما على ضوء الإثارات المستمرة

حول مدى توافق هذا الحكم مع بعض الآيات القرآنية من قبيل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٣)، وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٤) وهي لم تتحدث عن حكم بالقتل بحق

١. <https://www.sistani.org/arabic/qa/0279>

٢. الحلي: إرشاد الأذهان، ج ٢، ص ١٨٩.

٣. سورة البقرة: ٢٥٦.

٤. سورة البقرة: ٢١٧.

المرتد، وكذلك حول مدى توافق هذا الحكم الفقهي المشهور مع حقوق الإنسان والحرية الدينية والسيرة التاريخية للمسلمين في الصدر الأول، وما إذا كانت بعض الأحاديث التي تنص على قتل المرتد قد صدرت كأحكام ولائية قابلة للتغيير، لا على أنها أحكام تشريعية ثابتة.. أو أنها جاءت بلحاظ سياسي مرتبط بتهديد أمن المجتمع، فإذا لم تكن حالة الردة الحاصلة من هذا القبيل فلن يكون الحكم ما نصَّ عليه المشهور، وهو القتل.

وقد استعرض الشيخ حسين الخشن مجموعة من التساؤلات المهمة وتناولها بالبحث والمقارنة والترجيح، قال: (إنَّ تحديد مفهوم المرتد أمر في غاية الأهمية، إذ في ضوء هذا التحديد سيتم رفع الكثير من الالتباس الحاصل في المقام...

من هو المرتد؟

وكيف يتحقق الارتداد؟

ما هي قيوده وضوابطه؟

هل ينحصر الارتداد بإنكار الأصول فقط أم يشمل إنكار الضروري أيضاً؟

وما هي تلك الأصول، وما فرقها عن الضروريات؟

ثم هل يتحقق الارتداد بالنية، أم لابد من انعكاسه على القول أو الفعل؟

وهل التشكيك في بعض الأصول يمثل ردة، أم أن الشك لا يمثل ردة ما

لم يتحول إلى جحود؟^(١).

ثم طرح مجموعة من العناوين التي قام بالبحث فيها، قال: (أولاً، الردة

بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي.

١. الخشن: الفقه الجنائي في الإسلام. الردة نموذجاً، ص ٤١.

ثانياً، تحديد المراد بالأصول التي يُحكم بكفر منكرها، وهل إنكار الضروري يوجب الكفر والارتداد؟

ثالثاً، دور النية في الإسلام والكفر.

رابعاً، هل المعرفة بالإسلام شرط في تحقيق الارتداد؟

خامساً، هل إن الجحود شرط مقوم للارتداد؟

سادساً، هل وجود عذر للمرتد ينفي صدق الارتداد عليه حكماً أو موضوعاً؟^(١). أي هل يصدق عليه أنه مرتد ولكن لا يترتب عليه حكمه، أم أنه لا يصدق عليه ذلك من الأساس؟

وإذ كانت هذه التفاصيل ستخرجنا عن غاية بحثنا هذا، فإنني سأكتفي بما سبق لمجرد توضيح الصورة حول إمكانية وجود اختلاف في تطبيقات الردّة بين الفقهاء والمفكرين الإسلاميين، وفي حكم المرتد في الحالات المختلفة، مستشهداً برأي أخير للمفكر الإسلامي الشيخ محمد مهدي شمس الدين «ت١٤٢١هـ» حول ارتباط الحكم على المرتد بالأمن الاجتماعي.

قال: (إن مسألة العقيدة، مسألة الانتماء الديني في الإسلام، ليست مسألة فكرية وعقلية محضة، بل تتصل بالاجتماع السياسي من جهة، وتتصل بالاجتماع المدني من جهة أخرى. انتماء المسلم إلى الإسلام يشكله ضمن أمة، ويشكله ضمن اجتماع سياسي....

من هذا المنطلق نلاحظ: إذا تغلبت على عقل المسلم ووعيه شبهة أساسية، فإن الإسلام يطلب منه أن لا يستسلم لهذه الشبهة التي أدت به إلى

١. الخشن: الفقه الجنائي في الإسلام. الردة نموذجاً، ص ٤١.

التشكيك بالإسلام، وأن يتعمق في البحث ويسأل أهل العلم في شأن شبهته، فإذا ترسخت في عقله ونفسه، فإن الإسلام يطالب المرتد مطلقاً - الفطري والملي - أن يحتفظ بشبهته لنفسه وأن لا يحولها إلى مادة للدعاية.

فلو فرضنا أنه أراد تحويل شبهته أو قناعته إلى ثقافة عامة، فله ذلك، ولكن فليخرج عن دائرة الأمة وعن دائرة الاجتماع السياسي الإسلامي، وذلك لما قلناه قبل قليل من أن الانتماء الديني في الإسلام ليس مجرد انتماء ثقافي، بل هو انتماء مؤسساتي يجعل للمنتمي حقوقاً على المؤسسة، مؤسسة الأمة ومؤسسة المجتمع.

أما أنه إذا شك في بعض الأمور الاعتقادية، أو عدل عن الإسلام، جعل من شكوكه وشبهاته مادة للدعاية وللترويج وللتبشير ضد الإسلام بين المسلمين داخل المجتمع، ومن داخل الإسلام نفسه، فهذا أمر لا يوافق عليه الإسلام.. إن هذا المرتد، في هذه الحالة، لا يقوم بنشاط ثقافي، بل يقوم بعمل يقوض البناء الاجتماعي للإسلام...

وفي هذه الحالة من حق المجتمع أن يدافع عن نفسه. حد القتل لا يكون بمجرد إظهار الخروج عن الإسلام أو اعتناق دين آخر في حالة المسالمة والخضوع لأنظمة الدولة، وإنما يكون الحد فيما لو تحولت الردة إلى عمل سياسي ضد المجتمع وضد دولة المجتمع، ففي هذه الحالة يكون القتل بسبب الردة لا للتغير الفكري وإنما بسبب الحراية، بسبب أنه يتحول من مسالم إلى محارب، ويتحول إلى مفسد في الأرض^(١).

١. مجلة المنهاج، ع ١١، حوار بعنوان: الحريات الفكرية في الإسلام تأصيل ومقارنة.

القرآن يتحدث عن الردّة



القرآن يتحدث عن الردّة

تحدث القرآن الكريم في أكثر من آية عن الردة والمرتدين في العهد الإسلامي، سواء في السور المكية أو المدنية. وسواء باستعمال كلمة «ردّة» بذاتها واشتقاقاتها، أو بما يدل على ذلك من حيث المعنى من قبيل «الانقلاب» و«الكفر بعد الإيمان». وسنبداً بالسور المكية، وفيها آية واحدة من سورة النحل.

ولكن قبل ذلك فلنستعرض بعض الآيات التي تحدثت عن تحذير بعض الأنبياء من الردّة، ووقوع الردة عند بعض الأمم السابقة التي كانت قد آمنت برسالة السماء من قبل.

نجد في القرآن تحذيراً صدر من النبي إبراهيم عليه السلام لأبنائه ومن النبي يعقوب عليه السلام كذلك بعدم الردّة بعد موتها. قال عز وجل: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالِهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهِهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١).



لوحة تخيلية لجانب من وصية النبي يعقوب لبنيه قبل وفاته



لوحة تخيلية للعجل الذهبي الذي صنعه السامري وعبدّه بنو إسرائيل

ومن الموارد التي قدّمت كنماذج لإمكانية الردّة من قبل بعض المسلمين الحديث عن تجربة النبي موسى عليه السلام مع بني إسرائيل. قال عزّ وجلّ: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُضُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١﴾.

قال العلامة ابن عاشور «ت ١٣٩٣ هـ»: (سمّوا الصنم إلهاً لجهلهم، فهم يحسبون أن اتخاذ الصنم يُجدي صاحبه، كما لو كان إلهم معه، وهذا يدل على أن بني إسرائيل قد انخلعوا في مدة إقامتهم بمصر عن عقيدة التوحيد وحنيفية إبراهيم ويعقوب التي وصّى بها في قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢) لأنهم لما كانوا في حال ذل واستعباد ذهب علمهم وتاريخ مجدهم واندمجوا في ديانة الغالبين لهم، فلم تبق لهم ميزة تميزهم إلا أنهم خدمة وعبيد)^(٣).

وبين أيدينا تجربة أخرى ترتبط أيضاً بالنبي موسى عليه السلام وقومه كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌّ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ، وَمَا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤).

١. سورة الأعراف: ١٣٨-١٤٠.

٢. سورة البقرة: ١٢٢.

٣. ابن عاشور: التحرير والتنوير، تفسير الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

٤. سورة الأعراف: ١٤٨-١٤٩.

قال العلامة فضل الله: (وتجربة أخرى ترتبط أيضاً بموسى عَلَيْهِ السَّلَام وقومه كما في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ﴾ صنماً يعبدونه من دون الله ويؤثّونه في خشوع وابتهاال... اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ لأنفسهم في ما انحرفوا به عن خط الهدى والإيمان، وشعروا بالضياع، وعاشوا الندم بعد أن هدأ كل ذلك الجو الاستعراضي الذي أثاره السامري، فرجعوا إلى الله من جديد... ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ تعبير كنائي عن موقف الندام الذي يشعر بالإحباط ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ وانحرفوا عن الهدى الذي عاشوه مع موسى ﴿قَالُوا لَنْ نَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١).

وبالتالي تكون الآية الثانية دليلاً على حدوث الردة فعلياً من قبل أولئك القوم الذين خرجوا من مصر موحدّين فإذا بهم ينقلبون إلى عبادة العجل.

وقد ذكر القرآن الكريم ماهية العقوبة التي نزلت ببني إسرائيل حين ارتدوا بعبادة العجل. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

روى الشوكاني في معنى الآية السابقة: (عن علي قال: قالوا لموسى: ما توبّتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه لا يبالي من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً، فأوحى الله إلى موسى: مُرْهُمْ فَلْيَرْفَعُوا أَيْدِيَهُمْ، وقد غفر لمن قتل وتيب على من

١. فضل الله: من وحي القرآن: تفسير الآية ١٤٨-١٤٩ من سورة الأعراف.

٢. سورة البقرة: ٥٤.

بقي^(١). والعدد في الرواية كبير جداً، ولربما في الأمر مبالغة. والموجود في العهد القديم أن العدد المقتول ثلاثة آلاف، وكلهم من بني لاوي فقط، فهم الذين استجابوا لنداء التوبة: (ثُمَّ أَخَذَ الْعَجَلُ الَّذِي صَنَعُوا وَأَحْرَقَهُ بِالنَّارِ، وَطَحَنَهُ حَتَّى صَارَ نَاعِماً، وَذَرَاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَسَقَى بَنِي إِسْرَائِيلَ... وَقَفَ مُوسَى فِي بَابِ الْمُحَلَّةِ، وَقَالَ: مَنْ لِلرَّبِّ فِائِي^(٢)). فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمِيعُ بَنِي لَاوِي. فَقَالَ لَهُمْ: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: ضَعُوا كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ عَلَى فَخْذِهِ وَمُرُّوا وَارْجِعُوا مِنْ بَابِ إِلَى بَابٍ فِي الْمُحَلَّةِ، وَأَقْتُلُوا كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ قَرِيبَهُ. فَفَعَلَ بَنُو لَاوِي بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَوَقَعَ مِنَ الشَّعْبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافٍ رَجُلًا^(٣)).

علماً بأن النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَام من ذرية لاوي ابن النبي يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام، وصارت الكهانة عند بني إسرائيل في ذرية لاوي فقط.

ومن الموارد التي قُدِّمت كنماذج لإمكانية الردّة من قبل بعض المسلمين أيضاً الحديث عن تجربة النبي عيسى عَلَيْهِ السَّلَام مع بني إسرائيل.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ، قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، قَالَ اللَّهُ

١. الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج ١، ص ٩٠.

٢. أي فليتقدم نحوي كل من يستجيب للأمر الإلهي بالتوبة.

٣. العهد القديم: سفر الخروج، الإصحاح ٣٢، ٢٠-٢٨.

إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ .

قال العلامة ابن عاشور: ﴿فَمَنْ يَكْفُرُ﴾ تفريع عن إجابة رغبتهم، وتحذير لهم من الوقوع في الكفر بعد الإيمان إعلالاً بأهمية الإيمان عند الله تبارك وتعالى، فجعل جزاء إجابته إياهم أن لا يعودوا إلى الكفر، فإن عادوا عذبوا عذاباً أشد من عذاب سائر الكفار، لأنهم تعاضد لديهم دليل العقل والحس، فلم يبق لهم عذر... وقد وقفت قصة سؤال المائدة عند هذا المقدار وطوي خبر ماذا حدث بعد نزولها لأنه لا أثر له في المراد من القصة.. واختلف المفسرون في أن المائدة هل نزلت من السماء أو لم تنزل . فعن مجاهد والحسن أنهم لما سمعوا قوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ الآية، خافوا فاستعفوا من طلب نزولها فلم تنزل. وقال الجمهور: نزلت. وهو الظاهر (٢).

أما الطبري فقال في تفسيره: (فجحدوا وكفروا بعد ما أنزلت عليهم، فيما ذكر لنا، فعذبوا، فيما بلغنا، بأن مسخوا قردة وخنازير، كالذي..... عن قتادة قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ الآية، ذكر لنا أنهم حوّلوا خنازير..... عن عبد الله بن عمرو قال: «إن أشد الناس عذاباً ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون» (٣).

• الردة في العهد المكي:

قال عز وجل: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ

١. سورة المائدة: ١١٢-١١٥.

٢. ابن عاشور: التحرير والتنوير، تفسير الآية ١١٥ من سورة المائدة.

٣. الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن المشهور باسم تفسير الطبري، في تفسير الآية.

بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(١).

جاء في أسباب النزول عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه، قال: (أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه، فلما أتى رسول الله ﷺ قال: ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير. قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان. قال: إن عادوا فعد)^(٢). قال الحاكم «ت ٤٠٥ هـ»: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

قال العلامة الطباطبائي «ت ١٤٠٢ هـ» في تفسير الآية: (في الآيات وعيد على الكفر بعد الإيمان وهو الارتداد)^(٣).

وقال العلامة فضل الله في تفسيرها: (في أكثر من آية من آيات القرآن تأكيد على أن الإيمان بالله يمثل الحقيقة التي لا ريب فيها، وأن الذين يبتعدون عنها هم أحد فريقين، الجاهلون الذين لم ينفثوا على الحق من موقع المعرفة الواعية، والمعاندون الذين عرفوا الحق ثم أنكروه، ولهذا اعتبر الارتداد خيانة وجريمة لا مبرر لها، لأنها تصنف مرتكبها في فريق المعاندين، ذلك أن من آمنوا لا بد من أن يكونوا قد اكتشفوا جانب الحقيقة في الإيمان، فلا مبرر لتراجعهم عنه بعد وضوحه، ولهذا استحقوا العذاب)^(٤).

١. سورة النحل: ١٠٦.

٢. الحاكم النيسابوري: المستدرک على الصحيحين، ح ٣٣١٩.

٣. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، تفسير الآية ١٠٦ من سورة النحل.

٤. فضل الله: من وحي القرآن.

• الردة في العهد المدني:

وأما في السور المدنية فاستشهد بعدة موارد وأمثلة، أهمها:

١. ما جاء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ^(١).

ولكن التدقيق في الآية وسياقها لا يُفضي إلى القول بأنها تتحدث عن الردة بالمعنى المصطلح، بل كما قال العلامة الطباطبائي: (المقام مقام الكفر بالنعمة... والمعنى أن هذه الآيات الكاشفة عن ما يصنع الله بالطائفتين: الكافرين والشاكرين مصاحبة للحق من غير أن تجري على نحو الباطل والظلم) ^(٢). ولذا فالأقرب أنها أجنبية عن المقام.

٢. ونجد في مورد آخر في نفس السورة مجموعة من الآيات تتحدث عن الكفر بعد الإيمان، قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ^(٣).

١. سورة آل عمران: ١٠٦.

٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، تفسير الآية ١٠٦ من سورة آل عمران.

٣. سورة آل عمران: ٨٦-٩١.

في كتاب «أسباب النزول» للواحي «ت ٤٦٨ هـ»: (عن ابن عباس: أن رجلاً من الأنصار ارتد فالحق بالمشركين، فأنزل الله ﷻ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ فبعث بها قومه إليه، فلما قرئت عليه قال: والله ما كذبني قومي على رسول الله ﷺ ولا كذب رسول الله ﷺ على الله، والله عز وجل أصدق الثلاثة، فرجع تائباً، فقبل منه رسول الله ﷺ، وتركه) (١).

ولكن في «مجمع البيان في تفسير القرآن» للطبرسي «ت ٥٤٨ هـ»: (قيل: نزلت الآيات في رجل من الأنصار، يقال له: حارث بن سويد بن الصامت. وكان قتل المحذر بن زياد البلوي غدرًا، وهرب وارتد عن الإسلام، ولحق بمكة ثم ندم، فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ فسألوا. فنزلت الآية إلى قوله إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا فحملها إليه رجل من قومه، فقال: إني لأعلم أنك لصدوق، ورسول الله أصدق منك، وأن الله أصدق الثلاثة. ورجع إلى المدينة، وتاب، وحسن إسلامه، عن مجاهد والسدي، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: نزلت في أهل الكتاب الذين كانوا يؤمنون بالنبي ﷺ قبل مبعثه، ثم كفروا بعد البعثة، حسداً وبغياً، عن الحسن والجبائي وأبي مسلم) (٢).

والقول الثاني أوفق بسياق الآيات السابقة واللاحقة حيث أنها تتحدث عن موقف أهل الكتاب من النبي ﷺ ورسالته. وعلى هذا الاحتمال فستكون الآيات أجنبية عن المقام أيضاً.

١. الواحي: أسباب النزول، ح ٢٢٥.

٢. الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٣٣٨-٣٣٩.

٣. ومن الموارد قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾^(١).

في تفسير محمد بن مسعود العياشي «ت في القرن الرابع الهجري»: (عن زرارة وحرمان ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في قول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا﴾ قال: نزلت في عبد الله بن أبي سرح الذي بعثه عثمان إلى مصر^(٢) قال: ﴿ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا﴾ حين لم يبق فيه من الإيمان شيء^(٣)، والقول بنزول الآية فيه لخبر تلاعبه في تدوين القرآن لأنه كان يكتب الوحي للنبي، ثم هروبه إلى مكة مرتدًا مستهزئًا بالنبي والقرآن.

٤. ومن الموارد قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ، وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْصُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤).

قال العلامة فضل الله: (﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ فيخرج عن خطّ الانتماء إلى الإيمان إلى خطّ الكفر بشكل مباشر أو غير مباشر ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وابتعد عن خطّ الاستقامة الذي يؤدي إلى النجاة، ووقع في

١. سورة النساء: ١٣٧.

٢. ولاة الخليفة عثمان في زمن خلافته مصر سنة خمس وعشرين، وهو أخوه من الرضاعة.

٣. العياشي: تفسير القرآن، ج ١، ص ٢٨٠-٢٨١.

٤. سورة البقرة: ١٠٨-١٠٩.

التيه الفكري والعملي الذي يؤدي به إلى الهلاك في الدنيا والآخرة... ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ لتعودوا إلى الشرك الذي كنتم فيه ^(١).

٥. ومن الموارد قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ^(٢).

ذهب بعض المفسرين إلى أن مضمون هذه الآية لم يتحقق على عهد رسول الله ﷺ بل هو إخبار عن حروب الردة الواقعة بعيد وفاة النبي ﷺ، ومثال ذلك ما في تفسير الطبري: (عن قتادة: أنزل الله هذه الآية وقد علم أن سيرتد مرتدّون من الناس، فلما قبض الله نبيه محمداً ﷺ ارتدّ عامة العرب عن الإسلام، إلا ثلاثة مساجد: أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل البحرين من عبد القيس، قالوا: نصلي ولا نركي، والله لا تغضب أموالنا) ^(٣).

ولكن يبدو من خلال السياق الذي جاءت فيه الآية أنها في مقام تحذير المسلمين من مغبة تقديم التنازلات الفكرية والعملية لغيرهم مما يجعل الأمر نوعاً من صور الردّة العملية، لا أنها تتحدّث عن وقوع ردّة بمعنى التحول من الإسلام إلى دين آخر أو إلى الوثنية، تماماً كما تتحدّث بعض الآيات عن الكفر دون أن تقصد الخروج من الدين، بل الكفر العملي المتمثل بكفر النعمة على

١. فضل الله: من وحي القرآن، تفسير الآيتين ١٠٥-١٠٦ من سورة البقرة.

٢. سورة المائدة: ٥٤.

٣. الطبري: جامع البيان، ح ١٢١٨٤.

سبيل المثال، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (١).

فالأيات السابقة واللاحقة تشير إلى النماذج التي تقدّم لغير المسلمين فروض الطاعة والولاء، وتنهى عن الوقوع في هذا الشّرك الشيطاني الذي لا يُكْتَب للإنسان المسلم معه إلا الخسران المبين.

فالأيات السابقة جاءت كالتالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ، وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأُصْبِحُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢)، والآيات اللاحقة لها كالتالي: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

إنّ تقديم التنازلات الفكرية والعملية عن قضايا الإسلام صورة من صور الارتداد العملي، وابتعاد عن الدين، وقد يؤدي ذلك في بعض الحالات المحدودة

١. سورة إبراهيم: ٧.

٢. سورة المائدة: ٥١-٥٣.

٣. سورة المائدة: ٥٥-٥٧.

إلى الخروج منه كلياً، كما جرى لبعض المسلمين على عهد النبي ﷺ خلال فترة الهجرة إلى الحبشة أو إلى المدينة بسبب بعض العوامل الشخصية أو نتيجة الانسياق وراء هويّ ما، أو الشعور بالانسحاق التام أمام إرادة الآخرين والاستسلام لضغوطهم.

٦. ومن الموارد قوله عزّ وجلّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتِ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

قال العلامة فضل الله: (ثمّ تتوجه الآية إلى المسلمين الذين قد يستسلمون للضعف أمام الضغط الهائل الذي تمثّله قوى الشرك، فيرتدّون عن دينهم، فتعرّفهم خطورة الارتداد في حساب المصير، تبعاً لأهمية الإيمان بالله في حياة الإنسان في الدنيا والآخرة.... فتقرّر الآية - في هذا الجوّ - أنّ الإنسان الذي يموت كافراً في خطّ الارتداد يسقط من حساب الله في كلّ المجالات)^(٢).

٧. ومن الموارد قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يُعَلِّمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ، اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ

١. سورة البقرة: ٢١٧.

٢. فضل الله: من وحي القرآن، تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة.

كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ^(١). قال العلامة الطباطبائي: (لا يبعد أن يكون فيهم من آمن حقيقة ثم ارتدّ وكنتم ارتداده فالحق بالمنافقين يتربص بالنبي ﷺ وبالمؤمنين الدوائر)^(٢).

٨. وهكذا قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

كان أسلم عبداً اشتراه الخليفة عمر بن الخطاب سنة ١٢ هـ، واختلف في أصله هل هو من اليمن أم الحبشة أم غير ذلك، وصار يُعرف باسم أسلم مولى عمر، وصار من التابعين ورواة الحديث، «ت ٨٠ هـ»، وولد له ولد اسمه زيد، ويقال له زيد بن أسلم العدوي العمري، ولأهلاً لا نسباً، وصار من رجال العلم في المدينة المنورة «ت ١٣٦ هـ».

جاء في كتاب «أسباب النزول» للواحدي: (قال زيد بن أسلم: مرّ شاس بن قيس اليهودي وكان شيخاً قد غبر في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم، فمرّ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من

جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في

١. سورة المنافقون: ١-٣.

٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، تفسير الآية ١٠٣ من سورة المنافقون.

٣. سورة آل عمران: ١٠٠-١٠١.

الجاهلية من العداوة، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة^(١) بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار.

فأمر شاباً من اليهود كان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم ذكّرهم بُعات وما كان فيه وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار. وكان بعثت يومٌ اقتتل في الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا حتى تواتب رجلان من الحيين أوس بن قَيْظي أحد بني حارثة من الأوس، وجابر بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا وقال أحدهما لصاحبه: إن شئتَ رددتها جذعاً^(٢).

وغضب الفريقان جميعاً وقالوا: ارجعوا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة. وهي حرّة^(٣).

فخرجوا إليها، فانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين، أتعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟ الله الله.

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح

١. يقال للأوس والخزرج بنو قيلة نسبة لأهمهم وهي: قيلة بنت الأرقم.

٢. أي كما كانت.

٣. أرض بركانية.

من أيديهم وبكوا، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني الأوس والخزرج ﴿إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني شاساً وأصحابه ﴿يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾.

قال جابر بن عبد الله: ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله ﷺ، فأوماً إلينا بيده، فكففنا وأصلح الله سبحانه وتعالى ما بيننا، فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ. فما رأيت يوماً أقبح ولا أوحش أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم^(١).

وهل العودة إلى الكفر هنا بمعنى الردة أم الكفر العملي ولومع البقاء على الإسلام؟ الثاني أقرب.

إلا أن العلامة فضل الله أخذ الفكرة الإجمالية للآيات بعيداً عن رواية سبب النزول، وانطلق من تلك الفكرة في البيان التالي الذي يؤكد من خلاله أن المراد وقوع الردة: (﴿يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ ليعضفوا الإسلام بخروج المؤمنين به من الانتماء إليه، ولينفّسوا عن عقدتهم الذاتية تجاهكم، وإن كانوا لا يواجهونكم بالدعوة إلى الكفر في البداية بشكل مباشر، بل يطرحون أمامكم بعض القضايا الجانبية التي تدخل في عداد الأمور المرتبطة بالعلاقات الاجتماعية والعصبيات العائلية، ما يجعلكم تأمنون الخطر على إيمانكم في البداية، فإنّ عليكم أن تعرفوا أنّ ذلك يمثل الخطّة الدقيقة التي تتدرج في خطوطها لتأخذكم على حين غرة، لتصل

١. الواحدي: أسباب النزول، سبب نزول الآية ١٠٠ من سورة آل عمران.

بكم في نهاية الأمر إلى الوقوع في حبالهم والسقوط في مخططاتهم في انحرافكم عن خط الإيمان إلى الكفر^(١).

٩. ومن الموارد قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْدُّكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾^(٢).

فالآية تتحدث عن التراجع عن الدين الذي آمنوا به، والتوحيد الذي أخلصوا له، بالمستوى الذي قد يتخلّون فيه عن الحقيقة ليقعوا في أحضان الشرك الذي لا يعدو أن يكون مجموعة من الأوهام والخرافات والأساطير والظنون الباطلة. إنّ هذا الانقلاب هو الخسران الواضح البين، لأنهم إن وقعوا في حباله سيفقدون الصفاء الروحي الذي أشرق في وجدانهم حين آمنوا، وسيفتحون على أنفسهم أبواب جهنم بانقيادهم للشيطان الذي يريد أن يوردهم منهله الأخروي، ليكون مصيرهم مصيره، وليلتذّب برؤيتهم في موقع الخسارة الكبرى في الآخرة، كما خسر هو باستكباره وعناده.

١٠. ومن الموارد قوله ﷺ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ يُخْضُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٣).

١. فضل الله: من وحي القرآن، تفسير الآية ١٠٠ من سورة آل عمران.

٢. سورة آل عمران: ١٤٩.

٣. سورة آل عمران: ١٥٤.

قال الطبري في تفسيره: (يعني بذلك جلّ ثناؤه: ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ منكم، أيها المؤمنون ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يقول: هم المنافقون لا هم لهم غير أنفسهم، فهم من حذر القتل على أنفسهم، وخوف المنية عليها في شغل، قد طار عن أعينهم الكرى، يظنون بالله الظنون الكاذبة، ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله، شكاً في أمر الله، وتكذيباً لنبيه ﷺ، ومحسبة منهم أن الله خاذل نبيه ومُعلٍ عليه أهل الكفر به، ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١). ولكن كيف يكون المنافقون طائفة من المؤمنين؟

قال العلامة ابن عاشور: (﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ ذهب بهم هواجسهم إلى أن ظنوا بالله ظنوناً باطلة من أوهام الجاهلية. وفي هذا تعريض بأنهم لم يزالوا على جاهليتهم لم يخلصوا الدين لله، وقد بين بعض ما لهم الظن بقوله: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ... وهو تبرئة لأنفسهم من أن يكونوا سبباً في مقابلة العدو، حتى نشأ عنه ما نشأ، وتعريض بأن الخروج للقتال يوم أحد خطأ وغرور، ويظنون أن محمداً ﷺ ليس برسول إذ لو كان لكان مؤيداً بالنصر)^(٢).

هنا أيضاً يذكر ابن عاشور أن تلك الطائفة هي طائفة المنافقين، على الرغم من الآية تتحدث عن طائفة من المؤمنين!

ولذا فالأقرب إلى المعنى ما ذكره العلامة الطباطبائي من أن الآيات إنما تتحدث عن أوضاع بعض المؤمنين ممن اهتزوا بسبب ما جرى في أجواء المعركة وتخوفهم من عواقب الهزيمة وما أشيع من مقتل رسول الله على يد المشركين.

١. الطبري: جامع البيان، تفسير الآية ١٥٤ من سورة آل عمران.

٢. ابن عاشور: التحرير والتنوير، تفسير الآية ١٥٤ من سورة آل عمران.

قال: (هذه طائفة أخرى من المؤمنين، ونعني بكونهم من المؤمنين أنهم غير المنافقين الذين ذكرهم الله أخيراً بقوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَاكُمْ﴾^(١) وهم الذين فارقوا جماعة المؤمنين في أول الأمر قبل القتال وانخذلوا فهؤلاء المنافقون لهم شأن آخر سينبئ الله بذلك. وهؤلاء الطائفة الثانية الموصوفون بأنهم قد أهمتهم أنفسهم لم يكرمهم الله بما أكرم به الطائفة الأولى من العفو وإثابة الغم ثم الأمانة والنعاس، بل وكلهم إلى أنفسهم فأهمتهم أنفسهم ونسوا كل شيء دونها... قوله تبارك وتعالى: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ أي ظنوا بالله أمراً ليس بحق بل هو من ظنون الجاهلية، فهم يصفونه بوصف ليس بحق بل من الأوصاف التي كان يصفه بها أهل الجاهلية، وهذا الظن أياً ما كان هو شيء يناسبه ويلزمه قولهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ويكشف عنه ما أمر النبي ﷺ أن يجيبهم به، وهو قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ فظاهر هذا الجواب أنهم كانوا يظنون أن بعض الأمر لهم، ولذا لما غلبوا وفشا فيهم القتل تشككوا فقالوا: هل لنا من الأمر من شيء. وبذلك يظهر أن الأمر الذي كانوا يرونه لأنفسهم هو الظهور والغلبة، وإنما كانوا يظنونهم لأنفسهم من جهة إسلامهم، فهم قد كانوا يظنون أن الدين الحق لا يغلب ولا يغلب المتدين به، لما أن على الله أن ينصره من غير قيد وشرط، وقد وعدهم به. وذا هو الظن بغير الحق، الذي هو ظن الجاهلية، فإن وثنية الجاهلية كانت تعتقد أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء، وأن لكل صنف من

أصناف الحوادث كالرزق والحياة والموت والعشق والحرب وغيرها، وكذا لكل نوع من الأنواع الكونية كالإنسان والأرض والبحار وغيرها رباً يدبّر أمرها لا يُغلب على إرادته، وكانوا يعبدون هؤلاء الأرباب ليدرّوا لهم الرزق، ويجلبوا لهم السعادة، ويقوهم من الشرور والبلايا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَأَمَلِكِ الْعَظِيمِ يفوض كل صنف من أصناف رعيته وكل شطر من أقطار ملكه إلى والٍ تام الاختيار له أن يفعل ما يشاء في منطقة نفوذه وحوزة ولايته. وإذا ظن الظان أن الدين الحق لا يصير مغلوباً في ظاهر تقدمه والنبي ﷺ - وهو أول من يتحمّله من ربه ويحمل أثقاله - لا يُقهر في ظاهر دعوته أو أنه لا يُقتل أو لا يموت، فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية فاتخذ الله أنداداً، وجعل النبي ﷺ رباً وثنياً مفوضاً إليه أمر الغلبة والغنيمة، مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واحد لا شريك له، إليه يرجع الأمر كله وليس لأحد من الأمر شيء ^(١).

١١. ومن الموارد قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةً الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ^(٢).

في تفسير الطبري: (عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: نزلت هذه الآية: يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ فِي الْجُلَاسِ بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مُصْعَبٌ من قُباء،

١. الطباطبائي: الميزان، تفسير الآية ١٥٤ من سورة آل عمران.

٢. سورة التوبة: ٧٤.

فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن أشرُّ من حُمُرنا هذه التي نحن عليها ! فقال مصعب: أما والله، يا عدو الله، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ بما قلتَ ! فأتيتُ النبي ﷺ، وخشيتُ أن ينزل في القرآن، أو تصيبني قارعة، أو أن أخلط بخطيئته، قلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجلاس من قباء، فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أخلط بخطيئته، أو تصيبني قارعة، ما أخبرتك. قال: فدعا الجلاس فقال له: يا جلاس، أقلت الذي قال مصعب؟ قال: فحلف، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ الآية (١).

وفيه أيضاً: (عن قتادة قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال: ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة، والآخر من غفار، وكانت جهينة حلفاء، الأنصار، وظهر الغفاري على الجهني، فقال عبد الله بن أبي للأوس: انصروا أخاكم، فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سَمَنْ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ وَقَالَ: ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ (٢)، فسعى بها رجل من المسلمين إلى نبي الله ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ (٣). ولعل الرواية الأولى أولى من هذه على فرض صحتها، لأن قضية ابن سلول عولجت في سورة المنافقون والتي يعود تاخيرها إلى العام الهجري السادس ضمن أحداث غزوة بني المصطلق.

١. الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، ح ١٦٩٦٨.

٢. سورة المنافقون: ٨.

٣. الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، ح ١٦٩٧٤.

قال العلامة فضل الله: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ كلمة الكفر ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ فأظهروا الكفر بعد إظهارهم الإسلام، وقد كان النبي يكتفي من الإسلام بإظهار الشهادتين مع الاستعداد للانسجام مع الخط العملي للإسلام، بعيداً عن التدقيق في الهوية الداخلية الذاتية للشخص^(١).

١٢. ومن الموارد قوله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢).

قال العلامة ابن عاشور: (الآية تشير إلى ما كان من المسلمين من الاضطراب حين أُرِجِفَ بموت الرسول ﷺ فقال المنافقون: لو كان نبياً ما

قُتِلَ، فارجعوا إلى دينكم القديم وإخوانكم من أهل مكة، ونكلم عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، فهموا بترك القتال والانضمام للمشركين، وثبت فريق من المسلمين، منهم: أنس بن النضر الأنصاري فقال: إن كان قُتِلَ محمد فإن ربَّ محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعده، فقاتلوا

هو عم الصحابي أنس بن مالك. لم يشهد بدرًا، وقد روي أنه قال: (غبت عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين، لئن أشهدني الله عز وجل قتالاً ليرين الله ما أصنع). شهد أحداً واستشهد فيها ووُجِدَ قتيلاً فيه بضع وثمانون بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، وقد مُثِلَ به فما عرفوه حتى عرفته أخته بيَّانَه.

١. فضل الله: من وحي القرآن، تفسير الآية ٧٤ من سورة التوبة.

٢. سورة آل عمران: ١٤٤.

على ما قاتل عليه^(١). والآية لا تُخبر عن حدوث الردة في أجواء الهزيمة في غزوة أحد، بل عن الهم بذلك من قبل بعض المسلمين.

١٣. ومن الموارد قوله جَلَّالَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾^(٢).

قال الطبرسي في مجمع البيان: (﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي من بعد ما بان لهم طريق الحق، وهم المنافقون، عن ابن عباس والضحاك والسدي، كانوا يؤمنون عند النبي ﷺ ثم يُظهرون الكفر فيما بينهم، فتلك ردة منهم. وقيل هم كفار أهل الكتاب كفروا بمحمد ﷺ وقد عرفوه ووجدوا نعته مكتوباً عندهم عن قتادة^(٣). فعلى القول الثاني ستكون الآية أجنبية عن المقام.

وذكر العلامة الطباطبائي أربعة احتمالات:

١. قوم من المنافقين أسروا إلى الكفار ما حكاه تعالى عنهم ووعدهم الطاعة لهم مهما تيسر لهم ذلك.

٢. هم اليهود قالوا للمنافقين: إن أعلنتم الكفر نصرناكم.

٣. هم اليهود أو اليهود والمنافقون قالوا ذلك للمشركين.

٤. هم المنافقون وعدوا اليهود النصر، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران.

٢. سورة محمد: ٢٥-٢٦.

٣. الطبرسي: مجمع البيان، ج ٩، ص ١٥٨.

نَافِقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴿١﴾ .

ثم جاء بما يؤيد الرأي الأول ويضعف باقي الآراء، وعلى ذلك تكون الآية أجنبية عن المقام ^(٢) .

١٤. ومن الموارد قوله عَجَلٌ: ﴿إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ ^(٣) .

قال العلامة الطباطبائي: (﴿وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا﴾ أي يظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض الظنون، فبعضهم يقول: إن الكفار سيغلبون ويستولون على المدينة، وبعضهم يقول: إن الإسلام سينمحق والدين سيضيع، وبعضهم يقول: إن الجاهلية ستعود كما كانت، وبعضهم يقول: إن الله غرهم ورسوله، إلى غير ذلك من الظنون) ^(٤) . وبعض هذه الظنون يصل إلى حد الردّة بصورة أو بأخرى.

١. سورة الحشر: ١١.

٢. الطباطبائي: الميزان، تفسير الآيتين ٢٥-٢٦ من سورة محمد.

٣. سورة الأحزاب: ١٠-١١.

٤. الطباطبائي: الميزان، تفسير الآية ١٠ من سورة الأحزاب.

الكتاب المقدس والرّدة



الكتاب المقدس والردة

يطلق عنوان «الكتاب المقدس» على ما يشمل «العهد القديم» و«العهد الجديد». والعهد القديم عبارة عن التوراة وكتب أخرى منسوبة للأنبياء من قبيل «سفر يشوع» و«سفر القضاة» والزبور «مزامير داود»، وكتب أخرى كثيرة منسوبة للأنبياء وإلى شخصيات من التاريخ اليهودي إلى ما قبل السيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَام. أما العهد الجديد فيشمل الأناجيل الأربعة وكتب أخرى.

مر بنا أثناء الحديث عن الردة في القرآن كيف أمر الله عَزَّجَلَّ بني إسرائيل بقتل أنفسهم بعد ردتهم باتخاذهم العجل. وقد تحدث العهد القديم عن هذا الأمر أيضاً، موضحاً كيف قتل بنو لاوي بعضهم بعضاً استجابةً للأمر الإلهي حتى مات منهم ثلاثة آلاف شخص. ثم عفا الله عن الباقيين.

وفي سفر التثنية حديث عن عقوبة

الردة: (إِذَا وَجَدَ فِي وَسْطِكَ فِي أَحَدِ أَبْوَابِكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ رَجُلٌ أَوْ امْرَأَةً يَفْعَلُ شَرًّا فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ إِلَهُكَ بِتَجَاوُزِ عَهْدِهِ ^(١) وَيَذْهَبُ وَيَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى وَيَسْجُدُ لَهَا، أَوْ لِلشَّمْسِ أَوْ لِلْقَمَرِ أَوْ لِكُلِّ مَنْ جُنْدَ السَّمَاءِ، الشَّيْءَ الَّذِي لَمْ أُوصِ بِهِ، وَأُخْبِرْتَ وَسَمِعْتَ وَفَحَصْتَ جَيِّدًا، وَإِذَا الْأَمْرُ صَحِيحٌ أَكِيدُ،

١. وأول العهود عدم الشرك.



لوحة تخيلية لعقوبة الرجم عند اليهود

قَدْ عَمِلَ ذَلِكَ الرَّجْسُ فِي إِسْرَائِيلَ، فَأَخْرَجَ ذَلِكَ الرَّجُلَ أَوْ تِلْكَ الْمَرْأَةَ، الَّذِي
فَعَلَ ذَلِكَ الْأَمْرَ الشَّرِيرَ إِلَى أَبْوَابِكَ، الرَّجُلَ أَوْ الْمَرْأَةَ، وَارْجَمَهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى
يَمُوتَ. عَلَى فَمِ شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ شُهُودٍ يُقْتَلُ الَّذِي يُقْتَلُ. لَا يُقْتَلُ عَلَى فَمِ
شَاهِدٍ وَاحِدٍ. أَيْدِي الشُّهُودِ تَكُونُ عَلَيْهِ أَوَّلًا لِقَتْلِهِ، ثُمَّ أَيْدِي جَمِيعِ الشَّعْبِ
أَخِيرًا، فَتَنْزَعُ الشَّرَّ مِنْ وَسْطِكَ^(١).

١. العهد القديم: سفر التثنية، الإصحاح ١٧، ٢-٧.

قال القمص «تادرس يعقوب» تعليقاً على العبارات السابقة: (عقوبة عبادة الأوثان الرجم، سواء كان العابد رجلاً أو امرأة، فإنه لا يُقدّم ضعف المرأة عذراً للتعبّد للأوثان)^(١).

وفي سفر التثنية حديث عن عقوبة الغواية للردة وحكمها: (وَإِذَا أَغْوَاكَ سِرّاً أَخُوكَ ابْنُ أُمِّكَ، أَوْ ابْنُكَ أَوْ ابْنَتُكَ أَوْ امْرَأَةُ حُضْنِكَ، أَوْ صَاحِبُكَ الَّذِي مِثْلُ نَفْسِكَ قَائِلاً: نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى لَمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلَا آبَاؤُكَ، مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَكَ، الْقَرِيبِينَ مِنْكَ أَوِ الْبُعِيدِينَ عَنْكَ، مِنْ أَقْصَاءِ الْأَرْضِ إِلَى أَقْصَائِهَا، فَلَا تَرْضَ مِنْهُ وَلَا تَسْمَعْ لَهُ وَلَا تُشْفِقْ عَيْنُكَ عَلَيْهِ، وَلَا تَرْقُ لَهُ وَلَا تَسْتُرَهُ، بَلْ قَتَلًا تَقْتُلُهُ. يَدُكَ تَكُونُ عَلَيْهِ أَوْ لَا لَقَتْلَهُ، ثُمَّ أَيُّدِي جَمِيعِ الشَّعْبِ آخِيراً. تَرْجِمُهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ، لِأَنَّهُ التَّمَسَّ أَنْ يُطَوِّحَ عَنِ الرَّبِّ إِلَهِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. فَيَسْمَعُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ وَيَخَافُونَ، وَلَا يَعُودُونَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ هَذَا الْأَمْرِ الشَّرِيرِ فِي وَسْطِكَ)^(٢).

قال القمص تادرس يعقوب تعليقاً على العبارات السابقة: (وإذ كان وباء انتشار الوثنيّة خطيراً، لذلك طالبت الشريعة بقتل من يغوي على العبادة الوثنيّة، مهما كانت درجة قرابة الإنسان الذي يحاول الإغواء سرّاً، أو مهما بلغت صداقته له. فإنه يليق بالمؤمن أن يحدّد موقفه: الله أم قريبه؟)^(٣).

https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Tadros-Yacoub-Malaty/05-Sefer-El-Tathneya/Tafseer-Sefer-El-Tathnia_01-Chapter-17.html

٢. العهد القديم: سفر التثنية، الإصحاح ١٢، ٦-١١.

٣. https://elmobde3on.blogspot.com/p/blog-page_21.html.

• حرق المهرطقين:

وقد شهد العالم المسيحي الغربي عقوبة حرق المهرطقين. وبين «ج. ويتلر» في كتابه «الهرطقة في المسيحية» بأن بين الهرطقة والبدعة بحسب المفهوم المسيحي عموم وخصوص من وجه، قال أولاً: (إن البدعة الدينية مطبوعة بواقع أن أتباعها يلتحقون برأي تعتبره خاطئاً سلطةً كهنوتيةً أو غالبية أعضاء كنيسة معينة. فالأمر ليس رأياً وحسب، بل هو انحراف. وهذا الانحراف يتناول إما العقائد أو الطقوس أو النظام، ويشكل في الحالة الأولى^(١) أي أن الانحراف في العقائد «هرطقة».

ثم قال: (فالمهرطوقي لا يصبح منتسباً إلى بدعة دينية إلا حين يستمر في خطئه وينفصل بشكل مكشوف عن الكنيسة مع عدد من الأشخاص الذين يفكرون مثله على صعيد الإيمان، فالمرء لا يمكنه أن يشكل بدعة لوحده، ولكن يمكن شخصاً لوحده أن يؤمن بهرطقة من دون أن يكون عضواً في جماعة هرطوقية أو زعيماً لها. وتلك كانت جريمة «دوليه» الذي تعرّض للإدانة لأنه أنكر حركة الشمس!)^(٢). أي ليس كل هرطوقي مبتدع، لأنه قد لا يشاركه في متبناه أحد، حيث أن شرط البدعة تبني الرأي الدخيل من قبل مجموعة... وليس كل مبتدع هرطوقي، لأن البدعة قد تكون في الطقوس لا في العقائد، والهرطقة تخص العقائد.

وعلى العموم، فإذا جاء شخص مسيحي ببدعة أو هرطقة ما، فإن هذا بالتالي يمثل نوعاً من الردة.

١. ويتلر: الهرطقة في المسيحية، ص ١٥.

٢. ويتلر: الهرطقة في المسيحية، ص ١٧-١٨.

الحرمان الكنسي: عقوبة تنزلها الكنيسة بحق البعض من أبنائها بهدف الحض على التوبة، وهو يفضي إلى قطع الشركة بين الشخص والكنيسة، وبالتالي الشراكة في الإيمان مع سائر المسيحيين إلى أن يتوب.

قال ويتلر: (وفي القانون الكنسي يؤدي جرم الهرطقة إلى عقاب واحد وحيد هو **إلقاء الحُرْم**. أي الحرمان من الأسرار المقدسة ومن القداس الإلهي وصلوات الكنيسة والمنافع والأعباء الكنسية، وأخيراً من الدفن في أرض مسيحية)^(١). إلا

أن العقوبة تطورت تدريجياً إلى أن وصلت إلى حد حرق المهرطق حياً، كما ذكر المؤلف بخصوص صاحب مقولة عدم دوران الشمس.

ولم تقتصر العقوبة المشددة على المهرطق أو أتباعه، قال ويتلر: (يعاقب بتهمة الهرطقة: الهرطقة بحصر المعنى، وأصحاب الهرطقات أو مبتدعوها، وبالأحرى المرتدون، المشتبه بهم بجرم الهرطقة، ناشرو العقائد المتعلقة بالهرطقة والمدافعون عنها، ناشرو الكتب الهرطوقية، المدافعون عنها، وقراءؤها وحائزوها. وكانت لائحة المجرمين في الماضي أكثر اتساعاً، ففي القرن الثالث عشر أصابت فتوى صادرة عن البابا بونيفاسيوس الثامن بالحُرْم مَنْ يكون استقبل هرطوقياً أو دافع عنه أو ساعده، وحتى من يدفنه، وفي الحالة الأخيرة لا يُحل المذنب من العقوبة إلا إذا أخرج من القبر جثمان الهرطوقي)^(٢).

ومن خلال ذلك تم إحراق أعداد هائلة من المسيحيين بأمر الكنيسة خلال

١. ويتلر: الهرطقة في المسيحية، ص ٢٦-٢٧.

٢. ويتلر: الهرطقة في المسيحية، ص ٢٧-٢٨.



لوحة تخيلية لحرق متهم بالهرطقة

عدة قرون، ولم يتوقف الأمر إلا عام ١٨٣٤م، حيث أوقفت محاكم التفتيش رسمياً. وقد اعتمدت الكنيسة في تبرير وشرعنة عقوبة الحرق للأحياء على النص الإنجيلي التالي على لسان السيد المسيح عليه السلام: (أَنَا الْكَرْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ^(١) وَأَبِي الْكَرَامُ...^(٢) كُلُّ غُصْنٍ فِيَّ لَا يَأْتِي بِثَمَرٍ يَنْزَعُهُ، وَكُلُّ مَا يَأْتِي بِثَمَرٍ يُنْقِيهِ لِيَأْتِي بِثَمَرٍ أَكْثَرَ. أَنْتُمْ الْآنَ أَنْقِيَاءُ لِسَبَبِ الْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمْتُكُمْ بِهِ^(٣) اثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ..... إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يَثْبُتُ فِيَّ يُطْرَحُ خَارِجًا كَالْغُصْنِ، فَيَجِفُّ وَيُجْمَعُونَهُ وَيَطْرَحُونَهُ فِي النَّارِ، فَيَحْتَرِقُ)^(٤).

١. أي شجرة العنب.

٢. أي أن الله هو زارع أو غارس تلك الشجرة.

٣. أي بالتزامكم بتعليماتي.

٤. العهد الجديد: إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٤، ١-٦.

وأرجع «ويل ديورنت» اعتماد هذه العقوبة في الغرب إلى جذور قديمة، قال: (كانت قوانين اليونان ترى المروق من الدين، أي الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية، جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام. وهذا هو القانون الذي حُكم به على سقراط بالموت. وفي روما القديمة، حيث كان الآلهة حلفاء الدولة وأصدقاءها الأوفياء، كان الخروج عليهم أو التجديف في حقهم من جرائم الخيانة العظمى التي يعاقب عليها بالإعدام. فإذا لم يوجد من يتقدم باتهام المذنب، استدعى القاضي الروماني نفسه هذا المتهم وقام بتحقيق القضية **Inquisition**، ومن هذا الإجراء أخذت محكمة التفتيش أو التحقيق العصور الوسطى شكلها وأسمها.... ولما انتشر الإلحاد في القرن الثاني عشر قال بعض رجال الكنيسة إن حرمان الملحدين يجب أن يعقبه نفي الدولة إياهم أو سجنهم)^(١).

وتدرج ديورنت في الحديث عن تطور عقوبة الهرطقة، وقيام بعض عامة الناس بأنفسهم بحرق بعض المتهمين بالهرطقة أو اختطافهم من أيدي السلطات ثم حرقهم وأنَّ أشدَّ قوانين الاضطهاد كان القانون الذي سنَّه «فردريك الثاني» إمبراطور روما المقدسة وقائد الحملة الصليبية السادسة «ت ١٢٥٠ م»، وذلك فيما بين عامي ١٢٢٠ و ١٢٣٩ م، وقضى بأن:

١. يُسَلَّم الضالون الذين تحكم عليهم الكنيسة إلى المسؤولين المحليين، وأنَّ يُحرقوا أحياءً.

٢. إذا رجعوا عن ضلالهم نجوا من الموت وحُكم عليهم بالسجن مدى

١. ديورنت: قصة الحضارة، ج ١٧، ص ١٧.



لوحتان تخيليتان تصوّران بعض طرق تعذيب وقتل المهرطقين



من أدوات التعذيب التي كانت تستعمل في محاكم التفتيش

الحياة، ثم صودرت جميع أملاكهم، وحُرم ورثتهم من ميراثهم.

٣. يبقى أبناؤهم محرومين من حق الاختيار إلى أي منصب ذي دخل أو كرامة، إلا إذا كفّروا عن ذنب آبائهم بالتبليغ عن غيرهم من الضالين.

٤. تُحرق بيوت الضالين ولا يعاد بناؤها قط^(١).

وكان إحراق الأفراد الأحياء بتهمة الهرطقة يتم أحياناً على يد الناس لمجرد الشبهة، واعتبرته الكنيسة أمراً يستحق الثناء! حتى أن قسيساً من شمال فرنسا أرسل رسالة إلى البابا إنوسنت الثالث يقول فيها: (لقد بلغ من تقوى الناس في هذه البلاد أنك لا تراهم على استعداد لأن يبعثوا إلى موضع الحرق بمن ثبت ضلالتهم فحسب، إنهم ليبعثون إليه فوق ذلك بكل من يظنونه ضالاً)^(٢).

وهكذا استحرّ القتل حرقاً للأحياء المتهمين بالهرطقة على مدى قرون متمادية، مع تطور القوانين الخاصة بكيفية المطاردة وتنفيذ العقوبة وطبيعة التهم الموجهة والتعذيب لانتزاع الاعترافات أو الشهادات ولو زوراً.

وكان التعذيب يُستخدم في كثير من الأحيان لإرغام الشهود على أداء الشهادة، أو لإجبار الضال المعترف على الإدلاء بأسماء غيره من الضالين. وكان من أنواعه الجلد، والكي بالنار.. وكانت قدما المتهم توضعان أحياناً على الفحم المتقد، أو كان يُشد إلى إطار على شكل مثلث ثم تُجذب يداه وساقاه بالحبال الملفوفة حول آلة لاوية.

١. ويل ديورنت: قصة الحضارة، ج ١٧، ص ١٧.

٢. ويل ديورنت: قصة الحضارة، ج ١٧، ص ١٥.

بعد عرض هذه الصور قال ديورنت: (لا بد لنا أن نضع محاكم التحقيق في مستوى حروب هذه الأيام واضطهاداتها، ونحكم عليها جميعاً بأنها أشنع الوصمات في سجل البشرية كله، وبأنها تكشف عن وحشية لا نعرف لها نظيراً عند أي وحش من الوحوش)^(١).

١. ويل ديورنت: قصة الحضارة، ج ١٧، ص ٣١.

المرتدّون على عهد النبي ﷺ



المرتدون على عهد النبي ﷺ

ارتد عدد من المسلمين بشكل فردي أو جماعي خلال العهد النبوي الشريف، وسنتناول فيما يلي ما روي في هذا الشأن مع بعض التعليق.

• عبيد الله بن جحش الأسدي:

آمنت في مكة مع زوجها عبيد الله، ثم هاجرت معه إلى الحبشة. ولما ارتد، أرسل النبي إلى النجاشي يخطبها، فأوكلت عنها خالد بن سعيد بن العاص وأصدقها النجاشي أربعمائة دينار وأولم لها وليمة فاخرة وجهازها وأرسلها إلى المدينة، وذلك في السنة ٧هـ على ما روي، وكان عمرها يومئذ ٣٦ سنة. «ت ٤٤ هـ» ودفنت في البقيع.

روى الزهري، قال: (تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت قبله تحت عبيد الله بن جحش الأسدي. فمات عنها بأرض الحبشة وكان خرج بها من مكة مهاجراً، ثم افتتن وتنصر، فمات وهو نصراني، وأثبت الله الإسلام لأم حبيبة والهجرة، ثم تنصر زوجها ومات وهو نصراني، وأبت أم

حبيبة بنت أبي سفيان أن تنتصر، وأتم الله ﷻ لها الإسلام والهجرة حتى قدمت المدينة، فخطبها رسول الله ﷺ، فزوجها إياه عثمان بن عفان^(١).

١. الحاكم النيسابوري: المستدرک على الصحيحين، ح ٦٨٣٤.

وعبيد الله من قبيلة أسد خزيمة، وهي قبيلة خندفية مضرية عدنانية، وذكر نسبهم كالتالي: بنو أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. قيل أنَّهم كانوا على الحنيفية. سكنوا تهامة عند برك الغماد التي ورد ذكرها في كلمة المقداد بن الأسود قبيل غزوة بدر، ثم ارتحلوا عنها إلى نجد، وسكن فرع منهم وهم بنو غنم مكة المكرمة محالفين بني عبد مناف. ومن هذه القبيلة: زوج النبي وابنة عمته السيدة زينب بنت جحش، والصحابي ضرار بن الأزور، وطلحة مدعي النبوة، وشهيد كربلاء حبيب بن مظاهر، والشاعر الكمي.

• السَّكران بن عمرو:

هو السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود القرشي العامري. أبوه ابن عم عمرو بن عبد ود العامري الذي قتله أمير المؤمنين علي عليه السلام في الخندق. كان السكران بن عمرو قديم الإسلام بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة ومعه امرأته سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد ود العامرية، وهي ابنة عم عمرو بن عبد ود. قال الطبري: (كان السكران من مهاجرة الحبشة فتنصر ومات بها)^(١). خلف رسول الله ﷺ على امرأته سودة فكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة السيدة خديجة بنت خويلد.

• مجموعة من المسلمين:

الرواية التالية رواها عدد من أهل الحديث، واختلف في تصحيحها، فقد روى الحاكم النيسابوري في المستدرک عن أم المؤمنين عائشة قالت: (لما أسري

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤١١.

بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدَّقوه....). قال الحاكم: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) ^(١).

وفي تفسير ابن كثير عن ابن عباس قال: (لما أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته، فحدثهم بمسيره، وبعلامة بيت المقدس وبغيرهم، فقال الناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول، فارتدوا كفاراً، فضرب الله رقابهم مع أبي جهل...) ^(٢) أي قُتلوا في غزوة بدر الكبرى حين وقعوا أسرى بيد المسلمين. وقد رفض عدد من علماء أهل السنة ما جاء في هذه الرويات ولم يصححوها.

• الحارث بن سويد:

تعود القصة في جذورها إلى ثأر جاهلي حملة الحارث بن سويد لمقتل أبيه على يد رجل يقال له «المجذّر بن زياد». قال ابن هشام: (كان المجذّر بن زياد ^(٣) قتل سويد بن صامت في بعض الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج) ^(٤).

سويد بن صامت أو الصامت الأنصاري الأوسي. أمه: هي ليلي بنت عمرو النجارية وهي أخت سلمى بنت عمرو أم عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ. فسويد هذا ابن خالة عبد المطلب. كان شاعراً مُحَسِّناً كثير الحِكم في شعره وسيداً من أسياد قومه وكانوا يسمونه فيهم: الكامل، لنسبه وشعره وشرفه.

١. الحاكم: المستدرک على الصحيحین، ح ٤٤٥٨.

٢. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٢٨.

٣. المجذّر بن زياد البلوي، حليف بني عوف من الخزرج. قال ابن سعد: وكان اسم المجذّر: عبد الله.

٤. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٧.

أما في المغازي للواقدي فقد جاء أنَّ المجذّر لم يقتل سويداً في ساحة الحرب بل قتله غيلة بينما كان المغدور به في حالة سُكر، وأنَّ قتله هيج وقعة بُعات بين الأوس والخزرج.

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلم الحارث بن سويد بن الصامت وكذلك مجذّر بن زياد، وشهد كلاهما بداراً مع النبي، إلا أنَّ الحارث كان يريد بخروجه أن ينتهز فرصةً للانتقام لأبيه من المجذّر، إلا أنه لم يُفلح في بلوغ ثأره، وتأجّل الأمر إلى أن جاءت غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة، حيث جاء الحارث من خلف المجذّر فضرب عنقه.

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ثم خرج إلى حمراء الأسد لملاحقة المشركين بعيد غزوة أحد مباشرة، أتاه جبريل عليه السلام - كما في الرواية - فأخبره أن الحارث بن سويد قتل مجذراً غيلة وأمره بقتله.

ركب رسول الله ﷺ إلى قباء - ولم يُعهد منه أن يزور هذه القرية في مثل هذا

اليوم حيث كان من عادته أن يزورها كل سبت وإثنين فقط - فلما دخل مسجد قباء، صلى فيه ما شاء الله أن يصلي، وسمعت الأنصار، فجاءت تسلم عليه وأنكروا إتيانه في تلك الساعة وفي ذلك اليوم، فجلس ﷺ يتحدث ويتصفّح الناس حتى طلع الحارث بن سويد في ملحفة مورّسة

مورّسة أي مصبوغة بالورس، وهو: نبتٌ من الفصيلة القرنية ينبت في بلاد العرب والحبشة والهند وثمرتها قرنٌ مغطى عند نضجه بغدّد حمراء، كما يوجد عليه زغبٌ قليل؛ يُستعمل لتلوين الملابس الحريرية، لاحتوائه على مادة حمراء، وعلى راتينج. وقيل الورس نبت أصفر يكون باليمن، وهو الكركم.

عويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي،
أحد أول من وفد على النبي في مكة
من أهل المدينة وأعلن إسلامه. شهد
معارك النبي وتوفي في خلافة عمر.

فلما رآه رسول الله ﷺ دعا عويم
بن ساعدة فقال له: (قَدِّم الحارث
بن سويد إلى باب المسجد فاضرب
عنقه بمجذّر بن ذياب فإنه قتله يوم
أُخذ. فأخذه عويم فقال الحارث:

دعني أكلّم رسول الله، فأبى عويم عليه، فجاوبه^(١) يريد كلام رسول الله ﷺ
ونهض رسول الله ﷺ يريد أن يركب ودعا بحماره على باب المسجد فجعل
الحارث يقول: قد والله قتلته يا رسول الله. والله ما كان قتلي إياه رجوعاً
عن الإسلام ولا ارتياباً فيه^(٢).

وفي رواية أن للرجل سابقة في الردة قبل هذه الأحداث، فعن ابن عباس
أن الحارث بن سويد بن الصامت رجع عن الإسلام في عشرة رهط، فلحقوا
بمكة، فندم الحارث بن سويد، فرجع، حتى إذا كان قريباً من المدينة، أرسل
إلى أخيه جلاس بن سويد أني قد ندمت على ما صنعت، فسل رسول الله ﷺ
فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ. فهل لي من توبة
إن رجعت، وإلا ذهبت في الأرض؟ فأتى الجلاس النبي ﷺ فأخبره بخبر
الحارث وندامته وشهادته، فأنزل الله جلّ جلاله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَأَصْلَحُوا﴾^(٣) فأرسل الجلاس إلى أخيه، فأقبل إلى المدينة، واعتذر إلى
رسول الله ﷺ وتاب إلى الله جلّ جلاله من صنيعه، فقبل النبي عذره^(٤).

١. أي شدّه إليه.

٢. البيهقي: السنن الكبرى، ج ٨، ص ١٠١.

٣. سورة آل عمران: ٨٩.

٤. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ١، ص ١٨.

وأما الجلاس نفسه فقد كان من المنافقين، وممن تخلف منهم في غزوة تبوك، وكان يثبُط النَّاسَ عن الخروج، فقال: (والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شرُّ من الحمُر)^(١).

وروي أن الحارث تاب بعد ذلك وحسنت توبته (ولكنه حمية الشيطان وأمرٌ وكلت فيه إلى نفسي. وإنني أتوب إلى الله وإلى رسوله مما عملت، وأُخرج ديتَه وأصوم شهرين متتابعين وأعتق رقبة وأطعم ستين مسكيناً، إنني أتوب إلى الله ورسوله. وجعل يمسك بركاب رسول الله ﷺ وبنو المجنذر حضور لا يقول لهم رسول الله ﷺ شيئاً حتى إذا استوعب كلامه قال: قدِّمه يا عويم فاضرب عنقه. وركب رسول الله ﷺ وقدِّمه عويم على باب المسجد فاضرب عنقه)^(٢).

• طعمة بن أبيرق الخرزجي:

كان شاعراً ويُعد من المنافقين، وقد هجا بعض أصحاب النبي ﷺ. وفي الخبر أنه سرق درعاً من جاري له يقال له: قتادة بن النعمان، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب، حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر الدقيق. ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين، فالتُمتست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده، وحلف لهم: والله ما أخذها وما له به من علم. فقال أصحاب الدرع: بلى والله قد أدلج علينا فأخذها، وطلبنا أثره حتى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق.

١. ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج ١، ص ٢٦٥.

٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٣٠١.

فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي، فأخذه فقال: دفعها إلي طعمة بن أبيرق، وشهد له أناس من اليهود على ذلك، فقالت بنو ظفر - وهم قوم طعمة - : انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ.

فكلّموه في ذلك وسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا واقتضح وبرئ اليهودي.

مصدر الرواية^(١) يدّعي أن رسول الله ﷺ هم أن يفعل ما طُلب منه انتصاراً للمسلم وإن كان سارقاً، وأنّ هواه كان معهم، وأنه نوى معاقبة اليهودي لولا أن نزلت الآيات التي سنذكرها في الأسطر التالية، إلا أننا ننزه النبي ﷺ من ذلك كله.

أما الآيات التي قيل أنها نزلت ناهيةً النبي ﷺ عن محاباة السارق فهي كالتالي: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا، وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا، وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا، يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا، هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا، وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا، وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا، وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا، وَلَوْ لَا فَضْلُ

١. الواحدي: أسباب النزول، ح ٣٦١.

اللَّهُ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا، لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا، وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا، إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا^(١).

قد يقال فما معنى قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ﴾؟ والجواب أن الله عَزَّجَلَّ يبين شدة مكرهم وقوة أساليبهم التي حاولوا من خلالها التأثير على قرار النبي ﷺ خداعاً وتمويهاً للحقائق، ولولا العناية الإلهية بعصمة النبي عن الوقوع في مثل هذه الشراك والاستسلام لهواه لكان تحقق لهم ما أرادوا.. أي لو كان غير النبي ﷺ لتأثر بهم واستسلم لطلباتهم وتمويهاتهم ومكرهم.

وفي تفسير القرطبي أنه لما ظهرت حاله وسرقته هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً لرجل بمكة يقال له: حجاج بن علاط، فسقط، فبقي في النقب حتى وُجد على حاله، وأُخرجوه من مكة؛ فخرج إلى الشام فسرق بعض أموال القافلة فرجموه وقتلوه^(٢). وقيل مات من ساعته حين سقط عليه الجدار الذي نقبه، وقيل بل لحقه أهل مكة وقتلوه.

١. سورة النساء: ١٠٥-١١٦.

٢. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٥، ص ٣٢٩-٣٣٠.

• مقيس بن صُبابَة الكناني:

شاعر جاهلي، حرّم على نفسه شرب الخمر. كان يقيم بمكة، واشترك مع المشركين في واقعة بدر.

أسلم له أخ يدعى هشام بن صُبابَة فقتله رجل من الأنصار في غزوة بني المصطلق سنة ٦ هـ خطأ، فقدم مقيس على النبي ﷺ مظهراً للإسلام ومطالباً بدية أخيه، فأمر النبي بها، فأقام في المدينة مدة، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، وهرب إلى مكة مرتدّاً ومعه الدية وهي مائة من الإبل، ولحق بالمشركين، وقال:

قتلت به فهراً وحملت عقله سراة بني النجار أرباب فارع
فأدركت ثاري واضطجعت موسداً وكنت إلى الأوثان أول راجع

فنزلت فيه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾^(١).

ولما فتح النبي ﷺ مكة سنة ٨ هـ أهدر دمه، وأمر المسلمين بقتله، فهرب من مكة واختفى، فعلم به نميلة بن عبد الله الكناني، فجاء إليه وقتله، وقيل: أدركه الناس بسوق مكة وقتلوه، وقيل: قُتل بين الصفا والمروة وهو كافر.

• عبد الله بن سعد بن أبي سرح:

العامري القرشي، أخو الخليفة عثمان من الرضاعة. أسلم قبل صلح الحديبية أو قبل فتح مكة، وهاجر إلى المدينة فكلّفه النبي ﷺ بكتابة الوحي.

١. النساء: ٩٣. ومصدر الخبر الواحدي: أسباب النزول، ح ٣٤٤.

قال ذات مرة: (ما يدري محمد ما يقول، إني لأكتب له ما شئت. هذا الذي كتبت يوحى إليّ كما يوحى إلى محمد) ^(١).

ذكر الطبري في تفسير قوله ﷺ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ ^(٢) أن القسم الثالث من الآية نزل في عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وعندي أن الآية مكية وما صدر عن عبد الله كان بعد ذلك بسنوات.

وبعد هذه الحادثة ترك عبد الله المدينة المنورة هارباً سراً إلى مكة ليلاً، وعند وصوله إليها أعلن عودته إلى الوثنية وأخبرهم أنه كان يتلاعب في التدوين. وعند فتح مكة أهدر النبي دمه ولو متمسكاً بأستار الكعبة، فجاء ابن أبي سرح إلى عثمان بن عفان فقال: (يا أخي، والله اخترتك فاحتبسني ها هنا، واذهب إلى محمد فكلّمه فيّ، فإن محمداً إن رآني ضرب الذي فيه عيناى. إن جرّمي أعظم الجرم، وقد جئت تائباً. فقال عثمان: بل اذهب معي. قال عبد الله: والله إن رآني ليضربن عنقي، ولا يناظرني. قد أهدر دمي، وأصحابه يطلبونني في كل موضع. فقال عثمان: انطلق معي فلا يقتلك إن شاء الله.

فلم يرع رسول الله ﷺ إلا بعثمان آخذاً بيد عبد الله بن سعد بن أبي سرح، واقفين بين يديه، فأقبل عثمان على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمه كانت تحملني وتمشي به، وترضعني وتطفمه، وكانت تلطف بي وتتركه، فهبه لي.

١. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، ص ١٤٥.

٢. الأنعام: ٩٣.

فأعرض عنه رسول الله ﷺ وجعل عثمان كلما أعرض عنه النبي ﷺ بوجهه استقبله فيعيد عليه هذا الكلام، وإنما أعرض عنه النبي ﷺ إرادة أن يقوم رجل فيضرب عنقه لأنه لم يؤمنه، فلما رأى أن لا يقوم أحد وعثمان قد أكب على رسول الله ﷺ يُقبّل رأسه وهو يقول: يا رسول الله، تبايعه فذاك أبي وأمي. فقال رسول الله ﷺ: نعم. ثم التفت إلى أصحابه فقال: ما منعكم أن يقوم رجل منكم إلى هذا الكلب ^(١) فيقتله - أو قال: الفاسق -. فقال عبد بن بشر: ألا أومأت إليّ يا رسول الله؟ فوالذي بعثك بالحق لأتبع طرفك من كل ناحية رجاء أن تشير إليّ فأضرب عنقه. ويقال: قال هذا أبو اليسر، ويقال: عمر بن الخطاب. فقال رسول الله: إني لا أقتل بالإشارة.

وقيل: إن النبي ﷺ قال يومئذ: إن النبي لا يكون له خائنة الأعين، فبايعه رسول الله ﷺ، فجعل يفر من رسول الله ﷺ كلما رآه. فقال عثمان: يا رسول الله، بأبي وأمي لو ترى ابن أم عبد الله يفر منك كلما رآك. فتبسم رسول الله ﷺ فقال: أو لم أبايعه وأؤمنه؟ قال: بلى، أي رسول الله، ولكنه يتذكر عظيم جرمه في الإسلام. فقال النبي ﷺ: الإسلام يَجِبُ ما كان قبله. فرجع عثمان إلى ابن أبي سرح فأخبره، فكان يأتي فيسلم على النبي ﷺ مع الناس ^(٢).

• عبد الله بن خطل:

رجل من بني تيم بن غالب، وقيل إن اسمه عبد العزى ويحتمل أنه كان

١. نترفع بالنبي أن يسب ولو في مثل هذا الموضع.

٢. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج ١٢، ص ٢٢٧-٢٢٨.



كذلك ثم لما أسلم سمي عبد الله. بعثه رسول الله ﷺ ليجمع الصدقات، وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولى له رومي، فغضب ابن خطل على الغلام حين نسي أن يصنع له طعاماً، فقتله، ثم ارتد مشركاً. أهدر النبي دمه عند فتح مكة، فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة^(١).

ونلاحظ مما سبق أن الذين حكم عليهم النبي بالقتل ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة - إن صحت تلك الروايات - مختصة بمن ارتكبوا جرائم من قبيل القتل أو محاولة التلاعب والتحريف في دين الناس كما هو حال عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ولم يكن لمجرد الارتداد. علماً بأن الحكم الأولي للحرم المكي هو الأمن ولا يجوز التعرض فيه لأحد إلا لمن ارتكب جريمة داخل الحرم المكي نفسه.

١. ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٥٦٣.

• الأسود العنسي:

واسمه: عَبْهَلَة أو عِيْهَلَة بن كعب العَنَسِي المَذْحِجِي، ولسواده غلب عليه اسم الأسود، وكان يختمر بخمرة ويعتم عليها دائماً، فلذا سُمِّي أيضاً ذا الخمار، وقيل أنه سُمِّي ذا الحمار؛ لأنَّه كان له حمار علَّمه يقول له: (ابرك، فيبرك، ويقول له: اسجد لربِّك، فيسجد!) وسمَّى نفسه: رحمان اليمَن^(١).

وُلد في قرية تُعرف باسم «كُهف حُبَّان» وتقع بالقرب من نجران، ثم نشأ بها، وفيها داره. كان كاهناً يمارس الشعوذة، ويُري الناس الأعاجيب، كما كان صاحب منطق يسبي قلب مَنْ سمعه.

قبيلة عنس هم بنو عنس بن مالك الملقب بمذحج بن أد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وهي قبيلة يمنية كبيرة معروفة ومشهورة لها بلاد واسعة تقع في وسط اليمن.

أسلم جرير وقومه في رمضان من السنة التاسعة أو العاشرة للهجرة. صار فيما بعد مع الإمام علي، فأرسله إلى معاوية مبعوثاً من قبله برسالة، ثم فارق الإمام ولم يشارك معه في صفين وانتقل للسكن في قرقيسيا بالقرب من دير الزور وتوفي بها سنة ٥١ هـ.

قال البلاذري: (كان الأسود بن كعب بن عوف العنسي قد تكهن وادّعى النبوة فاتّبعه عنس فبعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي في السنة التي توفي رسول الله ﷺ فيها، وفيها كان إسلام جرير، إلى الأسود يدعوهُ إلى الإسلام فلم يُجبهُ...^(٢) قالوا:

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٨٧.

٢. وهذا يعني أن المسألة لا علاقة لها هنا بالردة.



خالد بن سعيد القرشي الأموي عامل
النبي على صنعاء. من أوائل المسلمين
بمكة، استشهد عام ٤١هـ.

وأتى الأسود صنعاء فغلب عليها
وأخرج خالد بن سعيد بن العاص
عنها... وكان الأسود متجبراً،
فاستدّل «الأبناء» وهم أولاد أهل

فارس الذين وجَّههم كسرى إلى اليمن مع «ابن ذي يزن» وعليهم «وهرز»^(١)،
واستخدمهم فأضّر بهم، وتزوَّج «المرزبانة» امرأة «باذام» ملكهم وعامل
«أبرويز» عليهم. فوجَّه رسول الله ﷺ قيس بن هبيرة المكشوح المرادي
لقتاله - وإنما سمي المكشوح لأنه كُوي على كشحه^(٢) من داء كان به - وأمره
باستمالة الأبناء. وبعث معه فروة بن مسيك المرادي^(٣).

١. اسم أو لقب القائد الفارسي.

٢. أى جنبه.

٣. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٢٥-١٢٦.

وأكمل البلاذري وصف ما جرى بعد ذلك، حيث توفي النبي ﷺ وعَلِمَ المكشوح بذلك، فخدعَ الأسودَ العنسي مدَّعيًا أنه بموت النبي صار هو من أنصاره، وأنه يريد دخول صنعاء مع من معه من الرجال نُصرةً له وتعزيزاً لدولته وتقويةً لشأنه.

صدَّقَ الأسودُ كلامَ المكشوح، فدخلها وبدأ يتواصل مع قادة «الأبناء» وعلى رأسهم «فيروز بن الديلمي» الذي قد سبق ودخل في الإسلام، و«دازويه» الذي أسلم بدوره وبثَّ دعايته في «الأبناء» فأسلموا، وتوافق هؤلاء جميعاً على قتل الأسود واغتياله.

بدأت خطة الاغتيال بالاتفاق مع زوجة الأسود واسمها «المرزبانة»، حيث كانت تبغضه أشد البغض، حيث دلَّتهم على جدول يُدخل إليه منه، فدخلوا في وقت السَّحر، وهو سكران نائم، فذبحه قيس المكشوح، فجعل يخور خوار الثور حتى أفزع ذلك حرسه فقالوا: ما شأن رحمان اليمن؟

فبدرت امرأته فقالت: إن الوحي ينزل عليه.

فسكنوا وأمسكوا. واحتزَّ قيسُ رأسه، ثم علا سور المدينة حين دخل الصباح فقال: الله أكبر! الله أكبر! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأن الأسود عدو الله.

فاجتمع أصحاب الأسود فألقى إليهم رأسه فتفرَّقوا إلا قليلاً، ووقع القتال بين الطرفين، فقتل من قُتل، ونادى آخرون بالشهادتين فحُقِّنت دماؤهم.

وذكر البلاذري أن بعض أهل العلم قالوا أن قتل الأسود كان قبل وفاة

النبي ﷺ بخمسة أيام، وأنه قال في مرضه: (قد قتل الله الأسود العنسي^(١)) قتله الرجلُ الصالحُ فيروز بن الديلمي^(٢). وأن خبر ما جرى ورد على أبي بكر بعد ما استُخلف بعشر ليالٍ. وسنتناول الموضوع مجدداً عند الحديث عن حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر عند المقارنة بين الروايات المختلفة الواردة في هذا الموضوع بإذن الله عزَّ وجلَّ.

• طليحة الأسدي:

طُليحَة بن خُوَيْلِد بن نَوْفَل الأسدي الفَقْعَسي، من أسد بن خزيمة. كان يُعد من شجعان العرب. شهد غزوة الخندق في صفوف المشركين، وأسلم سنة ٩هـ، روى ابن سعد أن وفد بني أسد قَدِمُوا على رسول الله ﷺ فيهم حَضْرَمِي بن عامر، وضَرَار بن الأزور، وطليحة بن خويلد، وآخرون، فقال الأول منهم: (أتيناك تندرَع الليل البهيم في سنة شَهْبَاء^(٣)) ولم تبعث إلينا بعثاً^(٤). يريدون بذلك أنهم قد جاءوا وأسلموا طواعيةً من دون أن يجري بينهم وبين النبي ﷺ قتال.

وقيل بل قالوا: (آمناً من غير قتال، ولم نقاتلك كما قاتلك غيرنا)^(٥). فنزل قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٦).

١. وهو إخبار عن طريق الوحي.

٢. أي الخبر الوارد عن طريق أحد المبعوثين.

٣. أي ذات قحط وجذب.

٤. ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٧٢.

٥. الطبري: جامع البيان، ج ٢٢، ص ٢٢٠.

٦. سورة الحجرات: ١٧.

وذكر ابن الأثير أن طليحة بن خويلد الأسدي قد تنبأ في حياة رسول الله، فعين النبي ضرار بن الأزور الأسدي عاملاً على القبيلة، وأمرهم بمواجهة من ارتد منهم: (فضعُف أمر طليحة حتى لم يبق إلا أخذه، فضربه بسيف، فلم يصنع فيه شيئاً، فظهر بين الناس أن السلاح لا يعمل فيه، فكثُر جمعه) ^(١).

وتوفي رسول الله ﷺ وهم على ذلك، فكان طليحة يقول: (إن جبرائيل يأتيني، وسجّع للناس الأكاذيب، وكان يأمرهم بترك السجود في الصلاة ويقول: إن الله لا يصنع بتعفّر وجوهكم وتقبّح أديباركم شيئاً ^(٢)) اذكروا الله أَعفّة قياماً. إلى غير ذلك، وتبعه كثير من العرب عصبية... ^(٣).

ونكتفي الآن بهذا المقدار من الحديث عن ردّة طليحة الأسدي، على أن نعود للحديث عنها عند الحديث عن حروب الردة على عهد الخليفة أبي بكر.

• مسيلمة الكذاب:

واسمه مسيلمة بن حبيب، أو مسيلمة بن ثمامة بن كثير بن حبيب الحنفي، من بني حنيفة. ولد مسيلمة ونشأ في اليمامة، في القرية المسماة اليوم بالجبيلة، بقرب العيننة بوادي حنيفة في نجد.

بنو حنيفة قبيلة من بكر بن وائل، فهي عدنانية من ربيعة، أي أنها من عرب الشمال. قطنت القبيلة في إقليم اليمامة في الجزيرة العربية مما يشكل اليوم جزء كبيراً من منطقة الرياض وفيها الرياض العاصمة. تُصنّف من قبل علماء الأنساب العربية كفرع مسيحي من بني بكر.

١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٠٢.

٢. اعتبر طليحة أن السجود فعلٌ قبيح ومهين لا يناسب شأن الرجل المعتز بنفسه، إذ ترتفع عجيذة الإنسان حال السجود، لذا نهاهم عن ذلك!

٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٠٢.



المنطقة المظلمة تمثل الامتداد التقريبي لمنطقة الإمامة



مدينة الرياض حالياً وتظهر الجبيلة إلى الشمال الغربي منها

كان قصيراً شديد الصفرة، أخنس الأنف أفطس. والأخنس: من تأخر أنفه عن وجهه مع ارتفاع في الأرنبة. يكبرُ رسولَ الله ﷺ سنّاً. وفي روايات وفوده على النبي في سنة ٩ للهجرة، وما جرى له حينذاك تعارض وتشويش.

فقد نقل ابن إسحاق الصورة كالتالي: (حدثني بعض علمائنا من أهل المدينة: أن بني حنيفة أتت به رسول الله ﷺ تستره بالثياب^(١) ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه، معه عسيب^(٢) من سعف النخل، في رأسه^(٣) خوصات؛ فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وهم يسترونه بالثياب، كلمه وسأله، فقال له رسول الله ﷺ: لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه^(٤)).

كما نقل ابن إسحاق صورة مغايرة حيث قال: (وقد حدثني شيخ من بني حنيفة من أهل اليمامة أن حديثه كان على غير هذا. زعم أن وفد بني حنيفة أتوا رسول الله ﷺ، وخلفوا مسيلمة في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وفي ركابنا يحفظها لنا، قال: فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم^(٥) وقال: «أما إنه ليس بشركم مكاناً؛ أي لحفظه ضيعة أصحابه، وذلك الذي يريد رسول الله ﷺ^(٦)». قال: ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وجاءوه بما أعطاه،

١. الغرض من ذلك غير واضح ويجعلنا نشك في أن الرواية مختلفة.

٢. جريدة النخل المستقيمة يُكشطُ خوصها، وبالتالي فهو على هيئة العصا.

٣. أي في رأس العسيب.

٤. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٥٧٦.

٥. حيث كان يُكرم الوفود القادمة بالهدايا.

٦. أي أراد النبي أن يخبرهم أن بقاءه مع حاجياتهم لحراستها لا يجعله ضيعاً فيُعطى أقل مما أعطاهم. بينما سيستفيد مسيلمة من هذه المقولة النبوية لتدعيم ادّعائه النبوة.

فلما انتهوا إلى اليمامة ارتدَّ عدو الله وتنبأ وتكذَّب لهم، وقال: إني قد أُشركت في الأمر معه. وقال لوفده الذين كانوا معه: ألم يقل لكم حين ذُكرتموني له: أما إنه ليس بشركم مكاناً؟ ما ذاك إلا لما كان يعلم أني قد أُشركت في الأمر معه. ثم جعل يسجِّع لهم الأساجيع، ويقول لهم فيما يقول مضاهاةً للقرآن: «لقد أنعم الله على الحُبلى، أخرج منها نَسمةً تسعى، من بين صفاق وحشى»^(١). وأحل لهم الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ بأنه نبي، فأصفت معه حنيفة على ذلك). ولم يقوَّ ابن إسحق أحد الخبرين على الآخر واكتفى بأن قال: (فالله أعلم أيُّ ذلك كان)^(٢).

وأضاف ابن هشام في كتابه خبر الرسالة التي أرسلها مسيلمة إلى النبي في نهايات السنة العاشرة، أي قبيل وفاة النبي ﷺ بقليل، وتم تسليمها عن طريق رجلين، وفيها: (من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله: سلام عليك؛ أما بعد، فإني قد أُشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون).

وأكمل ابن هشام الرواية بنقل جواب النبي ﷺ على ما رواه نعيم بن مسعود الأشجعي قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول لهما حين قرأ كتابه: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال. فقال: أما والله لولا أن الرُّسُل لا تُقتل لضربت أعناقكما. ثم كتب إلى مسيلمة: بسم الله الرحمن الرحيم،

١. الصفاق: غشاء ما بين الجلد والأمعاء. والحشى: ما دون الحجاب الحاجز ممَّا يلي البطن، كالكبد والمعدة والأمعاء وغيرها.

٢. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٥٧٧.

من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب^(١): السلام على من اتبع الهدى .
أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين^(٢) .
وتسكت الروايات عن موقف النبي ﷺ منه بعد ذلك. وتنتقل الأحداث
إلى عهد الخليفة أبي بكر، وهو ما سنتناوله مفصلاً ضمن حديثنا عن حروب
الردة في عهده.

وتُنسب لمسيلمة مجموعة من الخدع والحيل التي أراد بها إقتناع الناس بأنه
نبي وصاحب معجز. قال القزويني في حديثه عن الإمامة: (وينسب إليها
مسيلمة الكذاب الذي يُقال له رحمن الإمامة، ادّعى النبوة في عهد رسول
الله ﷺ فطلبوا منه المعجزة فأخرجه قارورة ضيقة الرأس فيها بيضة، فأمن
به بعضهم، وهم بنو حنيفة أقل الناس عقلاً، فاستخفّ قومه فأطاعوه! وبنو
حنيفة اتخذوا في الجاهلية صنماً من العسل والسمن يعبدونه، فأصابتهم
في بعض السنين مجاعة فأكلوه، فضحك على عقولهم الناس وقالوا فيهم:
أَكَلَت حَنِيْفَةٌ رَبَّهَا زَمَنَ التَّقَحُّمِ وَالْمَجَاعَةِ
لَمْ يَحْذَرُوا مِنْ رَبِّهِمْ سَوَاءَ الْعَوَاقِبِ وَالتَّبَاعَةِ

والبيضة إذا تُركت في الخل زماناً لانت، فأدخلها في القارورة ثم صبَّ
عليها فعادت إلى حالها... وحُكي أنه رأى حمامة مقصوصة الجناح فقال:
لم تُعَذِّبُون خلق الله؟ لو أراد الله من الطير غير الطيران ما خلق لها
جناحاً، وإني حرّمت عليكم قص جناح الطائر. فقال بعضهم: سَل الله الذي

١. إن صح الخبر فإن هذا اللقب لازمه منذ تلك اللحظة.

٢. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٠٠.

أعطاك آية البيض أن ينبت له جناحاً! فقال: إن سألت فأنبت له جناحاً فطار تؤمنون بي؟ قالوا: نعم. فقال: إني أريد أناجي ربي، فأدخلوه معي هذا البيت حتى أخرجه وإني الجناح حتى يطير. فلما خلا بالطائر أخرج ريشاً كان معه وأدخل في قصبه كل ريشة مقطوعة ريشة مما كان معه، فأخرجه وأرسله فطار فأمن به جمع كثير. وحكي أنه قال في ليلة منكرة الرياح مظلمة: إن الملك ينزل إلي الليلة ولأجنحة الملائكة صلصلة وخشخشة، فلا يخرجن أحدكم فإن من تأملهم اختطف بصره. ثم اتخذ صورة من الكاغد لها جناحان وذنب، وشد فيها الجلاجل والخيوط الطوال^(١) فأرسل تلك الصورة وحملتها الريح، والناس بالليل يرون الصورة ويسمعون صوت الجلاجل ولا يرون الخيط. فلما رأوا ذلك دخلوا منازلهم خوفاً من أن تُختطف أبصارهم، فصاح بهم صائح: مَنْ دَخَلَ مَنْزِلَهُ فهو آمن! فأصبحوا مطبقين على تصديقه؛ قال الهذلي:

ببيضة قارورٍ وراية شادنٍ

وتوصيل مقصوصٍ من الطير جازف

فلما سمع سورة والذاريات قال: وقد أنزل عليّ مثلها، وهي: والزارعات زرعاً. فالحاصدات حصداً. فالطاحنات طحناً. فالخابزات خبزاً. فالآكلات أكلاً! ولما سمع سورة الفيل قال: قد أنزل عليّ مثلها، وهي: الفيل. وما أدراك ما الفيل! له ذنب طويل ومشفر وثيل، وإن ذلك من خلق ربنا النبيل! ولما سمع سورة الكوثر قال: قد أنزل عليّ مثلها، وهي: إنا أعطيناك

١. أي صنع لهم ما يشبه الطائفة الورقية.

الجواهر، فصل لربك وهاجر، ان شانتك هو الكافر. فسبحان من أظهر إعجاز القرآن، فلو كان من عند غير الله لكان مثل هذا) ^(١).

وذكر ابن كثير أنَّ عمرو بن العاص - قبل دخوله في الإسلام - قابل مسيلمة فسأله الثاني: (ماذا أنزل على صاحبكم في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وما هي؟ قال: أنزل عليه: ﴿وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالنِّقْلِ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ ^(٢)). قال: ففكر مسيلمة ساعة، ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل عليّ مثلها. فقال له عمرو: وما هو؟ قال مسيلمة: يا وَبْرُ يا وَبْرُ، إِنَّمَا أَنْتَ أَذُنَانِ وَصَدْرٌ، وَسَائِرُكَ حَقَرٌ نَقَرٌ. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال عمرو: والله إنك لتعلم أنني أعلم إنك لتكذب) ^(٣).

ولو صحت هذه الرواية فهي تعني أن طموح مسيلمة للنبوة سبق العام الهجري التاسع أو العاشر، لأن عمرو بن العاص أسلم سنة ٨ هـ، وفي رأيي أنه قد حيكت بعض القصص الوهمية حول ادّعاء الرجل للنبوة كعادة القصاصين سواء فيما له علاقة بوفوده على النبي أو في تفاصيل حياته وادّعاء النبوة، وستأتي معنا حين الحديث عن حرب اليمامة على عهد الخليفة أبي بكر وتحالفه مع «سجاح» التميمية تفاصيل أخرى هي من هذا النوع أيضاً.

وعلى العموم، فقد قال أبو بكر الباقلاني: (فأما كلام مسيلمة الكذاب وما زعم أنه قرآن فهو أخس من أن ننشغل به وأسخف من أن نفكر فيه،

١. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج ١، ص ٥٣.

٢. سورة العصر.

٣. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٦، ص ٣٣٦.

وإنما نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارئ وليتبصر الناظر، فإنه على سخافته
قد أضل، وعلى ركاكته قد أزل، وميدان الجهل واسع^(١).

١. الباقلاني: إعجاز القرآن، ص ١٥٦.

النبي ﷺ يتحدّث عن الرّدّة من بعده



النبي ﷺ يتحدث عن الردّة من بعده

تروي كتب الحديث والتاريخ عن النبي ﷺ أحاديث يُنبئ من خلالها بوقوع الردّة من بعده.. فإنّ صحّت هذه الروايات فعن أية ردّة تحدّث؟ وهل المراد منها حروب الردّة أو ما يشملها وغيرها؟ كما رويت أحاديث عن بعض أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَام تحكي وقوع الردّة بعد وفاة رسول الله.. فما مدى صحّتها؟ وعن أية ردّة تتحدّث؟ وما علاقتها بمسألة الإمامة والخلاف الشيعي السنّي المتعلّق بمسألة الحكم بعد النبي ﷺ؟

• الرواية الأولى:

في صحيح البخاري: (عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال: بينا أنا قائم^(١) إذا زُمرّة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم^(٢) فقال: هلم! فقلت: أين؟ قال: إلى النار، والله! قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقري^(٣) ثم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم، خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم! قلت: أين؟ قال: إلى النار، والله! قلت: ما

١. قال ابن حجر في شرح الحديث: والمراد به قيامه على الحوض يوم القيامة.

٢. قال ابن حجر: المراد بالرجل المملّك الموكّل بذلك ولم أقف على اسمه.

٣. قال ابن حجر: أي رجعوا إلى خلف.

شأنهم؟ قال: إنهم ارتدّوا بعدك على أديارهم القهقري. فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم^(١) (٢).

• الرواية الثانية :

في صحيح البخاري أيضاً: (عن سهل بن سعد قال: قال النبي ﷺ: إني فرطكم على الحوض، من مرّ عليّ شرب، ومن شرب لم يظماً أبداً. ليردّن عليّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم. قال أبو حازم: فسمعتني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم. فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعتّه وهو يزيد فيها: فأقول: إنهم منّي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك! فأقول سحقاُ سحقاُ لمن غير بعدي. وقال ابن عباس: سحقاُ، بعداً... عن أبي هريرة أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: يردّ عليّ يوم القيامة رهطٌ من أصحابي، فيُحلّون عن الحوض^(٣) فأقول: يا رب أصحابي! فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك. إنهم ارتدّوا على أديارهم القهقري^(٤)).

• محاولات للتوجيه :

وجرت محاولات عدة لتوجيه مضمون الخبر لنقل جانباً منها من خلال

١. قال ابن حجر: يعني من هؤلاء الذين دنوا من الحوض وكادوا يردونه فصدّوا عنه. والهمل بفتحين الإبل بلا راء، وقال الخطابي: الهمل ما لا يُرعى ولا يُستعمل... والمعنى أنه لا يردّه منهم إلا القليل، لأنّ الهمل في الإبل قليل بالنسبة لغيره.

٢. البخاري: صحيح البخاري، ح ٦٢١٥. والشرح لابن حجر في فتح الباري.

٣. أي يُحال بينهم وبينه.

٤. البخاري: صحيح البخاري، ح ٦٢١٢. والشرح لابن حجر في فتح الباري.

شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الكناني العسقلاني ثم المصري الشافعي «٧٧٣ هـ - ٨٥٢ هـ». شغل الكثير من الوظائف المهمة في الإدارة المملوكية المصرية، كما تولى الإفتاء واشتغل في دار العدل وكان قاضي قضاة الشافعية. له عدة مؤلفات من أهمها فتح الباري شرح صحيح البخاري، والإصابة في تمييز الصحابة.

كلام ابن حجر العسقلاني، ونحن بدورنا نقسّم الاحتمالات مع الالتزام بلفظ ابن حجر. قال:

١. عن أبي عبد الله البخاري عن قبيصة قال: هم الذين ارتدوا على عهد أبي بكر، فقاتلهم أبو بكر. يعني حتى قُتلوا وماتوا على الكفر.

٢. وقال الخطابي: لم يرد من الصحابة أحد، وإنما ارتد قوم من

جفاة الأعراب ممن لا نصرة له في الدين، وذلك لا يوجب قَدْحاً في الصحابة المشهورين، ويدل قوله "أصحابي" بالتصغير على قلة عددهم.

٣. وقال غيره: قيل: هو على ظاهره من الكفر، والمراد بأمتي: أمة الدعوة، لا أمة الإجابة.

٤. وقال ابن التين: يحتمل أن يكونوا منافقين أو من مرتكبي الكبائر.

٥. وقيل: هم قوم من جفاة الأعراب دخلوا في الإسلام رغبة ورهبة.

٦. وقال الداودي: لا يمتنع دخول أصحاب الكبائر والبدع في ذلك.

٧. وقال النووي: قيل: هم المنافقون والمرتدون، فيجوز أن يُحشروا بالغُرّة والتحجيل^(١) لكونهم من جملة الأمة، فيناديهم من أجل السيما التي عليهم،

١. أي غراً محجّلين كما في الرواية.

فيقال: إنهم بدّلوا بعدك، أي لم يموتوا على ظاهر ما فارقتهم عليه. قال عياض وغيره: وعلى هذا فيذهب عنهم الغرة والتحجيل ويُطفا نورهم.

٨. وقيل: لا يلزم أن تكون عليهم السیما، بل يناديهم لما كان يُعرف من إسلامهم.

٩. وقيل هم أصحاب الكبائر والبدع الذين ماتوا على الإسلام، وعلى هذا فلا يُقطع بدخول هؤلاء النار، لجواز أن يُزادوا عن الحوض أولاً، عقوبة لهم، ثم يُرحموا. ولا يمتنع أن يكون لهم غُرة وتَحجيل، فعرفهم بالسیما، سواء كانوا في زمنه أو بعده.

١٠. ورجّح عياض والباقي وغيرهما ما قال قبيصة راوي الخبر إنهم من ارتد بعده ﷺ، ولا يلزم من معرفته لهم أن يكون عليهم السیما، لأنها كرامة يظهر بها عمل المسلم، والمرتد قد حبط عمله، فقد يكون عرفهم بأعيانهم لا بصفتهم، باعتبار ما كانوا عليه قبل ارتدادهم. ولا يبعد أن يدخل في ذلك أيضاً من كان في زمنه من المنافقين.

وسياتي في حديث الشفاعة (وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها) فدل على أنهم يُحشرون مع المؤمنين، فيُعرف أعيانهم، ولو لم يكن لهم تلك السیما، فمن عَرَف صورته ناداه مستصحباً لحاله التي فارقه عليها في الدنيا. وأما دخول أصحاب البدع في ذلك فاستُبعد لتعبيره في الخبر بقوله: (أصحابي)، وأصحاب البدع إنما حدّثوا بعده.

وأجيب بحمل الصحبة على المعنى الأعم. واستُبعد أيضاً أنه لا يقال للمسلم - ولو كان مبتدعاً - سحقاً. وأجيب بأنه لا يمتنع أن يقال ذلك لمن علّم

أنّه قُضي عليه بالتعذيب على معصية ثم ينجو بالشفاعة، فيكون قوله سحفاً تسليماً لأمر الله مع بقاء الرجاء. وكذا القول في أصحاب الكبائر.

١١. وقال البيضاوي: ليس قوله (مرتدين) نصاً في كونهم ارتدّوا عن الإسلام، بل يُحتمل ذلك، ويحتمل أن يراد أنهم عصاة المؤمنين المرتدّون عن الاستقامة، يبدّلون الأعمال الصالحة بالسيئة.

وفي نهاية النقل السابق للاحتتمالات قال ابن حجر وكأنه يشير إلى معرفة النبي ﷺ السابقة بهم وأنهم ليسوا من الأعراب: (وقد أخرج أبو يعلى بسند حسن عن أبي سعيد: «سمعت رسول الله ﷺ» - فذكر حديثاً - فقال: «يا أيها الناس، إني فرطكم على الحوض فإذا جئتم قال رجل: يا رسول الله، أنا فلان بن فلان! وقال آخر: أنا فلان ابن فلان! فأقول: أما النسب فقد عرفته، ولعلكم أحدثتم بعدي، وارتددتم»^(١)).

• تعليق:

الأحاديث السابقة كانت نماذج مما جاء في الباب، وقد ورد الخبر في الصحاح والسنن والمسانيد بألفاظ قريبة. والذي يمكن أن نقوله في هذا المقام، أن التعبير بالارتداد في الأحاديث السابقة لا يُراد منه الخروج كلية عن الإسلام، بمعنى التحوّل إلى الإلحاد أو الشرك أو اليهودية أو النصرانية وغيرها.. بل المراد منه - على ما يبدو - الارتداد العملي من خلال الانحراف عن المنهج الذي آمنوا عليه والمواثيق التي أخذت عليهم، كما قال جلّ جلاله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ

١. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ح ١٦١٦.

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ^(١). وكما أخذ الله عَهْدَ من بني إسرائيل من قبل المواثيق فلم يلتزموا بها. قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ، وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ^(٢).

ويبدو أن المحاولات الكثيرة التي قدّمتها عن ابن حجر عن عدد من العلماء إنما جاء أغلبها متناغماً مع منهج أهل السنة في القول بعدالة كل الصحابة، وهذا شيء مفهوم، إذ لا مناص بالنسبة إليهم من تقديم مثل هذه التفسيرات التي لو تمعّن فيها الباحث المتجرد لما قبلها، لا سيّما عند وضع تلك الأحاديث بألفاظها المختلفة بجانب بعضها البعض مما يكون صورة أوضح من المراد منها مما لو تعاملنا مع كل لفظ على حدة.

وأيّاً كان، فإنّ هذا الحديث - بالنسبة لأصحاب هذا الاتجاه - يمكن أن يشمل حركات الردّة التي ظهرت من بعد النبي ﷺ وجاء الخبر نبوءةً منه

١. سورة الحديد: ٨.

٢. سورة البقرة: ٨٢-٨٦.

بذلك. أما إن صح التفسير الذي اخترته للخبر، فهذا يعني أن الحديث أجنبي عن المقام، ولا علاقة له بالردّة وفق المعنى الاصطلاحي.

• الرواية الثالثة :

الحديث الآخر في المقام روي عن ثوبان قال: (قال رسول الله ﷺ: لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشرّكين^(١) وحتى يعبدوا الأوثان^(٢) وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون^(٣) كلّهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي)^(٤).

أبو العلام محمد عبد الرحمن المباركفوري «ت ١٣٥٣ هـ». ولد في بلدة مباركفور بالهند، وقرأ العلوم العربية والمنطق والفلسفة والهيئة والفقه وأصول الفقه على علماء كثيرين. له عدة مؤلفات أشهرها كتاب تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي. وهناك مجموعة من علماء أهل السنة يُعرفون بالمباركفوري منهم تلميذه عبيد الله المباركفوري، وصفي الرحمن المباركفوري أمير جماعة أهل الحديث بالهند.

وعُلّق عليه المباركفوري في شرحه لسنن الترمذي كالتالي: (قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح)^(٥). والرواية إن صحّت فسنعتبر أنّ لها علاقة ببحثنا حول الردّة.

• إلا ثلاثة :

وهذا يجرّنا إلى الحديث عن بعض الروايات التي تتحدّث عن

١. قال المباركفوري: منها ما وقع بعد وفاته ﷺ في خلافة الصديق.

٢. أي الأصنام.

٣. أي في ادعائهم النبوة.

٤. الترمذي: سنن الترمذي، ح ٢٢١٩.

٥. المباركفوري: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، ح ٢٢١٩.

محمد بن عمر بن عبد العزيز «ت٣٥٠هـ» المعروف بالكشي نسبةً إلى منطقة «كش» القريبة من سمرقند، أقام في بغداد، وكان صديقاً للكليني. قال عنه النجاشي: (كان ثقة عين، روى عن الضعفاء كثيراً، وصحب العياشي وأخذ عنه، تخرّج عليه في داره التي كانت مرتعاً للشيعة وأهل العلم، له كتاب الرجال كثير العلم إلا أن فيه أغلاطاً كثيرة). وقد فُقد الكتاب، إلا أن النسخة المهدّبة منه وصلتنا عن طريق الشيخ الطوسي وسمّي الكتاب: «اختيار معرفة الرجال».

ردّة كل المسلمين بعد النبي ﷺ إلا ثلاثة، من قبيل ما رواه الكشي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: (ارتدّ الناس إلا ثلاثة نفر: سلمان وأبو ذر والمقداد، قلت: فعمّار؟.. قال: قد كان حاصّ حيصة ثم رجع....) (١).

وهذه الأحاديث إن صحّ صدورها عن أحد من أئمة أهل البيت عليهم السلام فلا يمكن قبولها بحسب المعنى الذي نستعمل فيه هذه الكلمة اليوم، أي الخروج من الدين الإسلامي. وأقصى ما يمكن أن تدل عليه هو

رجوع الناس بعد رسول الله ﷺ عن التزامهم بأمر النبي ووصيته بخصوص ولاية أمير المؤمنين عليه السلام. ومخالفتهم لهذا الأمر لم يُخرجهم عن الإسلام، وهو ما يلتقي مع معنى الارتداد في مثل المروي عن النبي ﷺ والذي تناولناه بالبحث من قوله: (إنهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقري).

والذي يؤكد ذلك ما رواه الكليني عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: (كان الناس أهل ردة بعد النبي ﷺ إلا ثلاثة. فقلت: ومَن الثلاثة؟ فقال: المقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، رحمة الله

وبركاته عليهم، ثم عرف أناسٌ بعدَ يسير. وقال: هؤلاء الذين دارت عليهم الرحا وأبوا أن يبايعوا، حتى جاؤوا بأمر المؤمنين مكرهاً فبايع، وذلك قوله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾** ^(١) ^(٢).

على أنني أتحفظ - بالدليل العقلي ومن خلال الشواهد التاريخية - على صحّة هذا الرقم، الوارد في الرواية، إذ لو فرضنا أنه أمكن استقصاء آراء كل الناس في المدينة المنورة رجالاً ونساءً، وحكمنا بمخالفتهم جميعاً لأمر رسول الله ﷺ بخصوص ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، فكيف تم استقصاء آراء المسلمين في الجزيرة العربية وخارجها؟ لاسيما بلحاظ استعمال الروايات كلمة «الناس». ثم كيف لا نأخذ بعين الاعتبار موقف الزهراء عليها السلام والعباس عم النبي والفضل وقثم ابنه وبعض من شهدوا دفن النبي ﷺ وكانوا مع الإمام علي عليه السلام ولم يحضروا السقيفة ولا الأحداث التابعة لها.

هذا فضلاً عن الشواهد التاريخية العديدة التي تؤكد أن بني هاشم ثبتوا مع علي عليه السلام منذ البداية، وثبت معهم الزبير بن العوام وأبو الهيثم بن التيهان وطلحة بن عبيد الله وغيرهم، ومن نماذج تلك الشواهد الخبر التالي: (عن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: جعلت فداك، هل كان أحد في أصحاب رسول الله ﷺ أنكر على أبي بكر فعله وجلسه مجلس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، كان الذي أنكر على أبي

١. سورة آل عمران: ١٤٤.

٢. الكليني: الروضة من الكافي، ص ٢١٢-٢١٤.

بكر اثني عشر رجلاً، من المهاجرين: خالد بن سعيد بن العاص، وكان من بني أمية وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وبريدة الأسلمي، ومن الأنصار: أبو الهيثم بن التيهان وسهل وعثمان ابنا حنيف وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وأبي بن كعب وأبو أيوب الأنصاري^(١).

وفي كتاب العيون والمحاسن أن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب قال عندما بويح أبو بكر:

ما كنتُ أحسبُ أنَّ الأمرَ مُنتقلٌ	عَنْ هَاشِمٍ ثُمَّ مِنْهَا عَنْ أَبِي حَسَنٍ
أَلَيْسَ أَوَّلُ مَنْ صَلَّى لِقَبْلَتِهِمْ	وَأَعْلَمَ النَّاسَ بِالْآيَاتِ وَالسَّنَنِ
وَأَخَّرَ النَّاسَ عَهْدًا بِالنَّبِيِّ وَمَنْ	جَبْرِيلُ عُوْنٌ لَهُ فِي الْغُسْلِ وَالْكَفَنِ
مَا الَّذِي رَدَّكُمْ عَنْهُ فَتَعْلَمَهُ	هَآ إِنَّا بَيَعْتَكُمْ مِنْ أَوَّلِ الْفِتَنِ

وقال عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي^(٢) :
 وكان ولي الأمر بعد محمد علي وفي كل المواطن صاحبه
 وصي رسول الله حقاً وجاره وأول من صلى ومن لان جانبه

وعلى العموم، فرواية ارتداد الناس إلا ثلاثة لا علاقة لها ببحثنا حول حروب الردّة.

١. الطبرسي: الاحتجاج، ج ١، ص ٩٧.

٢. مصدر الآيات كلها المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٨، ص ٢٧٤-٢٧٦.

سيف بن عمر



سيف بن عمر

ذكرت فيما سبق أن العلامة السيد مرتضى العسكري ضمن تحليله وبحثه حول شخصية عبد الله بن سبأ، اكتشف دوراً خطيراً لسيف بن عمر التميمي «ت ٢٠٠ هـ أو قبل ذلك» في كتابة التاريخ الإسلامي بإقحام الكثير من التفاصيل الأسطورية، والتي تمكن من خلالها من أن يُضخم بعض الأحداث ويهوّل في تفاصيلها، كما واستطاع أن يخلّق أعداداً كبيرة من الشخصيات والأماكن الجغرافية والحروب وغير ذلك.

• كتابان غيراً وجه الحقيقة :

صنّف سيف بن عمر كتابين في موضوعين حساسين، الكتاب الأول كتاب «الفتوح الكبير والردّة» والثاني كتاب «الجمال ومسير عائشة وعلي». فأخذ عنهما المؤرخون الموسوعيون من قبيل الطبري «ت ٣١٠ هـ»، وابن عساکر «ت ٥٧١ هـ» والذهبي «ت ٧٤٨ هـ».

وانتشرت تلك الأساطير والروايات المختلقة والمحرّفة من خلال مصنّفاتهم الموسوعية إلى سائر المصنّفين والمؤرّخين، من قبيل ابن الأثير «ت ٦٣٠ هـ» وابن كثير «ت ٧٧٤ هـ» وأبي الفداء «ت ٧٣٢ هـ».

كما وانتقلت إلى المستشرقين الذين تلقفوا رواياته التي وجدوا فيها غايتهم بما يخدم التصورات التي يقدمونها عن الإسلام.

قال السيد مرتضى العسكري: (واستخرج مترجمو الصحابة أسماء كثيرة من أساطيره، وترجموا لتلك الأسماء ضمن تراجم الصحابة. كابن عبد البر وابن الأثير، وابن حجر، والذهبي، وغيرهم. واستخرج الحموي^(١) أيضاً من أساطيره أسماء أماكن وترجمها في مُعْجَمِهِ، والحميري وترجمها في الرُّوض^(٢) ومن الحموي أخذ عبدالمؤمن^(٣) (٤).

فلنتعرف بداية على شخصية سيف بن عمر، وماذا قال عنه علماء الجرح والتعديل^(٥) ونماذج من الشخصيات والأمكنة والأحداث التي اختلقها. ثم ستكون لنا جولة مع بعض المقارنات التي عقدها العلامة العسكري بين مرويات سيف بن عمر ومرويات غيره في الحدث التاريخي الواحد، والنتائج المترتبة على تلك المقارنات.

ومن ثم سنقارن بين مروياته حول حروب الردة ومرويات غيره في الباب، وما يمكن أن نستخلصه من كل ذلك في تكوين صورة تقريبية لتلك الأحداث.

• بطاقة تعريف:

هو سيف بن عمر التميمي الأسدي كما في الطبري، وأسيّد هو عمرو بن

١. أي ياقوت الحموي «ت ٦٢٦ هـ» صاحب معجم البلدان.

٢. أي كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد الله الحميري «ت ٩٠٠ هـ».

٣. عبدالمؤمن بن عبد الحق «ت ٧٣٩ هـ» له كتاب «مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع».

٤. العسكري: عبد الله بن سبأ، ج ١، ص ٧٦.

٥. أو ما يُعرف بعلم الرجال.

تميم. وقبيلة بني تميم قبيلة عدنانية مضرية، فهم بالتالي من عرب الشمال. قال العلامة العسكري: (وعلى هذا فهو من بني عمرو، وهذا يكشف لنا عن سبب تكثيره ذكر بطولات بني عمرو خاصة^(١)). وقد قيل في نسبه غير ذلك. كان سيف بن عمر كوفي الأصل، وقد سكن بغداد.

• قالوا عنه :

○ يحيى بن معين «ت ٢٣٣ هـ» وهو يعد من أهم علماء الجرح والتعديل عند أهل السنة: (فلس خير منه)^(٢).

○ أبو داود صاحب السنن ويعد من أئمة الحديث في زمانه «ت ٢٧٥ هـ»: (ليس بشيء، كذاب)^(٣).

○ النسائي «ت ٣٠٣ هـ» صاحب السنن، ويعد من أئمة الحديث في زمانه: (ضعيف)^(٤).

○ الحافظ الدارقطني «ت ٣٨٥ هـ» أحد أشهر أهل الاختصاص في علم الرجال عند أهل السنة: (متروك الحديث)^(٥).

○ الحاكم النيسابوري «ت ٤٠٥ هـ» أحد أئمة الحديث وصاحب المستدرک على الصحيحين: (اتهم بالزندقة، وهو في الرواية ساقط)^(٦).

١. العسكري: عبد الله بن سبأ، ج ١، ص ٥٩.

٢. ابن شاهين: تاريخ أسماء الضعفاء والكذابين، ص ١٠٠.

٣. الذهبي: ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ٢٥٥.

٤. قاسم سعد: منهج الإمام أبي عبد الرحمن النسائي في الجرح والتعديل، ص ٢١٨٨.

٥. العسقلاني: تهذيب التهذيب، ترجمة برقم ٥١٧.

٦. العسقلاني: تهذيب التهذيب، ترجمة برقم ٥١٧.

• نماذج من اختلافات سيف:

من خلال الدراسة والمقارنة التي قدّمها السيد العسكري حول أحاديث سيف في الأمثلة التي سأقدّمها في الصفحات التالية سنجد أنه قد اختلق:

١. عدداً من الرواة من قبيل «الغصن بن قاسم» و «عمير الصائدي» و «رجل من بني كنانة».

٢. شخصيات من قبيل «الققعاع بن عمرو التميمي» و «عاصم بن عمرو التميمي».

٣. معارك وأسماء وقائع وهمية من قبيل «يوم أرّمات» و «يوم أغواث» و «يوم عماس» و «يوم الماء» و «يوم الجراثيم» و «يوم النحيب» و «ذات السلاسل».

٤. تفاصيل كاذبة حول أحداث حقيقية من قبيل عبور نهر دجلة بصورة إعجازية، وبكاء أمهات المؤمنين عند خروج أم المؤمنين عائشة نحو البصرة، وتهويل الأحداث.

٥. أماكن وهمية لم يذكرها غيره ارتبطت بالأحداث والتفاصيل التي كان يختلقها أو يضخمها، وذلك من قبيل «دُلوث» و «طاووس» و «الْقُرْدُودَة».

وفيما يلي جانباً من المقارنة التي قدّمها السيد العسكري بخصوص فتوحات العراق وبلاد فارس، ثم خروج أم المؤمنين عائشة باتجاه العراق.

• ذات السلاسل:

قد يتفاجأ المرء أن وقعة مشهورة كوقعة ذات السلاسل لم يكن لها وجود في التاريخ، بل هي من مختلقات الداهية سيف بن عمر!

وقد ركّز فيها على نقطة خطيرة ما زالت تأثيراتها حاضرة في التّصوّر العام عن انتشار الإسلام في البلاد عن طريق الفتوحات الدموية الرهيبة التي لا تقل أبداً عن تلك التي جرت على يد المغول والقادة العسكريين السفاكين الذي لا يملّون من إراقة الدماء وتحقيق النتائج الميدانية بأي ثمن ووسيلة.

فالقصة بحسب نقل الطبري لها عن سيف كالتالي: (عن سيف عن المجالد عن الشعبي قال: كتب خالد إلى هرمز قبل خروجه...) وذكر سيف بعض التفاصيل ونُعرض عنها اختصاراً، ثم قال: (لما قدم كتاب خالد على هرمز كتب بالخبر إلى شيري بن كسرى وإلى أردشير بن شيري، وجمع جموعه...) ثم يصف سيف كيف ربّ القائد الفارسي قوّاته وأمر بربط بعضهم البعض (واقترنوا في السلاسل.... فلما أتى الخبر خالداً بأن هرمز في الحفير، أمال الناس إلى كاظمة، وبلغ هرمز ذلك، فبادره إلى كاظمة... وتعبى هرمز وأصحابه واقترنوا في السلاسل... وأرسل هرمز أصحابه بالغد ليغدروا بخالد، فواطؤوه على ذلك، ثم خرج هرمز فنادى: رجل ورجل! ^(١) أين خالد؟ وقد عهد إلى فرسانه عهده ^(٢)، فلما نزل خالد، نزل هرمز ودعاه إلى النزال، فنزل خالد فمشى إليه فالتقيا فاختلفا ضربتين واحتضنه خالد، وحملت حامية هرمز وغدرت، فاستلحموا خالداً فما شغله ذلك عن قتله، وحمل القعقاع بن عمرو واستلحم حماة هرمز فأناموهم، وإذا خالد يماصعهم ^(٣) وانهزم أهل فارس وركب المسلمون أكتافهم إلى

١. أي أنه يطلب المبارزة الفردية.

٢. أي طلب منهم الغدر بخالد أثناء المبارزة.

٣. مَصَعَ فلاناً: ضَرَبَهُ بالسيف أو السوط.



الليل^(١). وجمع خالد الرِّثاء^(٢) وفيها السلاسل، فكانت وقر بغير ألف رطل^(٣)، فسميت ذا السلاسل^(٤).

وفي رواية أخرى عن سيف أيضاً: (وما ارتفع النهار وفي الغائط^(٥) مُقْتَرِن^(٦)). أي أنه تم قتل كل أفراد الجيش.

ثم يستطرد سيف في خبر آخر يروي فيه فتح البصرة والأبلة، وهو ميناء قريب من البصرة، وكيف تمت الاستعانة بفيل، وكمية الغنائم الهائلة التي حصل عليها المسلمون وغير ذلك.

١. أي صاروا يقتلونهم طوال النهار إلى الليل.

٢. الثياب الخلقة.

٣. الوُقُر: الحِمْلُ الثَقِيل. والرطل العراقي يساوي ٤٠٠ جرام تقريباً أو أقل.

٤. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٩-٣١٠.

٥. الغائط: الأرض الواسعة.

٦. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٩.

وبغض النظر عن مسألة ربط المقاتلين بالسلاسل أثناء القتال لمنعهم من الهروب، وهو الأمر الذي لا يمكن لأي قائد عسكري أن يقوم به مهما كان غيباً، لما في ذلك من إعاقة تامة لحركتهم ومناوراتهم، فضلاً عن احتمال إسقاط بعضهم البعض وتحولهم إلى فرائس سهلة بيد الخصوم، تبقى مسألة قتلهم من قبل جيش المسلمين وإبادتهم عن بكرة أبيهم أمراً محتملاً في ساحات المعارك. إلا أن النصوص الأخرى التي لم تُروَ عن طريق سيف تحكي الحدث بصورة مغايرة تماماً، ولا نجد فيها هذه الوحشية التي لا تُبقي على قيد الحياة أسير فاقد القدرة على الهروب لأنه مربوط بالسلاسل أصلاً.

الأمر الذي يدفعنا إلى الشك في نوايا سيف من روايته الغريبة، والتي قد يكون الدافع لها زندقته التي دفعته لتشويه صورة الإسلام والفتوحات، وكما لو كان الإسلام فعلاً قد انتشر بالسيف وحروب الإبادة! فماذا قال رواة آخرون عن المواجهة التي تمت بين الطرفين؟

روى البيهقي: (قال خريم بن أوس بن حارثة بن لام: لم يكن أحد أعدى للعرب من هرمز، فلما فرغنا من مسيلمة وأصحابه، أقبل إلى ناحية البصرة، فلقينا هرمز بكاظمة في جمع عظيم، فبرز خالد بن الوليد ودعا إلى البراز، فبرز له هرمز فقتله خالد رضي الله عنه، وكتب بذلك إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فنقله سلبه^(١). وفي المعجم الكبير للطبراني تتمة الخبر كالتالي: (ثم سرنا على طريق الطف^(٢) حتى دخلنا الحيرة...) ^(٣).

١. البيهقي: السنن الكبرى، ح ١٢٥٧٠.

٢. الطف: الشاطيء أو ما أشرف على ريف العراق.

٣. الطبراني: المعجم الكبير، ج ٤، ص ٢١٤.



وقد تنبّه الطبري إلى تفرّد سيف بتلك الروايات وأنها من اختلاقاته، فقال بعد الروايات السابقة عن ذات السلاسل وفتح البصرة والأبلة: (وهذه القصة في أمر الأبلة وفتحها خلاف ما يعرفه أهل السير وخلاف ما جاءت به الآثار الصحاح، وإنما كان فتح الأبلة أيام عمر رَحِمَهُ اللهُ وعلى يد عتبة بن غزوان في سنة أربع عشرة من الهجرة) ^(١).

ثمّ أورد الطبري الأخبار المروية في فتح الأبلة - التي وعد بها - ضمن أخبار العام الرابع عشر، وليس فيما أورده هناك شيء ممّا رواه سيف في ذلك. وبالتالي، فإنّ معركة كاظمة - إن وقعت فعلاً - لم تكن بهذا الحجم، كما لم يستتبعها فتح الأبلة والبصرة.

قال السيد العسكري في ختام هذا البحث المقارن والذي اختصرناه: (كلّ هذه الأخبار تفرّد بها سيف القصص العبقري، ورواها في سبع من رواياته

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣١٠.

يؤكد بتعددّها فريته، وردّ في أسانيدھا أسماء خمسة من مختلفاته. كتابان، وتعبئة جيش، واقتران في السلاسل، ومعركة، وقدر، وكرامة وبطولات، وفتح وأخماس الغنائم، وفيل يُرسل إلى المدينة، لم يصدق شيء منها! كما لم يوجد الصحابيّان زُرّ والقعقاع، ولا الرواة الذين روى عنهم الخبر! وأخيراً فإنّ أهمّ ما أنتجت فريته هو إضافة معركة حربية إلى المعارك التي انتشر بسببها الإسلام! معركة أباد فيها المسلمون جميع المقاتلين المقترنين بالسلاسل وركبوا أكتاف المهزومين يقتلونهم إلى الليل! ^(١).

• صورة مغايرة تماماً:

والواقع أن الرواة غير سيف رووا في أحداث الفتوحات في العراق وغيرها تفاصيل تؤكد على أن أهل المناطق التي دخلها المسلمون كانوا يستقبلونهم بالصلح، ودفع الجزية أو بالمواجهة البسيطة التي سرعان ما تنتهي ويتوزع بعدها المقاتلون.

ونقل هنا للاختصار ما توصل إليه السيد مرتضى العسكري في هذا المجال بعد أن نقل هو النصوص وقارنها ببعضها البعض. قال وهو يتحدث عن فتوحات ما بعد الحيرة: (أوردنا في ما سبق موجزاً من روايات سيف عن غزوات خالد بعد الحيرة. ولمعرفة مدى تطابقها مع الواقع نبحت أولاً في سواد العراق يومذاك؛ فنجد فيه قرى صغيرة منتشرة على شواطئ الأنهر، يسكنها المزارعون من العرب والفرس، وكبراها الحيرة، وكان يسكنها ملوكهم المناذرة. وكان عدد رجالها ستة آلاف عندما أحصاهم خالد! وألزم

١. العسكري: عبد الله بن سبأ، ج ٢، ص ٨٢.

كل واحد منهم بدفع أربعة عشر درهماً سنوياً حسب رواية البلاذري. فإذا كان عدد رجال حاضرتهم ستة آلاف فكم يكون عدد رجال سائر قراها؟ ثانياً: لمعرفة طبيعة المعارك التي دارت رحاها في السواد يومذاك، نرجع إلى الدينوري^(١) فنجده يقول في الأخبار الطوال ما موجزه: لما أفضى الملك إلى بوران بنت كسرى، شاع أنه لا ملك لأرض فارس وإنما يلودون بباب امرأة. فأقبل رجلان من بكر بن وائل يغيران على الدهاقين فيأخذان ما قدرا عليه، فإذا طلبا^(٢) أمعنا في البر فلا يتبعهما أحد، يقال لأحدهما المثني وكان يغير من ناحية الحيرة، وللآخر سويد وكان يغير من ناحية الأبلّة. وكان ذلك في خلافة أبي بكر، فكتب المثني إلى أبي بكر يعلمه ضراوته بفارس ويعرفه وهنهم، ويسأله أن يمدّه بجيش، فكتب أبو بكر إلى خالد - وكان فرغ من أهل الردّة - أن يسير إلى الحيرة ويضم إليه المثني، ففعل، وكره المثني ورود خالد عليه.

ونرجع إلى البلاذري فنجد عنده وصفاً رائعاً لغزوات خالد في الحيرة تُعرّفنا طبيعة تلك المعارك، وقد سبق ذكر بعضها، ونذكر في ما يلي موجزاً لبعض ما وقع منها بعد الحيرة، قال: وبعث خالد بشير بن سعد الأنصاري إلى «بانقيا»^(٣) فلقيته خيل للأعاجم عليها فرخبنداد، فرشقوا من معه بالسّهام، وحمل عليهم فهزمهم وقتل فرخبنداد، ثم انصرف وبه جراحة انتفضت بعين التمر فمات منها. وقيل إن خالداً هو الذي قتل فرخبنداد،

١. أي أحمد بن داود الدينوري المؤرخ «ت ٢٧٦هـ».

٢. أي تمت ملاحقتهم.

٣. من الأسماء القديمة لمدينة النجف حالياً.

وبعث جرير بن عبدالله البجلي إليهم فخرج إليه بُصْبُهري بن صُلُوبا فاعتذر إليه من القتال وعرض عليه الصلح، فصالحه جرير على ألف درهم وطيلسان. وقيل إنَّ صُلُوبا أتى خالدًا فاعتذر إليه وصالحه هذا الصلح. وقالوا: إنَّ خالدًا أتى بعدها الفلاليج وبها جمع للعجم فتفرقوا ولم يلقوا كيداً فرجع إلى الحيرة، فبلغه أنَّ جابان في جمع بتُستَر، فوجَّه إليه المثنى وحنظلة بن الربيع فلمَّا انتهيا إليه هرب وسار إلى الأنبار فتحصَّن أهلها، وبعث المثنى إلى السوق العتيق ببغداد فأغار عليهم فملاؤا أيديهم من الذهب والفضَّة وما خفَّ حملة، ثمَّ أتوا الأنبار - وخالد بها - فحاصروا أهلها وحرَّقوا نواحيها فصالحوه بشيء رضى به، وقيل بل صالحه جرير في عصر عمر. هكذا كانت طبيعة غزوات خالد في العراق، يبعث جريدة خيل إلى تلك القرية أو هذه فيستقبلونهم بالصلح ودفع الجزية أو بالمراومة^(١) ساعة من نهار ثمَّ ينهزمون، أو يباغت تجمُّعاً في سوق فيستولي على ما فيها بعد فرار أهلها، وأحياناً يهاجم قرية فيقاتل خضراءها أو حصناً أو مَسْلَحة^(٢) فيقتل منهم أفراداً ثمَّ يستولي على بعض السبي والغنائم. ويتناسب هذا النوع من الغزو وعدد جيش خالد كما رواه البلاذري عندما ذكر خبر انصرافهم من العراق إلى الشام لإمداد المسلمين هناك قال: «وسار في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة في ثمان مائة، ويقال: في ستمائة، ويقال: في خمسمائة». وليس بمقدور هذا العدد أن يبيد مئات الألوف كما ذكرته روايات سيف^(٣).

١. الرمي بالسهم من الطرفين.

٢. نقطة أو مفرزة تجمع عسكرية.

٣. العسكري: عبدالله بن سبأ، ج ٢، ص ٩٢-٩٦.

ثم قدّم نتائج بحثه كالتالي:

○ وجدنا خالداً في وقعة ذات السلاسل يبيد جيش الفرس المقتربين بالسلاسل حسب رواية سيف.

○ وفي الثني يقتل منهم مقتلة عظيمة يبلغ قتلهم ثلاثين ألفاً سوى من قد غرق.

○ وفي الولجة يقتل منهم مقتلة لا يرى أحد منهم مقتلَ صاحبه، ويقتل فارساً يُعدُّ بألف، فيتّكئ عليه في ساحة المعركة ويتغدّى.

○ وفي أليسَ يحلف أن يجري نهرهم بدمائهم، فيُجلب الناس من جوانبها مدّة ثلاثة أيام ويضرب أعناقهم على النهر حتّى يبلغ قتلهم سبعين ألفاً ويهدم مدينة أمغيشيا بعدها.

○ وفي معركة الحيرة يبيد جيش بن الأزاذه.

○ وفي الحصيد يقتل القعقاع منهم مقتلة عظيمة.

○ وفي المصيخ يغيرون عليهم من ثلاثة أوجه وهم نائمون فيقتلونهم حتّى يمتلئ الفضاء بهم، ويشبهونهم بالغنم المصرّعة.

○ وفي المثنى - أيضاً - بيّتهم من ثلاثة أوجه وأعملوا فيهم السيف، فلم يفلت منهم مُخبر.

○ وفي الزُميل بيّتهم غارةً شعواء من ثلاثة أوجه فقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً لم يقتلوا قبلها مثلاً، فقد كانت على خالد يمين أن ييغتهم.

○ وفي الفراض أمر خالد أن يلحوا عليهم بعد هزيمتهم، فجعل صاحب

الخيـل يحشـر منهم الزمـرة برماـح أصـحابه، فإذا جمعوهم قتلوهم، فقتلوا منهم في المعركة والطلب مائة ألف.

(أيُّ إنسان لا يقشعُ جلده من قراءة تاريخ الفتوح الإسلامية هذا؟ وهل فعلت جيوش التتر أكثر من هذا؟ ألا يحقُّ لخصوم الإسلام مع هذا التاريخ المزيف أن يقولوا: «إنَّ الإسلام انتشر بحدِّ السيف»؟ وهل يشكُّ أحد بعد هذا من هدف سيف في وضع هذا التاريخ وما نواه من سوء للإسلام؟)

وما الدافع لسيف إلى كلِّ هذا الدسِّ والوضع إن لم تكن الزندقة التي وصفه العلماء بها؟ وأخيراً هل خفي كلُّ هذا الكذب والافتراء على إمام المؤرخين الطبري؟ وعلا متهم ابن الأثير؟ ومكثـرهم ابن كثير؟ وفيلسوفهم ابن خلدون؟ وعلى عشرات من أمثالهم؟ كابن عبد البر وابن عساكر والذهبي وابن حجر؟

كلّا فإنهم هم الذين وصفوه بالكذب ورموه بالزندقة! وقد مرَّ علينا في وقعة ذات السلاسل قول الطبري وابن الأثير وابن خلدون في تواريخهم: أن ما ذكره سيف فيها خلاف ما يعرفه أهل السير!

إذاً فما الذي دعاهم إلى اعتماد روايات سيف دون غيرها مع علمهم بكذبه وزندقته؟^(١)

سنؤجل الإجابة على ذلك إلى نهاية الحديث عن روايات سيف وقيمتها العلمية.

١. العسكري: عبدالله بن سبأ، ج ٢، ص ٩٧-٩٧.

• من اختلاقات معركة القادسية :

منطقة تبعد ٥٠ كم تقريباً عن الكوفة، وفي هذا المكان جرت معركة القادسية إحدى معارك الفتح الإسلامي للعراق وفارس. وقعت في ١٢ شعبان ١٥هـ «١٦-١٩ نوفمبر ٦٣٦م»، بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص والإمبراطورية الفارسية بقيادة رستم فرخزاد، انتهت بانتصار المسلمين ومقتل رستم. وكانت أحد أهم المعارك لفتح العراق. وشهدت المعركة تحالفاً بين الإمبراطور الساساني يزدجرد الثالث مع الإمبراطور البيزنطي هرقل توجّ بزواج حفيدة هرقل من يزدجرد.

عبد المجيد وقيل عبد الحميد بن عبدون الفهري اليابري الأندلسي «ت ٥٢٩ هـ». له قصيدة مشهورة ذكر فيها مصارع الملوك، ومطلعها:
الدَّهْرُ يُفْجِعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ
فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّورِ

قال السيد العسكري: (في يوم القادسية وقعت حرب ضروس بين جيش المسلمين والفرس أوردتها سيف في أحاديثه عن الفتوح على شكل أساطير سمى فيها اليوم الأول منها بيوم أرماث، والثاني يوم أغواث، والثالث يوم عماس، واختلق بطولات فذة لأبطال أساطير من قبيلته تميم كالأخوين القعقاع وعاصم^(١) ثم اخترع لهذه الأساطير رواة، روى أساطيره عنهم على صورة أحاديث فقال: حدثني فلان عن فلان. فأخذ منه الطبري في ذكره حرب القادسية من تاريخه، ومن الطبري أخذ ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون في تواريخهم. وترجمها الحموي في معجم البلدان، وأشار إليها ابن عبدون في قصيدته، وشرحها ابن

١. ابني عمرو التميمي.

المؤرخ أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي صاحب موسوعة «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» وهي موسوعة شاملة لجميع العلوم الشرعية والأدبية والجغرافية والتاريخية «ت ٨٢١ هـ» وقد ذكر المطلب المشار إليه في موسوعته الأخرى: «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب».

بدرود^(١) وأوردها القلقشندي في «أيام الإسلام» وقد أوردنا تفصيل ما ذكره سيف في هذه الأيام في ترجمة القعقاع وعاصم من كتابنا «خمسون ومائة صحابي مختلف»^(٢).

ثم أضاف السيد العسكري متحدثاً عن أحد الرواة المختلفين في

سند تلك الروايات: (أما الغصن بن قاسم، فقد ورد اسمه في سند ١٣ حديثاً لسيف عند الطبري، ولما لم نجد له ذكراً في ما بحثنا من كتب الرجال، فلنا أن نعتبره من مختلفات سيف من الرواة. وهذا أيضاً يروي عن رجل من بني كنانة ولا ندري ماذا تخيل سيف اسمه لنبحث عنه في مصادر علم الرجال والتاريخ)^(٣).

• يوم الجراثيم^(٤) :

وتحت عنوان «يوم الجراثيم» نقل السيد العسكري عن الطبري ضمن حوادث سنة ١٦ هـ أنه روى خمسة عشر خبراً عن سيف بن عمر يذكر فيها عبور جيش المسلمين دجلة إلى مدائن كسرى في حربهم مع الفرس، وأن سيفاً

١. أي الشاعر والأديب عبد الملك بن عبد الله بن بدرود «ت ٥٢٥ هـ».

٢. العسكري: عبد الله بن سبأ، ج ١، ص ٢٥٧-٢٥٨.

٣. العسكري: عبد الله بن سبأ، ج ١، ص ٢٥٨.

٤. الجرثومة: التراب المجتمع حول أصول الشجر.



سمّى تلك الواقعة بيوم الجراثيم، وكيف وصف سيف الأحداث الخارقة التي جرت بقيادة الشخصية المختلقة عاصم بن عمرو التميمي، حيث عبر هو ومن معه نهر دجلة الذي كان متلاطماً في ذلك اليوم، راكبين خيولهم: (وما زال فرس يستوي قائماً إذا أعى، يُنشز له تلعة^(١) فيستريح عليها كأنه على الأرض! فلم يكن بالمدائن أمر أعجب من ذلك، وذلك «يوم الماء» وكان يدعى «يوم الجراثيم»).

وفي الرواية الأخرى عن سيف عن عاصم أنه: (كان يوم ركوب دجلة يدعى: يوم الجراثيم، لا يعى أحدٌ إلا أنشزت له جرثومة يُريح عليها).

وفي الرواية الثالثة عنه أيضاً: (خضنا دجلة وهي تطفح، فلما كنا في أكثرها ماء لم يزل فارسٌ واقفاً ما يبلغ الماء حزامه!)^(٢).

١. تلعة: أرض مرتفعة.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ١٢٢-١٢٣.

أما عند غير سيف فالصورة مختلفة تماماً، فقد روى - مثلاً - ياقوت الحموي تحت عنوان الكوفة عند ذكره توجّه سعد بن أبي وقاص إلى المدائن بعد واقعة القادسية أنّ الدهاقين^(١) كانوا قد: (ناصحوا المسلمين ودلّوهم على عورات فارس، وأهدوا لهم، وأقاموا لهم الأسواق. ثم توجّه سعد نحو المدائن

إلى يزدجرد، وقدم خالد بن عرفطة حليف بني زهرة بن كلاب فلم يقدر عليه سعد حتى فتح خالد سبابط المدائن، ثم توجّه إلى المدائن فلم يجد معابر فدلّوه على مخاضة^(٢)

خالد بن عرفطة بن أبرهة العذري حليف بني زهرة بمكة، صحابي نزل الكوفة بعد تأسيسها واستخلفه سعد بن أبي وقاص عليها «ت ٦٠ هـ».

عند قرية الصيادين أسفل المدائن فأخاضوها الخيل حتى عبروا^(٣).

وهكذا أكّد البلاذري أنّ الذي أمّن السبيل خالد بن عرفطة قائد مقدمة سعد، وليس بعاصم التميمي، وأن الدهاقين الذين كانوا يدلّون المسلمين على عورات الفرس دلّوهم على مخاضة خاضوها بخيولهم. (فإذا قارنا بين روايات سيف وغيره اتضح لنا مدى دس سيف فيما يروي من الحوادث التاريخية)^(٤).

• يوم النحيب ومعركة الجمل:

وحول أحداث معركة الجمل، اختلق سيف يوماً باسم «يوم النّحيب»، نقله عنه الطبري في تاريخه، قال: (عن سيف عن ابن الشهيد عن ابن أبي مليكة

١. الدهقان: زعيم فلاحي المعجم.

٢. المخاض: مكان ضحل الماء يخوضه الناس مشاةً أو ركباناً.

٣. الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١.

٤. العسكري: عبد الله بن سبأ، ج ١، ص ٢٦٣.



كان موسم حج وذات عرق ميقات أهل العراق للحج، ومن جاء عن طريقهم، ويبعد عن مكة مسافة ٩٢ كم شمالاً.

عبدالرحمن بن عتّاب بن أسيد بن أبي العيص الأموي. من التابعين. أبوه عتاب من مَسلمة الفتح، ولما خرج رسول الله من مكة إلى حنين استعمله عليها. قُتل عتّاب يوم الجمل على يد مالك الأشر.

قال: خرج الزبير وطلحة ففصلا، ثم خرجت عائشة فتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق فلم يُرَ يوم كان أكثر باكياً على الإسلام أو باكياً له من ذلك اليوم. كان يُسمّى النحيب. وأمرت عبدالرحمن بن عتّاب فكان يصلّي بالناس^(١) وكان عدلاً بينهم^(٢).

أما من سوى سيف، فلم يأتوا على ذكر الحدث بهذه الصورة،

١. أي في الطريق إلى البصرة.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ١٢.

عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري «ت ٢٧٦ هـ». أديب وفقهه ومحدث ومؤرخ. له العديد من المصنفات أشهرها عيون الأخبار، وأدب الكاتب. ولي قضاء الدينور من بلاد فارس فنُسب إليها، أخذ العلم في بغداد على يد مشاهير علمائها، كإسحاق بن راهويه، وأبي حاتم السجستاني، وأبي الفضل الرياشي.

كما لم يأتوا على ذكر يوم باسم يوم النحيب. ومن نماذج ذلك ما رواه ابن أبي الحديد عن ابن قتيبة في كتابه «المصنف في غريب الحديث» في باب أم سلمة قال: (لما أرادت عائشة الخروج إلى البصرة أتتها أم سلمة فقالت لها: إنك سُدَّة^(١) بين محمد رسول الله ﷺ وبين أمته، وحجابك مضروب على حرمة. قد جمع القرآن ذيلك، فلا تندحيه^(٢)

وسكن عقيرك فلا تُصحريها^(٣)، الله من وراء هذه الأمة^(٤) لو أراد رسول الله ﷺ أن يعهد إليك عهداً^(٥). عَلَتْ عَلَتْ^(٦). بل قد نهاك عن الفُرطة في البلاد^(٧). إن عمود الإسلام لا يثأب بالنساء إن مال^(٨) ولا يرأب بهن

١. السدة أي الباب. قال ابن أبي الحديد: «وأرادت أم سلمة أنك باب بين النبي ﷺ وبين الناس فمتى أصيب ذلك الباب بشيء فقد دخل على رسول الله ﷺ في حرمة وحوزته واستبيح ما حماه. تقول فلا تكوني أنت سبب ذلك، بالخروج الذي لا يجب عليك فتُحْجِجِي الناس إلى أن يفعلوا ذلك».
٢. أي لا تفتحيه ولا توسعيه بالحركة والخروج وهي تشير إلى قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.
٣. عُقْر الدار: أصلها، وعُقَيْر تصغير عُقْر. وقولها: فلا تصحريها أي لا تبرزيها وتجعليها بالصحراء.
٤. أي محيط بهم وحافظ لهم وعالم بأحوالهم.
٥. الجواب محذوف أي لفعل ولعهد.
٦. العول الميل والجور. أي جُرَّت في هذا الخروج وعدلت عن الصواب.
٧. أي عن السفر. مِنَ الْفَرْط وهو السبق والتقدم.
٨. أي لا يرد بهن إن مال إلى استوائه أي ليس هذا من شأن النساء ومسؤولياتهن.

إِنْ صَدَعَ^(١). حماديات النساء^(٢): غَضُّ الأطراف، وَخَفَرُ الأعراض وقصر الوهازة^(٣) ما كنت قائلة لو أن رسول الله ﷺ عَارَضَكَ بعد الفلوات ناصّةً قلوَصاً^(٤) مِنْ مَنْهَلٍ^(٥) إِلَى آخِر. إِنْ بَعَيْنَ اللَّهُ مَهْوَكَ^(٦) وَعَلَى رَسُولِهِ تَرْدِينَ، وَقَدْ وَجَّهَتْ سِدَافَتَهُ^(٧) وَتَرَكْتَ عَهْدَاهُ^(٨). لَوْ سِرْتُ مَسِيرَكَ هَذَا ثُمَّ قِيلَ لِي ادْخُلِي الْفَرْدُوسَ لَا سَتَحْيِيَّتُ أَنْ أَلْقَى مُحَمَّدًا ﷺ هَاتِكَةً حِجَاباً وَقَدْ ضَرَبَهُ عَلَيَّ. اجْعَلِي حِصْنَكَ بَيْتَكَ، وَوَقَاعَةَ السُّتْرِ^(٩) قَبْرَكَ حَتَّى تَلْقِيَنِي، وَأَنْتِ عَلَى تِلْكَ أَطْوَعُ مَا تَكُونِينَ لِلَّهِ بِالرَّقِبَةِ، وَأَنْصُرَ مَا تَكُونُ لِلدِّينِ مَا حُلْتَ عَنْهُ. لَوْ ذَكَرْتُكَ قَوْلًا تَعْرِفِيَنِي لَنُهِشْتُ بِهِ نَهْشَ الرِّقْشَاءِ الْمُطْرِقَةِ^(١٠).

فَقَالَتْ عَائِشَةُ: مَا أَقْبَلَنِي لَوْعَظِكَ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَظُنِّينَ، وَلَنِعْمَ الْمَسِيرُ مَسِيرٌ فَرَعَتْ فِيهِ إِلَيَّ فِتْنَتَانِ مُتَنَاجِرَتَانِ^(١١) - أَوْ قَالَتْ مُتَنَاحِرَتَانِ - إِنْ أَقْعَدَ فُضِي غَيْرَ حَرَجٍ، وَإِنْ أَخْرَجَ فَإِلَى مَا لَا بَدَ لِي مِنَ الْإِزْدِيَادِ مِنْهُ^(١٢).

١. أي لا يُسَدُّ بهن ولا يُجَمَّع. والصدع الشق.

٢. أي جهدهن وغايتهن.

٣. الخفر: الحياء، والأعراض: جمع عرض وهو الجسد. والوهازة: الخطوة.

٤. النص: الرفع، والقלוص من النوق الشابة وهي بمنزلة الفتاة من النساء. أي راكبة قلوَصاً.

٥. المنهل: الماء ترده الإبل.

٦. مهواك: مسيرك.

٧. أي حوّلت وغيرت مكان ستره.

٨. تصغير العهد.

٩. موقع الستر على الأرض إذا أرسل.

١٠. أي لعضك ونهشك ما أذكره لك وأذكرك به كما تنهشك أفعى رقشاء. والرقش في ظهرها هو النُقْط.

١١. أي تسرع كل واحدة منهما إلى نفوس الأخرى.

١٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٦، ص ٢٢٠-٢٢١.

كان هذا بخصوص ساعة الخروج، أما بخصوص إمامة الصلاة فقد روى الطبري عن ابن عباس تفصيلاً مختلفاً تماماً لما حدث، قال: (وأذن مروان حين فصل من مكة ثم جاء حتى وقف عليهما فقال: أيكما أسلم بالإمرة وأذن بالصلاة؟ فقال عبد الله بن الزبير: على أبي عبد الله^(١) وقال محمد بن طلحة على أبي محمد^(٢) فأرسلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى مروان فقالت: ما لك؟ أتريد أن تفرّق أمرنا؟ ليُصلَّ ابنُ أختي^(٣). فكان يصلي بهم عبد الله بن الزبير حتى قَدِمَ البصرة، فكان معاذ بن عبيد الله يقول: والله لو ظَفَرْنَا^(٤) لافتتنّا. ما خَلَى الزبير بين طلحة والأمر، ولا خَلَى طلحة بين الزبير والأمر^(٥).

كان هذا الاختلاف في الطريق، أمّا في البصرة فقد قال اليعقوبي في

عثمانُ بن حنيفة الأنصاري صحابي
ومن أنصار أمير المؤمنين وواليه على
البصرة. توفي على عهد حكم معاوية.

تاريخه: (وقدم القوم البصرة، وعامل عليّ عثمانُ بن حنيف فمنعها ومن معها من الدخول، فقالا: لم نأت لحرب، وإنما جئنا

لصلح، فكتبوا بينهم وبينه كتاباً أنهم لا يُحدثون حدثاً إلى قدوم علي، وأن كل فريق منهم آمن من صاحبه، ثم افترقوا، فوضع عثمان بن حنيف السلاح، فنتفوا لحيته وشاربه وأشفار عينيه وحاجبيه، وانتهبوا بيت المال،

١. أي الزبير.

٢. أي طلحة.

٣. أي عبد الله بن الزبير.

٤. أي لو انتصرنا في الجمل.

٥. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ١٠.

وأخذوا ما فيه، فلما حضر وقت الصلاة تنازع طلحة والزبير، وجذب كل واحد منهما صاحبه، حتى فات وقت الصلاة وصاح الناس: الصلاة الصلاة يا أصحاب محمد! فقالت عائشة: يصلي محمد بن طلحة يوماً وعبد الله بن الزبير يوماً، فاصطلحوا على ذلك^(١).

والذي دفع سيف لاختلاق تلك التفاصيل وأطلق عليها اسم يوم النحيب، والحديث عن إمامة عبدالرحمن بن عتاب هو استبدال الخبر الحقيقي المتضمن تقريع السيدة أم سلمة لأم المؤمنين عائشة لخروجها إلى البصرة، فإنه عالج الأمر بما روى أن أمهات المؤمنين خرجن مشيعات لعائشة إلى ذات عرق: (وفيه من خبر إجماعهن على تجليلها في تلك الرحلة وخروجهن مشيعات لها ما يعارض خبر تقريع أم سلمة لها، ويدحضه)^(٢).

وكذلك عالج سيف بن عمر خبر النزاع على إمامة الصلاة في الطريق وفي البصرة وتعيين أم المؤمنين ابن أختها ومحمد بن طلحة ابن عمها للإمامة قطعاً للنزاع.

قال السيد العسكري: (عالج سيف هذا الخبر بما روى: أن أم المؤمنين عينت عبدالرحمن بن عتاب للإمامة فصلّى بهم في الطريق وبالبصرة حتى قُتل، عارض سيف بهذا الخبر خبر النزاع على إمامة الصلاة. عالج سيف كل ذلك في حديث صغير من مخترعاته، وأيده بجملة في حديث آخر. عالج كل ذلك من حيث لا يشعر القارئ ماذا يريد أن يصنع، وروى الخبر عن اثنين من مختلقاته من الرواة. تفرّد سيف برواية خبر يوم النحيب بذات

١. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٨١.

٢. العسكري: عبد الله بن سبأ، ج ١، ص ٢٧٠.

عرق، وأخذ منه الطبري، ومن الطبري أخذ ابن كثير في تاريخه، وبذلك نجح سيف فيما أراد من تحريف وتشويش في التاريخ الإسلامي^(١).

• اختلاق الأماكن:

وضمن حديثه عن حرب الهرمزان، وهي من ضمن فتوحات بلاد فارس، اختلق سيف موقعاً بالقرب من الأهواز اسمه «دُلُوث»، ونقل عنه اسم الموقع كل من الطبري في تاريخه ياقوت الحموي في معجم البلدان. وحينما نراجع المصادر الأخرى التي لم تأخذ من سيف، فإنها لا تذكر تلك الأماكن نهائياً، وذلك من قبيل المصنفات التالية:

- صفة جزيرة العرب: الحسن بن أحمد المعروف بابن الحائك «ت ٣٣٤هـ».
- فتوح البلدان: أحمد بن يحيى البلاذري «ت ٢٧٩هـ».
- الآثار الباقية عن القرون الخالية: محمد بن أحمد البيروني «ت ٤٤٠هـ».
- معجم ما استعجم: عبد الله بن عبدالعزيز البكري الوزير «ت ٤٧٨هـ».
- تقويم البلدان: إسماعيل صاحب حماء «ت ٤٣٢هـ».

عرف العرب نهر كارون باسم دجيل الأحواز، وإنما سموه بدجيل للتمييز بينه وبين دجلة العراق، وهذا النهر يمر بمدينة الأهواز فيقسمها إلى منطقتين.

قال الحموي: (دُلُوث: قال سيف عن رجل من عبد القَيْس يُدعى صُحاراً، قال: قدمت على هَرَم بن حَيَّان أيام حرب الهرمزان بنواحي الأهواز وهو فيما بين دُلُوث ودُجِيل

١. العسكري: عبد الله بن سبأ، ج ١، ص ٢٦٩-٢٧٠.



جَلَّة (قَمَّة) التمر

بجلال من تمر^(١) وذكر خبراً. وسماها في موضع آخر دُث (٢). وهكذا نقل عنه الحموي وجود موضع ببلاد فارس اسمه طاووس، قال: (طاووس: موضع بنواحي بحر فارس عن سيف كان العلاء الحضرمي أرسل إليه جيشاً في البحر من غير إذن عمر فسخط عليه وعزله...) (٣). وأخذ عنه الطبري أيضاً في تاريخه.

كما نقل عنه الحموي وجود موضع بجزيرة العرب اسمه القردودة، قال: (القردودة: لما تنبأ طليحة ونزل بسميراء، أرسل إليه ثمامة بن أوس بن لام الطائي أن معي من جديدة خمسمائة فإن دهمكم أمر فنحن بالقردودة والأنسر، دوين الرمل) (٤). وأخذ عنه الطبري أيضاً في تاريخه ضمن حديثه عن ردة غطفان.

وقد ذكر السيد مرتضى العسكري ثلاثة عشر موضعاً مختلفاً من قبل سيف بن عمر، وقال: (هذه إلى كثير غيرها يوردها الحموي في معجم البلدان اعتماداً على قصص سيف، بينما لا نجد لها ذكراً في الكتب البلدانية الأخرى) (٥).

• سبب انتشار أخباره:

ختم السيد العسكري الجزء الأول من كتابه عبدالله بن سبأ بخلاصة

١. الجلة: قفة التمر.

٢. الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٠.

٣. الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٤٣.

٤. الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٢.

٥. العسكري: عبدالله بن سبأ، ج ١، ص ٣٠٥.

مفيدة بين فيها تتبَّعه أحاديث سيف في الفتوح والرَّدة، وأنه وجد من انتشارها وإهمال غيرها من الأخبار الصَّاح أمراً عجباً، وما ذلك إلا لأنَّ سيفاً قد وضع تلك الأحاديث كما رغب المعجبون بها أن يكون التاريخ، لا كما كان!

فقد وجد المعجبون بها من المسلمين ما رغبوا في أن يسمعوها عن أمراء المسلمين من طبائع ملائكيَّة، وبطولات فذَّة، وكرامات معجزة خارقة لنواميس الطبيعة. وضرب على ذلك أمثلة من قبيل: انقلاب رمل الدهناء لجيشهم ماء، وماء البحار رَمَلاً، وتكليم البقر إياهم وإخبارهم بمكانها... إلخ.

وأضاف السيد العسكري أنه قد وجد المعجبون بتلك الأخبار المختلقة - لما أخذ على الأمراء والوُلاة وذوي المكانة من أمور غير مستحسنة - تعليلاً وبياناً يدفع عن أولئك الكرام كلَّ نقد.

وأما المستشرقون فلربَّما وجدوا في أحاديث سيف ما رغبوا في أن يسمعوها عن جيوش المسلمين الأولين، من إسراف في القتل، وقسوة في الحرب، فبنوا أبحاثهم واستنتاجاتهم عليها ولم يبحثوا عن غيرها من الأخبار الصَّاح. والأمثلة في هذا الباب كثيرة وذلك من قبيل:

○ أنَّ خالد بن الوليد بقي ثلاثة أيام بلياليها في بعض حروبه يضرب أعناق أسرى الحرب ومَن عثر عليه من الرعايا المسلمين، لأنَّه آلى أن يُجري نهرهم بدمائهم.

○ وأنَّ عدد القتلى كان ينوف على المائة ألف في غالب حروبهم.

○ وأنَّ جميع المسلمين خارج الحرمين - مكة والمدينة - قد ارتدَّوا عن دينهم

بعد النبي، وأنهم أُرْجِعُوا إلى الإسلام بحدّ السيف، إذاً فالإسلام قد انتشر بحدّ السيف وحده، وأن جيوش المسلمين كانت كجيوش هولاكو غلاظ الأكباد متوحّشة، وأن حروبهم كانت حروب إبادة وإفناء للبشرية.

(تتبعنا أحاديث سيف في الفتوح والردة فوجدنا تأثيرها على الموسوعات العلمية التي تبحث عن صدر الإسلام عظيماً، وقارناً بينها وبين غيرها من الأخبار فوجدنا الرجالين صادقين في وصفهم إياه بالكذب، وأمّا اتهامه بالزندقة فذلك ما ندرسه في كتاب «خمسون ومائة صحابي مختلف» التالي لهذا الكتاب إن شاء الله تَعَالَى، مع مناقشة أحاديثه في كتابه الآخر «الجمال ومسير عليّ وعائشة» الذي أورد فيه قصة عبدالله بن سبأ تعليلاً لما وقع من الفتن في عصر عثمان، ودفاعاً عن الولاة من آل أمية أمثال معاوية وعبدالله بن أبي سرح، وبياناً لسبب نقمة المسلمين على بني أمية في البلاد الإسلامية) ^(١).

وأضاف السيد العسكري في موضع آخر سبباً آخر حول انتشار أخبار سيف في كتب التاريخ الإسلامي، على الرغم من عدم خفاء الوضع والتزييف فيها، وهو أنّ سيفاً حلّى مفترياته بإطار من نشر مناقب الصحابة، فبذل العلماء وسعهم في نشرها وترويجها مع علمهم بكذبها.

ففي فتوح العراق مثلاً أورد مفترياته تحت شعار مناقب خالد بن الوليد، فقد وضع على لسان أبي بكر أنّه قال - بعد معركة أُليْس وهدم مدينة أمغيثيا - : (يا معشر قريش - يخبرهم بالذي أتاه - عدا أسدكم على

١. العسكري: عبدالله بن سبأ، ج ١، ص ٣١٩.

الأسد فغلبه على خراذيله^(١)، أعجزت النساء أن ينشئوا مثل خالد؟^(٢).

كما زين ما اختلق في معارك الردة بإطار من مناقب الخليفة أبي بكر، وكذلك فعل فيما روى واختلق عن فتوح الشام وإيران على عهد عمر، والفتن في عصر عثمان، ووقعة الجمل في عصر علي، فإنه زينها جميعاً بإطار من مناقب الصحابة، فراجت وشاعت ونُسيت الروايات الصحيحة - عدا روايات سيف - وأهملت، على أنه ليس في ما وضعه سيف واختلق - على الأغلب - فضيلة للصحابة، بل فيه مذمة لهم.

ولست أدري - قال العسكري - كيف خفي على هؤلاء أن جلب خالد عشرات الألوف من البشر وذبحهم على النهر ليجري نهرهم بدمائهم ليست فضيلة له، ولا هدمه مدينة أمغيشيا ولا نظائرها إلا على رأي الزنادقة في الحياة من أنها سجن للنور، وأنه ينبغي السعي في إنهاء الحياة لإنقاذ النور من سجنه.

والأنكى من ذلك أن سيفاً لم يكتف باختلاق روايات في ظاهرها مناقب للصحابة الحقيقيين ويدس فيها ما شاء لهدم الإسلام؛ بل اختلق صحابة للرسول لم يخلقهم الله، ووضع لهم ما شاء من كرامات وفتوح وشعر ومناقب كما شاء، معرفة منه بأن هؤلاء يتمسكون بكل ما فيه مناقب للصحابة كيف ما كان. فوضع واختلق ما شاء لهدم الإسلام. (ولم يخيب هؤلاء ظن سيف، وإنما روجوا مفترياته زهاء ثلاثة عشر قرناً! وقدمنا - بإذن الله ﷻ - إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً)^(٣).

١. الخراذيل: قطع اللحم.

٢. العسكري: عبد الله بن سبأ، ج ٢، ص ٩٨-٩٩.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣١٥.

ونهاية كلامه إشارة إلى مشاريع كتبه التي بيّن من خلالها المشروع التخريبي لسيف بن عمر، والفخ الذي نصبه لعدد من المؤرخين والجغرافيين وغيرهم ممن ذكرهم في طيّات كلامه.

أضيف بدوري - إلى ما سبق من أسباب - أن تلك الروايات التهويلية تتناسب مع الجرائم التي ارتكبت من قبل الحكام من آل أمية وآل العباس ضد خصومهم، فلا تصبح بذلك شاذة بعيدة عن الطابع العام لحروب المسلمين في العهد الإسلامي الأول، وفيهم صحابة رسول الله الذين تربّوا على يديه وخبروا أسلوبه في الحرب وكيفية التعامل مع الخصوم والأعداء مما بيّنت بعضه في كتابي «السيرة العسكرية لسيد المرسلين محمد ﷺ».

مقدّمة ضرورية



مقدمة ضرورية

قراءة السيرة النبوية الخاصة بالسنوات الأخيرة من حياته ﷺ مع التمعن في الآيات القرآنية النازلة في تلك الفترة والتي تعالج قضايا الجماعات التي دخلت في الإسلام متأخراً، لاسيما بعد فتح مكة، تقودنا إلى أنه من المنطقي حدوث حالات من الردة في تلك الجماعات. مع التأكيد على أن هذا لا يعني الموافقة على التصوير التقليدي القائل بحدوث ردة واسعة حتى قيل: ارتدت العرب قاطبة إلا أهل الحرمين والطائف.. كما مرَّ بنا من قبل، ولا على توحيد الدوافع ومن ثم الموقف ممن اعتُبروا مرتدّين.

فقراءة المشاهد المختلفة ضمن ما عُرف بأحداث الردة بعد وفاة النبي الأكرم ﷺ يكشف لنا أن المسألة أحياناً كانت:

- ردة حقيقية عن الإسلام مع ادّعاء النبوة من قبل قيادتها.
- ردة حقيقية عن الإسلام دون ادّعاء للنبوة.
- تمرّد سياسي أو إداري على الخلافة بالامتناع عن إيصال الصدقات «الزكاة».
- ردود فعل على بعض التصرفات الصادرة عن بعض القيادات الميدانية.
- تصرّفات فردية نابعة من سوء استغلال الخلل الأمني.

• أمثلة قرآنية :

ومن أمثلة الآيات القرآنية التي تصوّر نموذجاً ممّن دخل في الإسلام، ولم يتبنّ أسسه وتشريعاته بصورة حقيقية، ما في الآيات التالية: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ، قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١).

وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.... سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

وأيضاً قوله عزّ وجلّ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا

١. سورة الحجرات: ١٤-١٧.

٢. سورة التوبة: ٩٠-٩٨.

وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنْتَهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ
لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا، بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنَ
ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْظُرُ
بِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا، سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا
انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِنَأْخُذُوهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ
قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا
يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا، قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ
شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا
كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا^(١).

وبالطبع، فإن هذه المواقف التي وصفتها الآيات الشريفة لا تقتصر على
الأعراب، بل شملت بعض مَنْ كانوا من مَسْلَمَةِ فَتَحِ مَكَّةِ الْمُكْرَّمَةِ، وغيرهم من
أهل المدن والقرى، بما فيها المدينة المنورة.

وقد تحدثت سورة التوبة عن مواقف المنافقين بما لا مزيد عليه... ومن
المعلوم أن المنافقين كانوا يُظهرون الإسلام ويُبطنون خلاف ذلك، وبالتالي
فإن مواقفهم السلبية لو ظهرت بعد وفاة النبي ﷺ ضد الإسلام فستبدو
كنوع من الردة، وإن كانوا في حقيقة أمرهم لم يؤمنوا برسالة النبي ﷺ من
الأساس.

• مثال تاريخي:

ولنلاحظ على سبيل المثال النص التالي حول غزوة حنين، في اللحظات الحرجة التي شهدت هروب المسلمين من ساحة المعركة. قال ابن إسحاق: (فلما انهزم الناس، ورأى مَنْ كان مع رسول الله (ص) من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: ^(١) لا تنتهي هزيمتهم دون البحر! وإن الأزلام لعه في كنانته) ^(٢).

ومن الواضح أن العبارة الأخيرة تدل على تمسكه بعقيدته السابقة حيث يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ^(٣). والزُّلْمُ، والجمع الأزلام: هي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها طلباً للخيرة من الأوثان. ومثل أبي سفيان كثيرون.

• حقائق تاريخية مهمة:

فالحقائق التي يجب أخذها بعين الاعتبار كالتالي:

١. هناك أعداد ملحوظة من العرب قد دخلت في الإسلام على إثر تبدل ميزان القوة لصالح المسلمين، ومثل هؤلاء لا يُطمأن إلى إيمانهم.
٢. المدة الزمنية من حين دخول هؤلاء في الإسلام إلى حين وفاة النبي ﷺ - وهي أقل من عامين - لم تكن كافية لإزالة رواسب الجاهلية.

١. وكما هو معروف فقد أعلن إسلامه قبيل فتح مكة وحنين.

٢. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٤٤٣.

٣. سورة المائدة: ٩٠.

٣. هناك فئات تضررت من غلبة كفة الإسلام واضطرت إلى ممالأة ذلك الوضع الجديد، لأن الإسلام أرسى قواعد جديدة قوّضت مواقعها ومراكزها، ومن هنا تحيّت بعض تلك الفئات الفرصة للتخلص من التزاماتها الجديدة تجاه المدينة المنورة حيث عاصمة الإسلام.

٤. لا ينبغي أيضاً إغفال دور المنافقين في إغراء هذه الفئات أو بعضها للتمرد أو الردة.

٥. سورة التوبة النازلة في آخر شهر من السنة التاسعة، أي قبل وفاة النبي بسنة تقريباً، تحدثت عن وجود المشركين وأهل الكتاب والموقف من فئاتهم المختلفة، سواء المعاهدة المتربّصة التي تُضمّر للمسلمين السوء أو المعاهدة المسالمة، وهذا يعني أن الجزيرة العربية لم تخل منهم عند وفاته (ﷺ) وليس كما يُشاع بأن الجزيرة العربية قد خلت منهم تماماً.

قال عَزَّجَلَّ: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ.... إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَوْ فَاتَمَّوْا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ (١).

قال ابن عاشور في تفسير الآية الرابعة من سورة التوبة: (استثناء من المشركين في قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ «التوبة: ٣»، ومن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ «التوبة: ٣» لأن شأن الاستثناء إذا ورد عقب جُمْل أن يرجع إلى ما تحتويه جميعها مما

يصلح لذلك الاستثناء، فهو استثناء لهؤلاء: من حكم نقض العهد، ومن حكم الإنذار بالقتال، المترتب على النقض، فهذا الفريق من المشركين باقون على حرمة عهدهم وعلى السلم معهم... ومن هؤلاء: بنو ضَمرة، وحيان من بني كنانة: هم بنو جذيمة، وبنو الدَّيل. ولا شك أنهم ممن دخلوا في عهد الحديبية^(١).

علماً بأن عهد الحديبية ابتدأ في السنة السادسة للهجرة ولمدة عشر سنوات. وقد توفي النبي أول السنة الحادية عشرة. نعم، لو قبلنا بقول ابن عاشور بعد ذلك: (ثم إن قبائل العرب كلها رغبت في الإسلام فأسلموا في تلك المدة)^(٢) أي الأشهر الأربعة المذكورة في الآية الثانية، فهذا يعني أنه لم يعد للمشركين وجود في الجزيرة عند وفاة النبي ﷺ.

ولكن يبدو أن ابن عاشور قد أخطأ في هذه المعلومة، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس أنه قال: (يوم الخميس وما يوم الخميس! ثم بكى حتى خضب دمه الحصباء فقال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس)^(٣) فقال ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: هجر رسول الله ﷺ. قال: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه. وأوصى عند موته بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفاء بنحو ما كنت أجيزهم، ونسيت الثالثة)^(٤).

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، تفسير الآية ٤ من سورة التوبة.

٢. ابن عاشور: التحرير والتنوير، تفسير الآية ٤ من سورة التوبة.

٣. وهو آخر خميس في حياته حيث توفي بعده بأربعة أيام.

٤. البخاري: صحيح البخاري، ح ٢٨٨٨.

وهذا يعني أن المشركين ما زالوا فيها، بل لم يُخرجهم الخليفة أبوبكر أيضاً، وبرّر ذلك بأنه كان منشغلاً فترة خلافته بحروب الردة، ولأن فترة خلافته كانت قصيرة. كما لم يُخرجهم الخليفة عمر، وبرّر ذلك بانشغاله بالفتوحات خارج جزيرة العرب.

وقد وجه سؤال حول الموضوع لعبد الرحمن بن عبد الله السحيم، عضو مركز الدعوة والإرشاد بالرياض: (لماذا لم يُخرج كلاً من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما المشركين من جزيرة العرب؟). فأجاب بإجابات لم يُنكر فيها وجودهم عند وفاة النبي ﷺ ^(١).

ويؤيد ما ذهبنا إليه قول المحقق السيد العسكري في هذه النقطة: (انتشر خبر موت النبي في الجزيرة العربية، وسكانها العرب على قسمين: منهم من كان قد أسلم قبل ذلك، ومنهم من بقي على دينه) ^(٢).

وسيمّر علينا خلال عرض حروب الردة عدة موارد تذكر وجود العرب المشركين ممن لم يدخل في الإسلام من الأساس، وما زالوا قاطنين في الجزيرة العربية.

• إخراج غير المسلمين من الجزيرة:

وهذا يفتح لنا باب البحث في مسألة فقهية عادت لتُطرح بقوة حيث تكرر استعمالها في الخطاب الإعلامي لتنظيم القاعدة وأخواتها، وهي مسألة إخراج غير المسلمين من جزيرة العرب، إذ لا يجوز - بحسبهم - أن يجتمع

١. www.saaaid.net/Doat/assuhaim/fatwa/287.htm

٢. العسكري: عبد الله بن سبأ، ج ١، ص ١٦٩.

فيها دينان... فهل الأمر كما قالوا^(١)؟ المعروف بين الفقهاء المسلمين - سنة وشيعة - هو الحكم بعدم استيطان جزيرة العرب من قبل المشركين خاصة، أو مع أهل الكتاب، ولو كانوا أهل ذمة. وهذا يستدعي لزوم إلغاء ظاهرة توطن غير المسلم فيها. وتتفرع عن هذا مسألة زيارتهم هذه الأراضي ولو مجردة عن غرض الاستيطان، بل للسياحة أو التجارة. كما وتتفرع عنها مسألة دخولهم إليها مروراً «ترانزيت». وأفتى البعض بوجوب نبش قبر أحدهم لو دُفن فيها.

ولم يخالف في أصل هذه المسألة إلا بعض قليل من الفقهاء استشكل فيها، مثل السيد أبو القاسم الخوئي. واستند المؤيدون على مجموعة من النصوص، من أهمها: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾^(٢). ولكن إن كان المراد من قوله عز وجل: ﴿مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي مكان الإخراج، فهذا سيحصر الأمر في مكة المكرمة، وإن كان المراد: أخرجوهم لأنهم أخرجوكم، فلن تكون للآية علاقة بالمسألة، لأنها ستكون خاصة بالذين فعلوا ذلك ولا تشمل الأجيال اللاحقة.

النص الآخر الذي استدل به على المطلب ما رُوي عن أم سلمة: (أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته: يُخْرَجَ الْيَهُودُ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ)^(٣). وروى مثله الهيثمي في مجمع الزوائد^(٤) وذكر أن رجاله رجال الصحيح.

١. الجواب الفقهي الآتي عبارة عن مختصر لدراسة فقهية استدلالية كتبها الشيخ حيدر حب الله، منشورة على موقعه الرسمي: hobbollah.com.

٢. سورة البقرة: ١٩١.

٣. الطوسي: الأمالي، ح ٥٢.

٤. ج ٥، ص ٣٢٥.

ويضاف إليه ما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ في الحديث الذي مرّ علينا سابقاً حول رزية الخميس: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب). ويمكن التعليق على رواية الشيخ الطوسي بأنها ضعيفة السند، مع ملاحظة أن الروایتين عند أهل السنة صحيحتان بحسب مبانيهم الرجالية.

واستدل أيضاً بخبر ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (لا يجتمع دينان في جزيرة العرب)^(١)، وفي مرسل عمر بن عبد العزيز: (لا يبقين دينان بأرض العرب)^(٢). وورد الخبر بالفاظ أخرى في مصادر أخرى عند أهل السنة.

وعن الإمام الصادق عليه السلام في مصدر من مصادر الإسماعيليين وبلا سند أنه قال: (لا يدخل أهل الذمة الحرم، ولا دار الهجرة، ويُخرجون منهما)^(٣).

وعن علي بن جعفر العريضي، عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام، قال: (وسألته عن اليهودي والنصراني والمجوسي، هل يصلح أن يسكنوا في دار الهجرة؟ قال عليه السلام: أما أن يلبثوا فيها فلا يصلح، وقال: إن نزلوا نهراً ويخرجوا منها بالليل فلا بأس)^(٤). والرواية غير تامة السند.

وقد ناقش الشيخ حيدر حب الله النصوص السابقة وأدلة أخرى سنداً وممتناً، وقال في ختام البحث: (إننا نشكك في أصل الحكم بإخراج الكفار من جزيرة العرب أو بلاد الحجاز، وفاقاً للسيد الخوئي ولأستاذنا السيد محمود الهاشمي. نعم، مكة المكرمة أمرٌ يمكن القبول به في دائرة

١. الصنعاني: المصنّف، ج ١٠، ص ٣٥٩-٣٦٠.

٢. مالك بن أنس: الموطأ، ج ٢، ص ٨٩٢-٨٩٣.

٣. القاضي النعمان: دعائم الإسلام، ج ١، ص ٢٨١.

٤. الطوسي: تهذيب الأحكام، ج ٨، ص ٢٧٧.

المشركين؛ انطلاقاً من قوله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿..فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا..﴾** ^(١) ... ثانياً: لو سلم الحكم ^(٢) فهو خاصّ بالمشركين، وليس شاملاً لأهل الكتاب. ثالثاً: المقدار المتيقّن من المساحة الجغرافية المحظورة هو بلاد الحجاز، أمّا غيرها فمشكوك، ومقتضى الأصل عدم الحظر. رابعاً: المقدار المتيقّن هو استيطانهم بلاد الجزيرة، وأمّا مطلق الزيارة أو المرور أو الدفن فلا دليل عليه، نعم دخول المشركين إلى المسجد الحرام ممنوع مطلقاً ^(٣).

وأما تاريخياً فقد ذكر ابن القيم أن الخليفة عمر تولى الخلافة فترك يهود خيبر في خيبر، ونصارى نجران في نجران، ومجوس هجر في هجر، واشتغل بقتال الكفار في خارج جزيرة العرب، وهؤلاء على أماكنهم في جزيرة العرب، ولم يُخرج عمر منهم إلا يهود خيبر لما نقضوا العهد وتعدّوا على ابنه عبد الله، فزحزحهم إلى تيماء، ونصارى نجران لما أخلفوا شرط الصلح مع النبي ﷺ الذي شرط عليهم عدم التعامل بالربا، فأجلاهم عمر لما خالفوا ذلك، وأبقى يهود اليمن فهم باقون إلى يومنا هذا، ومجوس الأحساء حتى أسلموا واندمجوا مع المسلمين ولم تعد لهم باقية ^(٤).

١. سورة التوبة: ٢٨.

٢. أي بالإخراج من جزيرة العرب أو الحجاز فقط.

٣. حب الله: إخراج غير المسلم من الجزيرة العربية - دراسة فقهية استدلالية، منشورة على موقعه الرسمي: hobbollah.com.

٤. ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ١٧٥-١٩١.

مشاهد الرّدة : المشهد الأول رّدة طليحة وعُيينة



مشاهد الردّة

المشهد الأول: ردّة طليحة وعُيينة

من خلال المقارنة التي قدّمناها في فصلٍ سابق بين روايات سيف بن عمر التميمي وغيره من الرواة الذين نقلوا إلينا صورتين غير متفقتين لتفاصيل أحداث الفتوحات الإسلامية من جهة، وحرب الجمل من جهة أخرى، ننطلق لنضيف إليها هنا الوصف المقارن لتفاصيل حروب الردة التي لم تسلم بدورها من التزوير والتحريف والاختلاق والتهويل الذي اعتمده سيف في مروياته عن قصد وسوء نية.

وعليه، فسيكون عرضنا للأحداث والتفاصيل مقارناً بين مرويات سيف ومرويات الآخرين، ولا سيما البلاذري في فتوح البلدان، مع فرز الحالات التي كانت تمثل ردّة حقيقية أو غير ذلك.

وإذ اشتملت الأخبار المروية عن سيف بن عمر على الكثير من التفاصيل والتشابك في الأحداث، لذا سنعمل على إعادة صياغتها بصورة مشاهد متتالية مع الاختصار ما أمكن، معتمدين في نقلنا على ما رواه الطبري في تاريخه عن سيف.

• عند غير سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:



□ من المرتدّين:

اسمه حذيفة ولقب بعيينة لأنه أصيب في وجهه فجحظت عيناه. أسلم بعد فتح مكة أو قبل ذلك بقليل. شهد غزوة حنين وكان من المؤلفة قلوبهم، ومن الأعراب الجفاة وله عدة مواقف غير محمودّة، ومنها ارتداده بعد وفاة النبي.

هو أخو عيينة. أسلم مع جمع من قزارة بعد عودة النبي من تبوك، ثم ارتد بعد وفاة رسول الله.

١. طليحة الأسدي^(١).

٢. عيينة بن حصن الفزاري.

٣. خارجة بن حصن الفزاري.

٤. ٧٠٠ رجل من بني قزارة.

٥. جماعات من الأعراب

١. تعرّضنا لشخصيته مسبقاً.

مجموعة كبيرة من القبائل العدنانية من قبيلة هوازن المضرية. منازل بني عامر الأصلية: مناطق الرماح ورنية والخُرمة وبيشة على حدود نجد الجنوبية مع الحجاز. من فروع بني عامر: بنو كلاب.

من بني عامر وسُليم
وهوازن، وقد ارتدّوا ولكن
لم يقاتلوا.

٦. بنو كعب، وفيهم قُرّة بن
هُبيرة القُشيري الشاعر.

□ من المسلمين:

١. أسامة بن زيد.

٢. خالد بن الوليد.

٣. طلحة بن عبيدالله.

٤. عدي بن حاتم الطائي.

٥. أسلم وغفار ومزينة
وأشجع وجهينة وكعب
وطيء.

■ أحداث هذا المشهد:

من مجموع ما رواه الطبري في
تاريخه من أحداث هذا المشهد عن
هشام بن محمد بن السائب الكلبي،
وما رواه البُنسي في كتابه «الاكتفا
في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء»

قال عنه الذهبي في سير أعلام
النبلاء: (الإمام العلامة الحافظ
المجود الأديب البليغ شيخ الحديث
والبلاغة بالأندلس... ولد سنة خمس
وستين وخمسائة. وكان من كبار أئمة
الحديث). «ت ٦٣٤ هـ».



يمكن تصور الأحداث كالتالي:

لما رجع أسامة بن زيد ومَن كان معه إلى المدينة، جدَّ أبو بكر في حرب أهل الردة، وخرج بمائة من المهاجرين والأنصار - وهو فيهم - وخالد بن الوليد يحمل لواءه حتى نزل «بذي القصة» منتظراً أن ينضم إليه آخرون تبعاً. وفي الأثناء أقبل خازجة الفزاري في خيل من بني قومه يريد أن يخذل الناس عن الخروج من المدينة أو يصيب غرة، فأغار على أبي بكر ومَن معه وهم غافلون.

اقتتل الطرفان شيئاً من قتال، وتراجع المسلمون، ولاذ أبو بكر بشجرة، فصعد طلحة بن عبيد الله على مكان مرتفع وصاح بأعلى صوته مخادعاً: لا بأس! هذه الخيل!

فهرب الغزاة، وقتل منهم رجل بضربة رمح من طلحة. ثم انضم إلى

المسلمين أربعمائة مقاتل من جهينة، وجاءوا بمائة من الإبل لتحمل المقاتلين المسلمين. وكان الخليفة أبو بكر قد طلب المدد من أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وكعب يأمرهم بالجهاد.

رجع الخليفة إلى المدينة، وسار خالد بن الوليد باتجاه «بُزَاخَة» حتى إذا دنا من المرتدين المتجمّعين فيها، بعث اثنين من قواته ليستطلعوا الأمور.. ولكن لم يلبثا أن قُتلا.

انصرف خالد نحو مساكن طيء - القرية من بُزَاخَة - باستدعاء من عَدي بن حاتم، أملاً في تجميع المزيد من الأنصار من طيء، فلما تم ذلك، توجه المسلمون نحو المرتدين في بُزَاخَة، ووقع القتال.

قاتل عيينة مع طليحة في سبعمائة من بني فزارة قتالاً شديداً، وطليحة متلف في كساء له بفناء بيت له من شعر، يتنبأ لهم، والناس يقتتلون. فلما هزت عيينة الحرب، كرّ على طليحة فقال: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: لا.

فرجع فقاتل حتى إذا اشتد القتال كرّ عليه فقال: لا أبا لك، أجماء جبريل بعد؟ قال: لا والله.

قال عيينة: حتى متى؟ قد والله بلغ منا. ثم رجع فقاتل حتى إذا بلغ، كرّ عليه فقال: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: نعم.

قال: فماذا قال لك؟

قال: قال لي: إن لك رَحاً كَرَحاه، وحديثاً لا تنساه.

فقال عيينة: أظن أن قد علم الله أنه سيكون حديثٌ لا تنساه يا بني
فزارة هكذا، فانصرفوا فهذا والله كذاب.

فانصرفوا، وانهزم الناس، فغشوا طليحة يقولون: ماذا تأمرنا؟
وقد كان طليحة أعدّ فرسه عنده وهياً بغيراً لامرأته «النوّار» فقام فوثب
على فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها وقال: مَنْ استطاع منكم أن يفعل مثل
ما فعلت وينجو بأهله فليفعل.

وبهذا ينتهي مشهد الردّة الخاص بطليحة الأسدي ومن التفّ حوله، وفق
روايات المؤرّخين الذين لم يعتمدوا على مرويات سيف بن عمر، أو الذين
سبقوه عهداً.

• عند سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:

□ من المرتدّين:

١. طليحة الأسدي.

٢. أخوه حبال الأسدي.

٣. علقمة بن علاثة.

٤. قبائل أسد وغطفان وطيء

وغيرها وكلها تحت إمرة

طليحة. واستثنى البعض من

هذه القبائل إذ لم يرتدوا.

٥. قبائل مُرّة وعَبَس وناس من

علقمة بن علاثة الكلابي «ت ٢٠ هـ».
كان من فرسان العرب وساداتهم في
الجاهلية. ارتدّ والتحق بقيصر الروم
ثم اختلف معه وعاد مسلماً. عيّنه
الخليفة عمر على مدينة حوران في
الشام وبقي والياً عليها إلى وفاته.

بني كنانة وليث والدليل ومدلج وذبيان وبنو عامر بن صعصعة.

□ من المسلمين:

١. الخليفة أبو بكر.

٢. العباس بن عبدالمطلب.

٣. خالد بن الوليد.

٤. علي بن أبي طالب.

٥. الزبير بن العوام.

٦. طلحة بن عبيدالله.

٧. عبدالله بن مسعود.

٨. النعمان بن مقرن المزني.

٩. عمرو بن العاص

١٠. عكرمة بن أبي جهل

المخزومي.

١١. المهاجر بن أبي أمية المخزومي، أخو السيدة أم سلمة.

١٢. خالد بن سعيد بن العاص الأموي.

١٣. حذيفة بن المحسن الغلفاني من الأزد من أهل عمان.

١٤. عرفة بن هزيمة البارق.

١٥. شرحبيل بن حسنة.

١٦. طريف بن حجاز السلمي.

١٧. القعقاع بن عمرو التميمي «شخصية اختلقها سيف».

أمير قبيلة مَزِينَة التي كانت
تسكن قريباً من المدينة المنورة.
أول مشاهده الأحزاب، وشهد بيعة
الرضوان. «ت ٢١ هـ».

١٨. سويد بن مقرّن.

١٩. العلاء الحضرمي.

■ أحداث هذا المشهد:

اجتمع بنو أسد في منطقة سَمِراء التي تقع على بعد ١٢٠ كم تقريباً جنوب مدينة حائل حيث قبيلة طيء. واجتمع بنو فزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة، وهي قرية تقع بالقرب من «زُرود» شمال غرب مدينة حائل.

واجتمعت قبيلة طيء على حدود أرضهم^(١)، واجتمعت قبيلة ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مُرّة وعَبَس وناس من بني كنانة في منطقة الأبرق من الرَبْذة^(٢).

وقد وصف سيف بمبالغة كبيرة جداً عدد المرتدّين قائلاً: (لم تحملهم البلاد، فافترقوا فرقتين، فأقامت فرقة منهم بالأبرق،

١. أي منطقة حائل حالياً.

٢. الرَبْذة في نجد، وأما أبرق الرَبْذة فيبدو أنها منطقة اختلقها سيف.

سويد بن مقرّن المزني، صحابي شهد بيعة الشجرة، وقبيلة مَزَيْنَة قبيلة عدنانية مضرية. كانت تنزل بالقرب من يثرب على الطريق الممتدة بين المدينة المنورة ومكة المكرمة. وقد سيدها النعمان بن مقرّن على رسول الله مع أربعمئة من رجالها معلنين إسلامهم، وكان يوماً مشهوداً إذ لم يسبق أن حدث شيء كهذا من قبل. وروي أن ذلك كان في سنة جدب، وقد قدم بما لديه من غنيمات وقدمها للنبي تقرّباً إلى الله. وقد روي أن الآية ٩٩ من سورة التوبة التي تمتدح بعض الأعراب قد نزلت فيهم بالذات.

صحابي من المهاجرين «ت ٢١ هـ»، وأصله من حضرموت في اليمن وقد استوطن والده مكة وحالف بني أمية. يُعد من كتّاب الوحي. بعثه النبي إلى البحرين حاملاً رسالته إلى المنذر بن ساوي العبيدي نسبة إلى بني عبد القيس.

وسارت الأخرى إلى ذي القصة^(١). وأرسل طليحة أخاه - واسمه «حبال» - ليقود تجمع المرتدين المتواجدين في منطقة ذي القصة. وبعث المرتدون وفوداً فقدموا المدينة فنزلوا على الشخصيات الكبرى فيها، فاستضافوهم، بينما رفض العباس عم النبي أن يستقبل أحداً منهم^(٢).

ثم توجهت وفود المرتدين مع بعض شخصيات المدينة إلى الخليفة أبي بكر باقتراح حلّ وسط، بأن يقيموا الصلاة، وعلى ألا يؤتوا الزكاة، فرفض الخليفة العرض وقال: (لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه.... فردّهم)^(٣).

وهكذا رجعت وفود المرتدين تُخبر عشائرها بما جرى، وتطمعها باستمرار الردّة وتحقيق النصر نتيجة قلة عدد المسلمين في المدينة. وكان هذا بعد قرابة شهرين من بعث أسامة بن زيد باتجاه مؤتة.

أما في المدينة فقد عين الخليفة أبو بكر على أنقاب المدينة^(٤) نفرأ، هم: علي والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود، وتحت إمرتهم أعداد من المسلمين. اجتمع الخليفة بأهل المدينة في المسجد وقال لهم: (إن الأرض كافرة! وقد رأى وفدكم قلة، وإنكم لا تدرون أليلاً تؤتون أم نهاراً، وأدناهم منكم على برّيد^(٥))، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم،

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٥٤.

٢. يبدو أن سيفاً لم يُرد أن يغضب العباسيين خلفاء ذلك العصر، أو جعل ذلك طعماً لرواياته عندهم.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٥٥.

٤. أي الثغور التي يمكن أن يقتحم من خلالها الأعداء.

٥. أي ٢٢ كم تقريباً.

وقد أبينا عليهم ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدّوا^(١). صدق حدس الخليفة، إذ لم تمض ثلاثة أيام حتى أغارت على المدينة ليلاً فرقة من المرتدين، وتركوا وراءهم فرقة أخرى مختبئة على بُعد من المدينة تنتظر دورها في المواجهة المحتملة. وتفاجأ المرتدون بوجود المسلمين على الأنقاب، فهربوا، باتجاه الفرقة الأخرى، ولحق بهم المسلمون راكبين إبلهم.

ما إن وصل المسلمون إلى حيث توجد الفرقة المختبئة حتى تفاجأوا بالكمين، حيث عمد العدو إلى إعداد كميات من الأنحاء المنفوخة^(٢)، وجعلوا فيها الحبال ثم دحرجوها، فنفرت إبل المسلمين خوفاً من الأنحاء، وعادت مسرعة باتجاه المدينة، دون أن يُصاب أحد من المسلمين بسوء.

بعثت تلك الفرقة من المرتدين الخبر إلى مَنْ كانوا بذى القصة من سائر المرتدين، فقدموا عليهم مناصرين ظانين بأن بالمسلمين ضعفاً شديداً سيمكّنهم من الانتصار عليهم.

بات الخليفة أبوبكر في المدينة يتهيأ لمعاودة الهجوم على المرتدين، وخرج مع جموع المسلمين وفاجأوا العدو فجراً. قال سيف: (فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد، فما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم، فما ذر^(٣) قرن الشمس حتى ولّوهم الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم، وقتل حبال^(٤) واتبعهم

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٥٥.

٢. النّحي: زق السمن، أي أنهم صنعوا ما يشبه الكرات الكبيرة.

٣. أي طلع.

٤. أخو طليحة.

أبو بكر حتى نزل بذي القصة وكان أول الفتح، ووضع بها النعمان بن مُقَرَّن في عدد، ورجع إلى المدينة. فذل بها المشركون) ^(١).

وعلى إثر ذلك، قرّر المرتدّون الانتقام، فقتل بنو عبس وبنو ذبيان أفراد قبائلهم من المسلمين كل قتلّة! وفعلت سائر قبائل المرتدّين فعلتهم! قال سيف: (وحلف أبو بكر ليقتلن في المشركين كل قتلّة وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة) ^(٢)!

بعد ذلك بأيام، عاد أسامة بن زيد ورفقاؤه من غزوتهم، فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وأخذ ما كان معهم من الإبل للركوب عليها، وقرر مجدداً الخروج بنفسه، مستعيناً بمن خرج معه من قبل ومن كانوا على أنقاب المدينة.. ولكن هذه المرة إلى أبرق الربذة. حاول المسلمون جَهدهم أن يُثَنّوه عن عزمه خوفاً عليه، فرفض، وقال: (لا والله لا أفعل، ولأؤاسينكم بنفسي) ^(٣).

وهكذا، وصل الخليفة ومن معه من المسلمين إلى أبرق الربذة ووقع القتال، فانتصر المسلمون، وقتل من المرتدّين من قُتل وهرب منهم من هرب.

أقام أبو بكر على أبرق الربذة أياماً، وأصدر قراراً بمنع بني ذبيان المرتدين من العودة إلى المنطقة وكانت مساكنهم، فقد أصبحت من غنائم المسلمين، وعاد بدوره إلى المدينة. أما فلول المرتدّين من بني عبس وذبيان فقد اتّجهت نحو بُزَاخَة حيث يتواجد طليحة الأسدي بعد أن ترك منطقة سَمِراء.

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٥٥-٢٥٦.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٥٦.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٥٦.

تبعاً لهذه الانتصارات، صارت الصدقات ^(١) تَرِدُ المدينة تبعاً وبكثرة، كعلامة على ترجّح الكفة لصالح المسلمين بعد أن امتنع كثيرون عن إخراجها من قبل.

بعد أن استراح أسامة بن زيد ومن معه، خرج الخليفة أبوبكر ومعه المسلمون ونزلوا بذِي الْقَصَّة، فعقد فيها أحد عشر لواءً، ووجّه قادتها في الاتجاهات المختلفة من الجزيرة العربية حيثما شهدت حالات من الردّة بحسب زعم سيف.

وتلك الألوية هي:

- لواء خالد بن الوليد وأمره أن يتجه لقتال طليحة الأسدي.
- وعقد لواء آخر لعكرمة بن أبي جهل، وأمره أن يقاتل مسيلمة الحنفي في اليمامة.
- ولواء آخر للمهاجر بن أبي أمية، وأمره أن يقاتل أنصار الأسود العنسي، وأن يمضي إلى كندة بحضرموت.
- واللواء الرابع لخالد بن سعيد بن العاص، ليتوجه إلى الحمّقتين ^(٢).
- أما الخامس فلعمرو بن العاص ووجهه إلى حيث اجتمعت قبائل قضاة ووديعة والحارث.

١. أي الزكوات وهي عادة من الإبل.

٢. يبدو أن هذه المنطقة من مختلقات سيف، فعندما نراجع معجم البلدان نجده لا يزيد على قوله: (الحمّقتان: قال سيف: عقد أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لخالد بن سعيد بن العاص وكان قدم من اليمن وترك عمله وبعثه إلى الحمّقتين من مشارف الشّام). «الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٠٥». فالمصدر سيف دون سواه، ولا تحديد للموقع نهائياً.

قال الأصمعي عن دبا: (سوق من أسواق العرب بعمّان). وهي منطقة ساحلية تنقسم سياسياً إلى ثلاثة أقسام: ولاية دبا الحصن، تتبع لإمارة الشارقة، ودبا الفجيرة، تتبع لإمارة الفجيرة، ودبا البيعة، تتبع محافظة مسندم في سلطنة عمان.

مَهْرَة هي أقصى محافظة في الشرق من الجمهورية اليمنية، وتشكل الحدود الشرقية مع سلطنة عمان.

○ والسادس لحذيفة بن محصن الغلفاني، وأمره بأهل دَبَا.

○ واللواء السابع لعرفجة بن هرثمة وأمره بِمَهْرَة.

○ والثامن لشرحبيل بن حَسَنَة وأمره أبوبكر أن يلحق بعكرمة بن أبي جهل معاوناً.

○ واللواء التاسع لطُريفة بن حاجز، وأمره بقتال قومه بني سُليم ومن معهم من هوازن.

○ والعاشر لسويد بن مُقرن، وأمره بتهامة اليمن.

○ أما اللواء الأخير فعقده للعلاء الحضرمي، وأمره بالتوجه إلى المرتدين في البحرين.

وهكذا انطلقت الألوية، وحمل قادتها رسالة من الخليفة إلى المرتدين، وذكر سيف مضمون تلك الرسالة الموحدة والطويلة فهي مكونة من ٤٩٦ كلمة بحسب ما أحصيت، ثم ألحقها بعهد طويل للقادة تضمن ٢٢٨ كلمة! وسيأتي معنا لاحقاً أن لا أحد سوى سيف ذكر هذه الرسالة وهذا العهد، لذا فيبدو أنهما من ضمن مختلقاته أيضاً!

وفي بُزَاخَة، أرسل طليحة إلى فرعين من طيء «جَدِيلَة والغوث» طالباً المدد، فتعجّلوا النصرَة، إلا أن أبا بكر وجّه إليهم عدي بن حاتم الطائي فقتلهم. كما أشاع الخليفة أنه متوجه إلى خيبر ومنها إلى حيث تتواجد طيء المرتدة، فخافوا وقعدوا عن إرسال المزيد من رجالاتهم إلى طليحة، وقَدِمَ عليهم عدي فدعاهم، فقالوا: لا نبائع أبا الفصيل أبداً.

فقال لهم عدي: لقد أتاكم قوم ليبيحن حريمكم، ولتكننّه أبا الفحل الأكبر^(١).

اقتنع القوم بكلام عدي، وطلبوا منه أن يستقبل الجيش ويمنع خالداً من التقدّم نحوهم، أملاً في استرجاع مَنْ لحق من قومهم بطليحة.

وبهذا، استقبل عديّ خالداً وأقنعه بالفكرة، وتم إنقاذ أحد فرعي طيء «الغوث» بانسحابهم من جيش طليحة. وأراد خالد أن يسير إلى الفرع الآخر «جَدِيلَة»، فاستمهله عديّ، وذهب إليهم فأقنعتهم وباعوه ورجع بخبر إسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب.

توجه خالد بعد ذلك إلى بُزَاخَة، فخاف أنصار طليحة وطلبوا الأمان، فأمنهم خالد. وأما طليحة فقد هرب حتى نزل عند بني كلب على النقع^(٢) حين بلغه لاحقاً أن أسداً وغطفان وعامراً قد تابوا وعادوا إلى الإسلام، ثم ما لبث أن أعلن طليحة توبته وإسلامه، وبقي مقيماً في بني كلب، حتى مات الخليفة أبو بكر.

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٠.

٢. قال الحموي: (النقع: موضع قرب مكة في جنبات الطائف). فطليحة بحسب رواية سيف نزل على بعض بني كلب القضاعيين القاطنين في تلك المنطقة القريبة من مكة.

ثم تحدث سيف عن ردّة بني عامر بن صعصعة، وترددها في أمرها، متخوّفة من مواجهة المسلمين كما ذكر ذلك غيره، ولذا فإنها ترقّبت مصير سائر المرتدّين.

أما الخليفة أبوبكر فبعث سرية، وأمّر عليها الصحابي الوهمي القعقاع بن عمرو التميمي، فخرج في تلك السرية حتى أغار على الماء الذي عليه سيدهم علقمة، وفرّ، وترك زوجته وأبناءه وسائر نسائه، فأخذوا أسرى إلى المدينة وأنكروا ردّتهم، فأطلق سراحهم، وتاب علقمة وأعلن إسلامه، فقبل ذلك منه. وأقبلت بنو عامر بعد الهزيمة التي وقعت لبني أسد وغطفان في بُزّاخة وأعلنوا توبّتهم وعودتهم إلى الإسلام، فبايعهم خالد بن الوليد على ذلك، ولكنه شرط عليهم تسليم الأفراد الذي ارتكبوا - حال ردّتهم - جرائم بحق المسلمين حرقاً وتمثيلاً وعدواناً. تم تسليم أولئك الأفراد إليه، فقسمهم إلى قسمين، الأول منهما: (أحرقهم بالنيران، ورضخهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكّسهم في الآبار، وخزق بالنبال)^(١)، وأما القسم الثاني فأوثقهم وبعث بهم إلى أبي بكر أسرى، وكتب كتاباً يُعلمه فيه بما جرى.

كتب أبو بكر بدوره رسالة جوابية إلى خالد، ومما جاء فيها بعد التهنئة والدعاء له والدعوة للتقوى: (ولا تظفروا بأحد قتل المسلمين إلا قتلته، ونكّلت به غيره! ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن في ذلك صلاحاً فاقتله!)^(٢).

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٥.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٥.

بهذا الذي ادّعاه سيف في روايته، أعطي خالد الضوء الأخضر للانتقام، فتردّد على تلك المنطقة يتصيد من أراد من المرتدين: (فمنهم من أحرق، ومنهم من قمّطه ورصّخه بالحجارة، ومنهم من رمى به من رؤوس الجبال) ^(١).

ربط سيف بين ظُفر والحوأب في هذا الخبر وبحروب الردة ليبري أم المؤمنين عائشة من إخبار النبي حين حذر زوجاته من نباح كلاب الحوأب كما سنتحدث عنه لاحقاً، فنسبه إلى امرأة فزارية مرتدة سيذكرها ضمن التفاصيل المختلقة للأحداث.

ثم تجمعت فلول الهاربين من طيء ومن سائر القبائل المرتدة ممن لم تُتب، لتشكّل قوة جديدة، وانتقلت إلى منطقة ظُفر. وفي هذه المنطقة ادّعى سيف أن القبائل اتّحدت تحت راية امرأة تُعرف بأُم زمل أو أم قرفة الصغرى.. فمن هي؟

■ عودة إلى الوراء:

لا بد أن نعود قليلاً إلى الوراء، إلى شهر رمضان من السنة السادسة للهجرة بالتحديد، حيث روى الطبري رواية غريبة جداً، قال: (وفيها سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة في شهر رمضان، وفيها قُتلت أم قرفة، وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر، قتلها قتلاً عنيفاً، ربط برجليها حبلاً ثم ربطها بين بعيرين، حتى شقّاها شقاً، وكانت عجوزاً كبيرة!) ^(٢).

وبغض النظر عن قتلها وهي عجوز، وفي شهر رمضان، وبهذه الطريقة الوحشية التي لم تتم حتى مع أشرس أعداء الإسلام، ما يجعلنا نرسم الكثير من علامات الاستفهام حول القضية، نتساءل: ما جريمتها التي استحققت من

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٥.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ١٢٧.

خلالها هكذا عقوبة؟ يقدّم لنا الطبري الإجابة حيث يروي لنا الخبر التالي الذي لا نشكّ من خلال تفاصيله أنه مجرد اختلاق: (بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى وادي القرى، فلقي به بني فزارة، فأصيب به أناس من أصحابه، وارتث زيدٌ من بين القتلى، وأصيب فيها... فلما قدّم زيد، نذر ألا يمس رأسه غسلٌ من جنابة حتى يغزو فزارة!

فلما استبّل من جراحه، بعثه رسول الله ﷺ في جيش إلى بني فزارة، فلقيهم بوادي القرى، فأصاب فيهم... وأسّر أم قرفة، وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر، وكانت عند مالك بن حذيفة بن بدر^(١) عجوذاً كبيرة وبنثاً لها وعبدالله بن مسعدة، فأمر زيد بن حارثة قيس بن المسحر أن يقتل أم قرفة، فقتلها قتلاً عنيفاً، ربط برجليها حبلين، ثم ربطهما إلى بعيرين، حتى شقاها! ثم قدموا على رسول الله ﷺ بابنة أم قرفة وبعبده بن مسعدة، وكانت ابنة أم قرفة لسلمة بن عمرو بن الأكوع^(٢) كان هو الذي أصابها، وكانت في بيت شرف من قومها، كانت العرب تقول: "لو كنت أعزّ من أم قرفة ما زدت". فسألها رسول الله ﷺ^(٣) فوهبها له، فأهداها لخاله حزن بن أبي وهب^(٤)، فولدت له عبدالرحمن بن حزن^(٥).

١. أي أنها كانت زوجة مالك.

٢. أي غنيمة له.

٣. أي طلب من سلمة أن يهبها له.

٤. لا يُعلم للنبي خال بهذا الاسم! وحزن هذا من بني مخزوم، ويبدو أن الراوي مختلق القصة كان من الجهالة بحيث خلط بين أم النبي ﷺ السيدة آمنة بنت وهب وهي من بني زهرة، وبين حزن بن أبي وهب وهو من بني مخزوم، وذلك بسبب وجود الاسم «وهب»، فافتضح... هكذا كتبت أحياناً السيرة النبوية.

٥. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ١٢٧.

ولم يكتف الطبري بالرواية الفضيحة السابقة بل أضاف أخرى، فقال:
 (وأما الرواية الأخرى عن سلمة بن الأكوع في هذه السرية، أن أميرها كان
 أبا بكر بن أبي قحافة..... عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: أمر رسول
 الله ﷺ علينا أبا بكر، فغزونا ناساً من بني فزارة، فلما دنونا من الماء، أمرنا
 أبوبكر فعرّسنا^(١) فلما صلينا الصبح، أمرنا أبو بكر، فشئنا الغارة عليهم^(٢)
 قال: فورّدنا الماء، فقتلنا به من قتلنا. قال: فأبصرت عنقاً من الناس، وفيهم
 النساء والذراري، قد كادوا يسبقون إلى الجبل، فطرحْتُ سهماً بينهم وبين
 الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئتُ بهم أسوقهم إلى أبي بكر، وفيهم
 امرأة من بني فزارة، عليها قشعُ آدم^(٣) معها ابنة لها، من أحسن العرب^(٤).
 قال: فنفلني أبو بكر ابنتها. قال: فقدمتُ المدينة فلقيني رسول الله ﷺ
 بالسوق فقال: يا سلمة، لله أبوك، هب لي المرأة!

فقلت: يا رسول الله، والله لقد أعجبتني، وما كشفتُ لها ثوباً^(٥).

قال: فسَكَتَ عني حتى إذا كان من الغد لقيني في السوق فقال: يا سلمة،
 لله أبوك، هب لي المرأة^(٦)!

فقلت: يا رسول الله، والله ما كشفتُ لها ثوباً، وهي لك يا رسول الله.

١. أي بتنا ليلتنا.

٢. مما يوهن هذه الرواية أيضاً أن النبي ﷺ كان يوصي دائماً بعدم الإغارة والغدر، ثم لماذا هذه الغزوة؟ وهل كان المسلمون كالجاهليين يغزون من أجل القتل والغنيمة؟

٣. القشع: الجلود اليابسة. والأدم: الجلد.

٤. أي من أجملهن.

٥. أي لم يلمسها إلى الآن.

٦. ما أوقع هذه القاص الذي اختلق هذه الرواية بحيث يصوّر النبي بهذه الدناءة.

قال: فبعث بها رسول الله إلى مكة، ففادى بها أسارى من المسلمين كانوا في أيدي المشركين^(١).

وكأن الراوي أراد أن يخفف من وقع مضمون الخبر بفظائعه على طريقة الغاية تبرر الوسيلة. والذي يبدو أن أصل القضية هي كما رواها ابن حجر في «فتح الباري»، حيث كان هذا الفرع من هذه القبيلة من قُطّاع الطريق، وقد استعانت قريش بأمثالهم للضغط على المسلمين في حركتهم التجارية والرعية والأمنية في المنطقة، حيث عقدت معهم تحالفات في مقابل بعض الميزة والامتيازات. وقامت هذه المجموعة بقطع الطريق على زيد بن حارثة حين خرج في تجارة، ونهبت القافلة، واعتدت عليه بالضرب.

قال ابن حجر: (والغزوة السابعة - غزوة زيد بن حارثة - إلى ناس من بني فزارة، وكان خرج قبلها في تجارة، فخرج عليه ناس من بني فزارة، فأخذوا ما معه وضربوه، فجّهزه النبي ﷺ إليهم، فأوقع بهم، وقتل أم قرفة - بكسر القاف وسكون الراء بعدها فاء - وهي: فاطمة بنت ربيعة بن بدر، زوج مالك بن حذيفة بن بدر، عم عيينة بن حصن بن حذيفة، وكانت معظمة فيهم)^(٢).

وأما الذهبي فقدّم صورة مغايرة لما جرى حيث روى عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: (أتانا زيد بن حارثة، فقام إليه رسول الله ﷺ يجرّ ثوبه^(٣) فقبل وجهه. وكانت أم قرفة جهّزت أربعين راكباً من ولدها وولّد ولدها إلى رسول

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ١٢٧.

٢. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، في شرح الحديث برقم ٤٠٠٤.

٣. تعبيراً عن الاستعجال والمبادرة لأمر مهم.

الله ﷺ ليقَاتلوه، فأرسل إليهم زيداً فقتلهم، وقتلها، وأرسل بدرعها إلى النبي ﷺ فنصبه بالمدينة بين رَمحين^(١).

وسواء أكانت رواية ابن حجر هي الصحيحة أو رواية الذهبي، أو الجمع بينهما بحدوث قطع للطريق ثم محاولة العدوان على المدينة على طريقة الغارات المفاجئة، فإن المسألة تبقى في هذه الحدود ولا تتجاوزها لتتحول إلى ممارسة وحشية بشق جسد العجوز والتنافس على ابنتها الجميلة!

ولكن للأسف، فقد قُدم لنا تاريخ الصدر الأول للإسلام بهذه الصورة المشوّهة، سواء فيما يخص العهد النبوي أو في حروب الردة، أو في الفتوحات، وما سلوك الإرهابيين التكفيريين في هذا العصر عن هذه الصور التاريخية ببعيد.

والغريب في هذه القضية، أن قريحة القصّاصين والرواة الكذابين لم تهدأ عند هذا الحد، فرووا عن أم المؤمنين عائشة أن تلك الفتاة الجميلة المسيّبة «أم زمل / أم قرفة الصغرى» لم توهب من النبي لخاله المزعوم، ولا لقريش فداءً لبعض أسرى المسلمين - ولا نعلم عن أي أسرى يتحدثون، والقصة تعود إلى العام الهجري السادس ولا أسرى للمسلمين في مكة - بل وهبها لها! لأم المؤمنين.. تخيلوا أن يهب النبي جارية بهذا الجمال لأم المؤمنين عائشة وهي التي عُرف عنها غيرتها الشديدة على النبي ﷺ.

قال عمر رضا كحالة: (سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر الفزارية: كانت عزيزة في أهلها كأُمها أم قرفة بنت ربيعة، فسُبيت في صدر الإسلام، ووُهبَت لعائشة أم المؤمنين فأعتقتها، ثم رجعت إلى قومها وارتدت بعد

١. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ح ٢٢٨.

وفاة النبي ﷺ فيمن ارتد^(١). وقد أخذ كحالة هذه التفاصيل عن رواية سيف بن عمر! قال سيف: (وكانت قد سُبيت أيام أمّ قرفة، فوقعت لعائشة^(٢) فأعتقتهَا، فكانت تكون عندها، ثم رجعت إلى قومها)^(٣). فكيف قدّم لنا سيف خبر ردّتها؟

■ عودة إلى رواية سيف:

والآن، نعود إلى سيف لنعرف كيف قدّم لنا خبر ردة أمّ زمل، ابنة أمّ قرفة، ضمن أحداث حروب الردة على عهد الخليفة أبي بكر، ولنعرف كيف اختلق هذه القصة لتبرئة أم المؤمنين عائشة من كونها المقصودة في إخبار النبي حول زوجته التي ستنبحها كلاب الحوآب.

قال سيف: (.... فاجتمعت تلك الفلال إلى سلمى، وكانت في مثل عزٍّ أمّها، وعندها جملُ أمّ قرفة، فنزلوا إليها، فذمّرتهم^(٤) وأمرتهم بالحرب، وصعدت سائرة فيهم، وصوّبت تدعوهم إلى حرب خالد، حتى اجتمعوا لها وتشجّعوا على ذلك، وتأشّب^(٥) إليهم الشُّرداء من كل جانب، وكانت قد سُبيت أيام أمّ قرفة، فوقعت لعائشة، فأعتقتهَا، فكانت تكون عندها، ثم رجعت إلى قومها. وقد كان النبي ﷺ دخل عليهن يوماً فقال: إنّ إحدكن تستنبح كلاب الحوآب! ففعلت سلمى ذلك حين ارتدت وطلبت بذلك الثأر.

١. كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج٢، ص٢٥٢.

٢. أي صارت أمة عندها نتيجة السبي.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٥.

٤. أي شجعهم.

٥. أي اجتمع.

فَسِيرَتْ فِيمَا بَيْنَ ظَفَرِ وَالْحَوَابِ لِتَجْمَعَ إِلَيْهَا، فَتَجْمَعُ إِلَيْهَا كُلُّ فُلٍّ وَمُضَيِّقٍ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْأَحْيَاءِ مِنْ غَطْفَانٍ وَهَوَازِنَ وَسَلِيمٍ وَأَسَدٍ وَطِيءٍ^(١).

نتوقف هنا قليلاً لنعلق على المقطع الأخير الذي يكشف لنا خبايا نفس سيف حين اختلق هذه القصة. فقد تبين بوضوح أن الغرض من افتعال هذه الأحداث تبرئة أم المؤمنين عائشة من قضية كلاب الحوَاب التي حذر منها النبي ﷺ زوجاته... فما هي قضية كلاب الحوَاب؟

■ خبر كلاب الحوَاب:

على موقع «الإسلام سؤال وجواب» على شبكة الإنترنت تحت إشراف الشيخ محمد صالح المنجد، السؤال ٢٤٠٣٥٩: (ما صحة هذا الحديث، والمراد منه؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنِسَائِهِ: «لَيْتَ شَعْرِي أَيْتُكُنَّ صَاحِبَةَ الْجَمَلِ الْأَدَبِ تَخْرُجُ فَيَنْبَحُهَا كَلَابُ حَوَابٍ، فَيُقْتَلُ عَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ يَسَارِهَا قَتْلًا كَثِيرًا، ثُمَّ تَنْجُو بَعْدَ مَا كَادَتْ». الجواب: الحمد لله.

روى الإمام أحمد - ٢٤٦٥٤.

وابن حبان - ٦٧٣٢.

والحاكم - ٤٦١٣.

وابن أبي شيبة - ٥٣٦ / ٧. واللفظ له عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: «لَمَّا بَلَغَتْ عَائِشَةُ بَعْضَ مَيَاهِ بَنِي عَامِرٍ لَيْلًا نَبَحَتْ الْكَلَابُ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: أَيُّ مَاءٍ هَذَا؟ قَالُوا: مَاءُ الْحَوَابِ، فَوَقَفَتْ فَقَالَتْ: مَا أَظْنُنِي إِلَّا رَاجِعَةً، فَقَالَ لَهَا طَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ: مَهْلًا رَحِمَكَ اللَّهُ، بَلْ تَقْدَمِينَ، فِيرَاكَ الْمُسْلِمُونَ، فَيُصْلِحُ

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٥.

اللَّهُ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، قَالَتْ: مَا أَظُنُّنِي إِلَّا رَاجِعَةً، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ: كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوَّابِ.

والحديث صححه ابن كثير في «البداية والنهاية» - ٢١٢/٦ على شرط الشيخين.

وكذا صححه محققو المسند.

والألباني في الصحيحة ٤٧٤ على شرط الشيخين.

وصححه الذهبي في «السير» - ٤٥٣/٣.

والحافظ ابن حجر في «الفتح» - ٥٥/١٣. وقال: «وسنده على شرط الصحيح».

وقال الهيثمي في «المجمع» - ٢٣٤ / ٧ -: «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو يَعْلَى، وَالْبَزَارُ، وَرِجَالُ أَحْمَدَ رِجَالُ الصَّحِيحِ».

ورواه الضياء في «المختارة»^(١) - ١٧٩.

والبزار - كما في «البداية والنهاية» - ٢١٢/٦ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عِنْدَ أَزْوَاجِهِ: «لَيْتَ شِعْرِي، أَيُّتُكُنَّ صَاحِبَةَ الْجَمَلِ الْأَدَبِ، تَخْرُجُ فَيَنْبَحُهَا كِلَابُ حَوَّابٍ، يُقْتَلُ عَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ يَسَارِهَا قَتْلَى كَثِيرٌ، ثُمَّ تَنْجُو بَعْدَ مَا كَادَتْ».

وقال الحافظ في «الفتح»^(٢) - ٥٥/١٣: «رجالها ثقات».

وكذا قال الهيثمي في «المجمع» - ٢٣٤/٧.

١. أي ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي «ت ٦٤٢ هـ» في كتابه «الأحاديث المختارة».

٢. أي ابن حجر في كتابه «فتح الباري شرح صحيح البخاري».

وصحّحه الألباني في «الصحيحة» - ٨٥٣/١.

والحوّاب: قال ابن الأثير رحمه الله: «مَنْزِلَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْبَصْرَةِ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَتْهُ عَائِشَةُ لَمَّا جَاءَتْ إِلَى الْبَصْرَةِ فِي وَقْعَةِ الْجَمَلِ». انتهى من «النهاية» ^(١) - ٤٥٦/١.

والجَمَلُ الْأَدَبُ: أراد الْأَدَبُ، فَأَظْهَرَ التَّضْعِيفَ، وَالْأَدَبُ: هُوَ الْكَثِيرُ الْوَبَرُ؛ وَقِيلَ: الْكَثِيرُ وَبَرِ الْوَجْهِ، لِيُوزَنَ بِهِ الْحَوَّابُ. قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: جَمَلٌ أَدَبٌ: كَثِيرُ الدَّبَبِ. «لسان العرب» - ٣٧٣/١.

والحاصل: أنه لما وقعت الفتنة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه واختلف الناس، خرجت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها للإصلاح بينهم، فلما وصلت إلى هذا المكان الذي يسمى «الحوّاب» نبحتها الكلاب، فلما سألت عن اسم المكان، فأخبروها: تذكرت حديث رسول الله ﷺ الذي يخبر فيه عن إحدى زوجاته، أنها تنبّحها كلاب الحوّاب وأنه يُقتل حولها قتلى كثير، وتنجو هي بعد أن كادت ألا تنجو، وفي هذا خبر عن حصول الفتنة، ووقوع المقتلة بين المسلمين. فعزّمت على الرجوع؛ إذ لا يحسن بها أن تكون طرفاً في الفتنة، أو سبباً في المقتلة، من قريب أو بعيد، فألحوا عليها في مواصلة السير؛ عسى الله أن يصلح بها بين الناس، فكان ما كان.

وقد ثبت عنها رضي الله عنها بعد ذلك أنها ندمت على هذا الخروج. قال الذهبي رحمه الله: «رَوَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسٍ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ وَكَانَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا أَنْ تُدْفِنَ فِي بَيْتِهَا، فَقَالَتْ: إِنِّي أَحْدَثْتُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدَثًا، أَدْفِنُونِي مَعَ أَزْوَاجِهِ. فَدُفِنْتُ بِالْبَقِيعِ رضي الله عنه. قُلْتُ: تَعْنِي

١. أي انتهت العبارة المنقولة من كتاب «البداية والنهاية».

بالحديث: مَسِيرُهَا يَوْمَ الْجَمَلِ؛ فَإِنَّهَا نَدِمَتْ نَدَامَةً كَلِيَّةً وَتَابَتْ مِنْ ذَلِكَ، عَلَى أَنَّهَا مَا فَعَلَتْ ذَلِكَ إِلَّا مُتَاوَلَةً قَاصِدَةً لِلْخَيْرِ، كَمَا اجْتَهَدَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْكِبَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْجَمِيعِ». انتهى من «سير أعلام النبلاء» - ٤٦٢ / ٣.

وقال الزيلعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ عَلِيًّا كَانَ مُصِيبًا فِي قِتَالِ أَهْلِ الْجَمَلِ، وَهُمْ طَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَعَائِشَةُ، وَمَنْ مَعَهُمْ، وَأَهْلُ صَفِّينَ، وَهُمْ مُعَاوِيَةُ، وَعَسْكَرُهُ، وَقَدْ أَظْهَرَتْ عَائِشَةُ النَّدَمَ، كَمَا أَخْرَجَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ الْاِسْتِيعَابِ عَنْ ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ، قَالَ: «قَالَتْ عَائِشَةُ لِابْنِ عُمَرَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تَنْهَانِي عَنْ مَسِيرِي؟ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلًا غَلَبَ عَلَيْكَ - يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ - فَقَالَتْ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ نَهَيْتَنِي مَا خَرَجْتَ». انتهى من «نصب الراية» - ٦٩ / ٤.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ لَهَا: - تُقَاتِلِينَ عَلِيًّا وَأَنْتَ ظَالِمَةٌ لَهُ - فَهَذَا لَا يُعْرَفُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْعِلْمِ الْمُتَعَمِّدَةِ، وَلَا لَهُ إِسْنَادٌ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ بِالْمَوْضُوعَاتِ الْمَكْذُوبَاتِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، بَلْ هُوَ كَذِبٌ قَطْعًا، فَإِنَّ عَائِشَةَ لَمْ تُقَاتِلْ وَلَمْ تَخْرُجْ لِقِتَالِ، وَإِنَّمَا خَرَجَتْ لِقَصْدِ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَظَنَّتْ أَنَّ فِي خُرُوجِهَا مَصْلَحَةً لِلْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهَا فِيمَا بَعْدَ أَنْ تَرَكَ الْخُرُوجَ كَانَ أَوَّلَى، فَكَانَتْ إِذَا ذَكَرَتْ خُرُوجَهَا تَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ خِمَارَهَا. وَهَكَذَا عَامَّةُ السَّابِقِينَ نَدِمُوا عَلَى مَا دَخَلُوا فِيهِ مِنَ الْقِتَالِ، فَندِمَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَلَمْ يَكُنْ

يَوْمَ الْجَمَلِ لَهُؤُلَاءِ قَصْدٌ فِي الْأَقْتِتَالِ. وَلَكِنْ وَقَعَ الْأَقْتِتَالُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِمْ، فَإِنَّهُ لَمَّا تَرَأَسَلَ عَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، وَقَصَدُوا الْإِتْفَاقَ عَلَى الْمَصْلَحَةِ، وَأَنَّهُمْ إِذَا تَمَكَّنُوا طَلَبُوا قَتْلَ عُثْمَانَ أَهْلَ الْفِتْنَةِ، وَكَانَ عَلِيٌّ غَيْرَ رَاضٍ بِقَتْلِ عُثْمَانَ وَلَا مُعِينًا عَلَيْهِ، كَمَا كَانَ يَحْلِفُ فَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا قَتَلْتُ عُثْمَانَ وَلَا مَا لَأْتُ عَلَى قَتْلِهِ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْبَارُّ فِي يَمِينِهِ، فَخَشِيَ الْقَتْلَ أَنْ يَتَّفِقَ عَلِيٌّ مَعَهُمْ عَلَى إِمْسَاكِ الْقَتْلَةِ، فَحَمَلُوا عَلَى عَسْكَرِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، فَظَنَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَنَّ عَلِيًّا حَمَلَ عَلَيْهِمْ، فَحَمَلُوا دَفْعًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَظَنَ عَلِيٌّ أَنَّهُمْ حَمَلُوا عَلَيْهِ، فَحَمَلَ دَفْعًا عَنْ نَفْسِهِ، فَوَقَعَتِ الْفِتْنَةُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِمْ، وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رَاكِبَةٌ: لَا قَاتِلَتْ، وَلَا أَمَرَتْ بِالْقِتَالِ، هَكَذَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِالْأَخْبَارِ. انتهى من «منهاج السنة» - ٣١٦/٤ - ٣١٧. واللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَعْلَمُ^(١).

ويأتي كلام ابن تيمية هذا كعادته انفعالاً بعيداً عن التحقيق العلمي، كما صدر مثله عن بعض علماء أهل السنة وكتّابهم، وهو ما بيّنه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» حيث قال بعد أن جاء ببعض ألفاظ خبر الحوَاب: (وعلى هذا فالحديث من أصح الأحاديث، ولذلك تتابع الأئمة على تصحيحه قديماً وحديثاً).

ثم بدأ يذكر أسماء بعض أئمة الحديث الذين رووا الخبر ثم قال: (إلا أن العلامة القاضي أبا بكر بن العربي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢) جاء في كتابه «العواصم من

١. almunajjid.com ورقم السؤال ٢٤٠٣٥٩ ولأسف فقد تم حذفه من الموقع لاحقاً.

٢. ذكرت في بحوث سابقة موقف القاضي ابن العربي من ثورة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَام حيث ذكر أن قتل الحسين تم بسيف جده رسول الله ﷺ، وهو ما يكشف لنا عن النفسية والعقليات التي انطلق من خلالها في كتابة ما كتب.

القواصم»، كلام قد يدل ظاهره أنه يذهب إلى إنكار هذا الحديث، ويبالغ في ذلك أشد المبالغة).

وبعد أن جاء بكلامه وعلّق عليه قال: (ولعل عذره في ذلك أنه حين قال ذلك لم يكن مستحضراً للحديث أنه وارد في شيء من المصادر، بل لعله لم يكن قد اطلع عليها أصلاً، فقد ثبت عن غير واحد من العلماء المغاربة أنه لم يكن عندهم علم ببعض الأصول الهامة من تأليف المشاركة... ولكن إذا كان ما ذكرته من العذر محتملاً بالنسبة إلى أبي بكر بن العربي فما هو عذر الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب الذي علّق على كلمة ابن العربي في «العاصمة»^(١) بقوله: «... وأن الكلام الذي نسبوه إلى النبي ﷺ وزعموا أن عائشة ذكرته عند وصولهم إلى ذلك الماء ليس له موضع في دواوين السنة المعتبرة ...»!

كذا قال، وكأنه عفى الله عنا وعنه، لم يتعب نفسه في البحث عن الحديث في دواوين السنة المعتبرة، بل وفي بعض كتب التاريخ المعتمدة مثل «البداية» لابن كثير، لو أنه فعل هذا على الأقل، لعرف موضع الحديث في تلك الدواوين المعتبرة أو بعضها على الأقل، ولكنه أخذ يُحسن الظن بابن العربي ويقلده، فوقع في إنكار هذا الحديث الصحيح، وذلك من شؤم التقليد بغير حجة ولا برهان. بيد أن هذا مع بُعد عن الصواب والانحراف عن التحقيق العلمي الصحيح، فإنه هيّن بجانب قول صديقنا الأستاذ سعيد الأفغاني في تعليقه على قول الحافظ الذهبي المتقدم في «سير النبلاء»: «هذا حديث صحيح الإسناد».

١. أي في نفس الكتاب السابق العواصم من القواصم.

فماذا قال سعيد الأفغاني واستنكره الألباني؟ قال: («في النفس من صحة هذا الحديث شيء، ولأمر ما أهمله أصحاب الصحاح، وفي معجم البلدان مادة - حوَب - أن صاحبة الخطاب سلمى بنت مالك الفزارية وكانت سبيّة وهبت لعائشة، وهي المقصودة بخطاب الرسول الذي زعموه، وقد ارتدت مع طليحة، وقُتلت في حروب الردة، ومن العجيب أن يصرف بعض الناس هذه القصة إلى السيدة عائشة إرضاءً لبعض الأهواء العصبية»).

وردّ عليه الألباني بعدة مؤاخذات واعتراضات ومن بينها: (وثوقه بما جاء في معجم البلدان بدون إسناد، ومؤلفه ليس من أهل العلم بالحديث، وعدم وثوقه بمسند الإمام أحمد، وقد ساق الحديث بالسند الصحيح، ولا بتصحيح الحافظ النقاد الذهبي له!!)

الرابعة: جزمه أن صاحبة الخطاب سلمى بنت مالك بدون حجة ولا برهان، سوى الثقة العمياء بمؤلف المعجم، وقد أشرنا إلى حاله في هذا الميدان، وبمثل هذه الثقة لا يجوز أن يقال قال رسول الله ﷺ لسلمى بنت مالك كذا وكذا!!

الخامسة: إن الخبر الذي ذكره ووثق به لا يصح من قبل إسناده، بل واهٍ جداً، فقد قال الأستاذ الخطيب بعد الذي نقلناه عنه أنفاً من الكلام على هذا الحديث، «ولو كنا نستجيز نقل الأخبار الواهية لنقلنا في معارضة هذا الخبر خبراً آخر نقله ياقوت في معجم البلدان، مادة حوَاب، عن سيف بن عمر التميمي أن المنبوحة من كلاب الحوَاب هي أم زمل سلمى... وهذا الخبر ضعيف، والخبر الذي أوردوه عن عائشة أوهى منه». كذا قال!).

ثم ألحق الألباني تعجبه بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

وقال الألباني بعد عدة تعليقات: (وجملة القول أن الحديث صحيح الإسناد، ولا إشكال في متنه، خلافاً لظن الأستاذ الأفغاني، فإن غاية ما فيه أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما علمت بالحوأب كان عليها أن ترجع، والحديث يدل أنها لم ترجع! وهذا مما لا يليق أن يُنسب لأم المؤمنين. وجوابنا على ذلك أنه ليس كل ما يقع من الكُمل يكون لائقاً بهم، إذ لا عصمة إلا لله وحده. والسني لا ينبغي له أن يغالي فيمن يحترمه حتى يرفعه إلى مصاف الأئمة الشيعة المعصومين!

ولا نشك أن خروج أم المؤمنين كان خطأ من أصله، ولذلك همّت بالرجوع حين علمت بتحقق نبوة النبي ﷺ عند الحوأب، ولكن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقنعها بترك الرجوع بقوله «عسى الله أن يصلح بك بين الناس». ولا نشك أنه كان مخطئاً في ذلك أيضاً.

والعقل يقطع بأنه لا مناص من القول بتخطئة إحدى الطائفتين المتقاتلتين اللتين وقع فيهما مئات القتلى، ولا شك أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا المخطئة لأسباب كثيرة وأدلة واضحة، ومنها ندمها على خروجها، وذلك هو اللائق بفضلها وكمالها، وذلك مما يدل على أن خطأها من الخطأ المغفور بل (المأجور)^(٢).

١. سورة التوبة: ١٠٢.

٢. ، ١، ص ٨٤٦-٨٥٥.

■ مع رواية سيف من جديد:

نعود مرة أخرى إلى تفاصيل خبر ردّة أمّ زَمَل بحسب رواية سيف بن عمر، وقد وصلنا إلى حيث تجمّعت فلول المرتدين الهاربين من المواجهات المختلفة التي جرت في الجزيرة العربية، ليتجمّعوا عن أمّ زَمَل الفزارية، قال: (فلما بلغ ذلك خالداً وهو فيما هو فيه من تتبع الثأر^(١) وأخذ الصدقة ودعاء الناس وتسكينهم، سار إلى المرأة وقد استكتف أمرها وغلظ شأنها، فنزل عليها وعلى جماعها، فاقتلوا قتالاً شديداً وهي واقفة على جمل أمها وفي مثل عزها، وكان يُقال: مَنْ نَخَسَ جَمَلَهَا فَلَهُ مِائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ! لعزها^(٢) وأبهرت يومئذ بيوتات من جاس^(٣) - جاس حي من غنم، وهاربة وغنم^(٤) - وأصيب في أناس من كاهل، وكان قتالهم شديداً حتى اجتمع على الجمل فوارس فعقروه، وقتلوا، وقُتل حولَ جملها مائة رجل، وبعث بالفتح، فقدم على أثر قُرّة^(٥) بنحو من عشرين ليلة^(٦)).

وهكذا انتهت - بحسب رواية سيف - أحداث ردّة طليحة وأسد وغطفان وهوازن وفزارة وغيرها من القبائل.

١. وقد تحدثنا كيف مكث شهراً يتصيد المرتدين ويحرقهم ووووو.....

٢. لاحظ محاولة إدخال جزء من صورة أحداث معركة الجمل ووضع أم المؤمنين عائشة حينئذ وأهمية الجمل الذي كانت تركبه في ذلك اليوم ضمن تصوير مختلق لأحداث هذه الحرب مع المرتدين، وهو إمعان متعمد من قبل سيف في تحريف التاريخ.

٣. أي أبهرت بيوتات أيضاً من قبيلتي هاربة وغنم.

٤. الاستدراك من الطبري.

٥. أي بعد قُرّة بن هُبيرة القُشيري الشاعر.

٦. الطبري: تاريخ لأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٥.

• المقارنة بين الروايتين:

- من خلال العرض السابق للنموذجين، اتضح لنا أسلوب سيف في تقديم المشهد الأول لحروب الردة ويتلخص ذلك في التالي:
- تهويل وتضخيم الأحداث والأرقام.
 - اختلاق الشخصيات كالقعقاع.
 - اختلاق الأحداث كردة أم زمل والخرجات المتعددة للخليفة.
 - اختلاق الأمكنة كأبرق الربذة.
 - خلط الأوراق التاريخية للدفاع عن بعض الشخصيات.

المشهد الثاني ردّة الفجاءة السُّلَمي



المشهد الثاني

ردّة الفجاءة السُّلَمي

ذكر سيف وابن إسحاق والبلاذري وآخرون خبرَ الفجاءة السُّلَمي، فهو بالتالي ليس من تفرّدات سيف. فهل ارتد الرجل فعلاً؟ أم كان قاطع طريق؟ أم امتنع عن إيصال الزكاة إلى المدينة وأعادها إلى أصحابها؟

• عند غير سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:

□ من المرتدّين:

الفجاءة لقب، واسمه بحسب البلاذري بُجير بن إياس بن عبد الله السُّلَمي، وبحسب سيف فإن اسمه: إياس بن عبد الله بن عبد ياليل السُّلَمي، من بني سُليم.

١. الفجاءة السُّلَمي: عيّنه

النبي على صدقات بني سُليم، قال البيهقي: (وكان رسول الله ﷺ بعث عدي فلما بلغهم وفاة النبي ﷺ وعندهم أموال كثيرة ردّوها على

أهلها، إلا عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر فإنهما تمسّكا بها ودفعا عنها الناس حتى أدياها إلى أبي بكر رضي الله عنه)^(١).

١. البيهقي: السنن الكبرى، ح ١٢٩٢٤.



والملاحظ فيما سبق أسماء بعض قادة المرتدين في حروب الردة، وهم: «طليحة وعيينة»، بالإضافة إلى «الفجاءة» الذي نبحت بشأنه، ولم نحسم أمره هل كان مرتداً أم غير ذلك، وكذلك نجد معهم مالك بن نويرة الذي سيتبين لنا لاحقاً أنه لم يرتد بحسب المعطيات الصحيحة، وأنَّ جُلَّ ما قام به هو منع إيصال الزكوات «الإبل» إلى مقر الخلافة في المدينة المنورة، دون أن يخون الأمانة. وفي نهاية المطاف فإنَّ جميع من ذُكروا في القائمة كانوا في الأساس سادات أقوامهم، وقد جعلهم النبي مسؤولين عن الصدقات فيهم.

٢. نجبة بن أبي الميثاء من بني الشريد (مجهول الحال)

□ من المسلمين:

١. الخليفة أبوبكر.

٢. طريفة بن حازمة «أو حازم»

■ أحداث هذا المشهد:

بحسب البلاذري فإنّ الفجاءة وفد على الخليفة أبي بكر، فقال: (احملي وقوّني أقاتل المرتدين) ^(١).

صدّق الخليفة الفجاءة فحمّله وأعطاه سلاحاً. وبدلاً من أن يلتزم بكلامه، استغلّ الفجاءة الأوضاع الأمنية المتردّية، فصار يعترض الناس فيقتل المسلمين والمتردين، وجمع جمعاً من الناس حوله يعينونه على ذلك.

كتب أبو بكر إلى طريفة بن حازمة أخي معن بن حازمة يأمره بقتاله. فقاتله وأسره ابن حازمة. فبعث طريفةً بالفجاءة إلى أبي بكر (فأمر أبو بكر بإحراقه في ناحية المصلى) ^(٢). هذا كل ما في الحدث، ولا أثر في هذه الرواية إلى ردّة وقعت من الفجاءة، بل كان مجرماً قاطع طريق.

ويؤكد ذلك رواية الطبري عن ابن إسحاق أن الفجاءة بمعونة نجبة بن أبي الميثاء (قد استعرض الناس، المسلم والمترد، يأخذ أموالهم ويقتل من خالفه منهم) ^(٣). وأنه لما رأى الفجاءة من المسلمين الجد قال لطريفة: (والله ما أنت بأولى بالأمر مني، أنت أمير لأبي بكر، وأنا أميره. فقال له طريفة: إن كنت صادقاً فضع السلاح وانطلق معي إلى أبي بكر) ^(٤).

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١١٧.

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١١٧. ولعل المصلى هنا هو موقع مسجد الغمامة الذي اتخذهُ النبي ﷺ مصلى للجمعة والعيد لما ازداد عدد المسلمين في أواخر عهده، ولم يعد المسجد يستوعبهم، وقد كان مجرد سراحة ترابية مكشوفة.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٦.

٤. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٦.



قَبْلَ الفجاءة بالاقتراح، وتوجه معه إلى المدينة، فقال الخليفة لطريفة بن حازم: (اخرُجْ به إلى هذا البقيع فحرِّقه فيه بالنار)^(١)! وفعلاً، خرج به طريفة إلى المصلّى، فأوقد له ناراً فقذفه فيها.

وذهابه إلى الخليفة يدلُّ على أنه لم يترد، بل تصرّف كصاحب قوة معيّن من قبل الخليفة وأساء استعمال السلطة.

• عند سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:

□ من المرتدّين:

١. الفجاءة السُّلَمي.

٢. نجبة بن أبي الميثاء من بني الشريد

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٦.

□ من المسلمين:

١. طريفة بن حاجر.

٢. عبدالله بن قيس الجاسي. (مجهول ولعله شخصية مختلفة)

■ أحداث هذا المشهد:

بحسب سيف، فقد قَدِمَ الفجاءة على أبي بكر أثناء حروب الردة وعرض عليه المساعدة، وأن يُعينه بالسلاح، ثم فليأمره بالتوجه لقتال من شاء.

صدّق الخليفة كلام الفجاءة، فأعطاه سلاحاً، ووجّهه للقتال في اتجاه محدد. إلا أن الفجاءة صادقاً في كلامه، لذا فإنه نزل في أرض تُعرف باسم «الجواء»^(١)، وبدأ بتنفيذ خطته، حيث قام بإرسال خبر إلى نجبة بن أبي الميثاء، يطلب فيه أن يعينه على شن الغارات على المسلمين من بني سليم وعامر وهوازن.

علم الخليفة بما جرى، فأرسل إلى طريفة بن حاجر يأمره أن يجمع له، وأن يسير إليه بمعية عبدالله بن قيس الجاسي. توجه القائدان نحو ديار الفجاءة، ووقع القتال، فقتل نجبة وهرب الفجاءة، ولكنه سرعان ما وقع في الأسر، جيء به إلى أبي بكر فأمر فأوقد له ناراً في مصلى المدينة على حطب كثير، ثم رُمي به فيها مقموطاً^(٢)!

وقد روى محدّثو أهل السنة أن الخليفة أبابكر ندم آخر حياته على أمور ثلاثة، من بينها تحريق الفجاءة، ومن مصادر هذا الخبر ما في كنز العمال:

١. تقع حالياً على بعد حوالي ٢٠ كم عن مدينة بريدة في الشمال الغربي من القصيم.

٢. أي مشدود اليدين والرجلين.

(عن عبد الرحمن بن عوف: أن أبا بكر الصديق قال له في مرض موته: إني لا آسي^(١) على شيء إلا على ثلاث فعلتھن، وددت أني لم أفعلھن، وثلاث لم أفعلھن وددت أني فعلتھن، وثلاث وددت أني سألت رسول الله ﷺ عنھن، فأما اللاتي فعلتھا وددت أني لم أفعلھا: فوددت أني لم أكن أكشف بيت فاطمة وتركته وإن كانوا قد غلقوه على الحرب، ووددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين: أبي عبيدة بن الجراح أو عمر فكان أميراً وكنت وزيراً، ووددت حيث وجّھت خالداً إلى أهل الردة أقمتُ بذی القصّة، فإن ظهر المسلمون ظهوراً، وإلا كنتُ بصدد لقاء^(٢) أو مدد.

وأما الثلاث اللاتي تركتھن ووددت أني فعلتھن: فوددت أني يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً ضربتُ عنقه، فإنه يُخيلُ إليّ أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه، ووددت أني يوم أتيت بالفجاءة لم أكن أحرقته، وقتلتُه سريحاً أو أطلّقتُه نجيحاً^(٣)، ووددت أني حيث وجّھت خالداً إلى أهل الشام كنت وجّھتُ عمر إلى العراق، فأكون قد بسطتُ يدي يميناً وشمالاً في سبيل الله.

وأما الثلاث اللاتي وددت أني سألت عنھن رسول الله ﷺ: فوددت أني سألته فيمن هذا الأمر فلا ينازعه أهله، ووددت أني كنت سألته هل للأَنْصار في هذا الأمر شيء؟ ووددت أني كنت سألتُه عن ميراث العمّة وابنة الأخت فإن في نفسي منهما حاجة^(٤).

١. أي لا أحزن.

٢. مواجهة مع المرتدين وقتال.

٣. أي صابراً عليه لأرى ماذا يفعل بعد العفو عنه.

٤. المتقي الهندي: كنز العمال، ح ١٤١١٣.

وقد تناول فقهاء أهل السنة المسألة من ناحية شرعية وتاريخية، فمنهم من اعتبر أن مرتكب الجريمة يُعاقب بمثل جريمته، ولا بد أن الفجاءة قد أحرق أحداً من المسلمين، ولذا عاقبه الخليفة بالمثل، ومنهم من اعتبر أن الخبر غير صحيح من أساسه.

• المقارنة بين الروايتين:

لم تثبت ردّة الفجاءة بمعنى الخروج عن الإسلام والعودة إلى الدين السابق الذي كان يعتقد به، وبالتالي فإن اعتبار هذا المشهد من ضمن حروب الردة ليس بدقيق، وإن جاءت الأحداث ضمن أحداث الردة ومن إفرازاتها. ولم يستغرق سيف في قضيته كثيراً، ولم يطور فيها من وحي خيالاته كثيراً، ولعلّه وجد في مسألة الإحراق كفاية.

المشهد الثالث

دخول سجاد التميمية على الخط



المشهد الثالث

دخول سجاح التميمية على الخط

• عند غير سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:

□ من المرتدّين:

١. مسيلمة الحنفي.

٢. سجاح التميمية.

■ أحداث هذا المشهد:

أم صادر، سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان، التميمية، من بني يربوع «ت ٥٥ هـ تقريباً»، كانت وعشيرتها من سكان الجزيرة في شمال العراق «الموصل» في حمى بني تغلب، وكانت - وقومها - على النصرانية. وبالإضافة إلى ترهبها، كانت صاحبة شخصية قيادية، وقد أعلنت لاحقاً أنها نبيّة، فصدّقت، واتّبعتها قومها والتغليبيون.

ذكر البلاذري خبر سجاح كالتالي: (وتنبأت أم صادر سجاح وتكهنت فاتّبعها قومٌ من بني تميم، وقومٌ من أخوالها بني تغلب، ثم إنها سجّعت ذات يوم فقالت: «إنّ

ربّ السحاب، يأمركم أن تغزوا الرّباب»^(١)، فغزّتهم فهزموها، ولم يقاتلها

١. أي قبائل الرباب، هي قبائل من بني طابخة وهي خندفية مضرية عدنانية. ويلتقون مع بني تميم عند «أد بن طابخة».

أحدٌ غيرُهم، فأُتت مسيلمة الكذاب وهو بحَجْر^(١) فتزوجته، وجعلت دينها ودينه واحداً، فلما قُتل صارت إلى أخوالها، فماتت عندهم. وقال ابن الكلبي: أسلمت سجاح وهاجرت إلى البصرة وحسن إسلامها^(٢).

ووفق هذا النص، فهي ليست من المرتدّين، لأنها لم تُسلم في وقت حروب الردّة، وقبولها بدين مسيلمة ليس ردّة عن الإسلام، لأنها كانت نصرانية. كما أنّ قومها من بني تميم وأخوالها من بني تغلب كانوا يعيشون في العراق، ولم يُسلموا حتى يَرتدّوا.

• عند سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:

□ من المرتدّين:

١. مسيلمة الحنفي.
٢. سجاح التميمية.
٣. مالك بن نويرة (سنتحدث عنه في المشهد اللاحق)
٤. وكيع سيد بني مالك بن حنظلة التميمي (مجهول الحال)

■ أحداث هذا المشهد:

قسّم سيف موقف بني تميم في جزيرة العرب إلى ثلاثة أقسام شُغلوا ببعضهم البعض واتخذوا مواقف متعددة تجاه تسليم الزكوات:

١. مدينة في اليمامة وأمّ قراها.
٢. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١١٨.

○ الذين ثبتوا على الإسلام

○ المترددون

○ المرتدون

وبقي القوم كذلك إلى أن هجمت عليهم سجاح بنت الحارث مع عشيرتها وأخوالها التغلبيين الذين جاءوا من شمال العراق باتجاه اليمامة حيث يتواجد مسيلمة ومَن معه من المرتدين، فوصلوا إلى منطقة الحَزَن.

وبوصولها هناك، راسلت سجاح مالك بن نويرة ودعته إلى المواعدة فأجابها، ثم راسلت بني مالك بن حنظلة تدعوهم إلى المواعدة، فأجابها إلى ذلك سيدهم وكيع، فاجتمع الثلاثة واتفقوا على الغزو والنهب.

سقط إثر تلك الغزوات الكثير من القتلى، ثم توجهت نحو بني حنيفة في اليمامة، وبلغ ذلك مسيلمة

قال الحموي: (حَزَنٌ يَرْبُوعٌ: هو يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، قبيلة جرير، وهو قرب فَيْد.... وهي أطيب البادية مرعى). فَيْد مدينة تاريخية تقع إلى الجنوب الشرقي من منطقة حائل، وتعتبر أحد الأمكنة الأثرية التاريخية للمنطقة، إذ تحتزن جبالها نقوشاً تاريخية تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، فضلاً عن كونها محطة رئيسة في درب زبيدة حيث تقع في منتصف الطريق بين مكة وبغداد، وكانت مسجلة ضمن ولايات الخلافة العباسية وهي غنية بالآثار الإسلامية ولها أهمية ومكانة تاريخية. تبعد مدينة فيد عن حائل ٩٢ كم على الطريق السريع الذي يربط حائل بالقصيم، كما تبعد ١٦٠ كم عن القصيم.



فهابها، وخاف إن هو شُغل بها أن يُغلب من قبل القبائل المتربصة به. لذا أهدى مسيلمة لها هدية، ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يأتيها، فجاءها وافداً في أربعين من بني حنيفة.

تصالح الطرفان على أن يحمل إليها مسيلمة النصف من غلات اليمامة، فانصرفت راجعة إلى ديارها في العراق، وبقيت عند أخوالها من بني تغلب إلى سنة ٤٠ هـ حيث أخرجهم معاوية من الجزيرة، وأسكنهم الكوفة، فأسلمت وحسن إسلامها!

وفي رواية سيف من التفاصيل الساذجة والسخيفة والكلام البذيء والسَّجَع ما يجعلنا نردّها، أو نشك في الكثير من التفاصيل المنقولة فيها.

وعلى العموم عند هذا الحد، انتهى دور سجاح في أحداث حروب الردة بحسب رواية سيف.

• المقارنة بين الروايتين:

أقحم سيف سجاحاً في حروب الردّة من خلال عقدها لاتفاق الغزو مع بعض بني يربوع في الجزيرة العربية، وهو ما لم نجده عند غير سيف. ثم أقحمها في حروب الردة من خلال مهادنتها لمسيلمة وفتح الطريق له كي يستمر في أهدافه ضد الدولة الإسلامية المركزية، حيث رضيت بهداياه ثم عودتها إلى ديارها، بينما نجد أنها عند غير سيف قد استقرت معه في الإمامة من خلال زواجها به، ثم عودتها إلى ديارها بعد مقتل مسيلمة.

المشهد الرابع ردّة مالك بن نويرة



المشهد الرابع

ردّة مالك بن نويرة

مرّ بنا فيما سبق، ذكرُ مالك بن نويرة التميمي اليربوعي، وسنجد سيفاً ينبري لوضع قصة مُحكّمة لإيجاد مخرج لما ارتكبه خالد بن الوليد بحق مالك، وموقف الخليفة أبي بكر من ذلك وحقيقة ما جرى.

ولنتعرف على الأحداث أولاً برواية غير سيف، ثم نعرّج على رواية سيف عن ردّته.

• عند غير سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:

□ من المرتدّين:

١. مالك بن نويرة.

□ من المسلمين:

١. الخليفة أبو بكر.

٢. الخليفة عمر بن الخطاب.

٣. خالد بن الوليد.

٤. أبو قتادة الأنصاري.

٥. ضرار بن الأزور

٦. عبد بن الأزور الأسدي

(مجهول)

■ أحداث هذا المشهد:

كان مالك بن نويرة من سادات

بني يربوع من بني تميم، وصاحب

شرف رفيع وأريحية عالية بين العرب، حتى ضُرب به المثل في الشجاعة والكرم والمبادرة إلى إسداء المعروف وإعانة بالملهوف. كانت له الكلمة النافذة في قبيلته، حتى أنه لما أسلم ورجع إليهم وأخبرهم بإسلامه، وأعطاهم فكرة عن الدين الجديد، أسلموا على يديه جميعاً ولم يتخلف منهم رجل واحد. عيَّنه النبي ﷺ لقبض زكاة قومه كما مر معنا من قبل.

روى الطبري عن ابن إسحق: (أن أبا بكر من عهدِه إلى جيوشه أن إذا غشيتم داراً من دور الناس فسمعتهم فيها أذاناً للصلاة فأمسكوا عن أهلها حتى تسألوهم ما الذي نَقَمُوا^(١) وإن لم تسمعوا أذاناً فشنُّوا الغارة، فاقتلوا وحرِّقوا!)^(٢).

فماذا جرى في ديار مالك بن نويرة؟

قال ابن إسحق: (وكان ممن شهد لمالك بالإسلام: أبو قتادة الحارث بن

١. أي لماذا تَمَرَّدوا ولم يوصلوا الزكاة أو اتخذوا موقفاً سلبياً من الخلافة.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٣.

الحارث بن ربيعي الخزرجي، من بني سلمة «ت ٣٨ هـ وقيل ٤٠ وقيل ٥٤». شهد أبو قتادة أُحُدًا والخندق وما بعد ذلك من المشاهد مع رسول الله. كان من الفرسان الشجعان، وقد شارك مع الإمام علي في حروبه: الجمل وصفين والنهروان.

ربيعي أخو بني سلمة، وقد كان عاهد الله ألا يشهد مع خالد بن الوليد حرباً أبداً بعدها^(١).

ولماذا اتخذ مثل هذا الموقف من خالد؟

يجيب ابن إسحق: (وكان يحدث أنهم لما غشوا القوم، راعوهم تحت الليل^(٢) فأخذ القوم السلاح. قال: فقلنا: إنا المسلمون. فقالوا: ونحن المسلمون. قلنا: فما بال السلاح معكم؟ قالوا لنا: فما بال السلاح معكم؟ قلنا: فإن كنتم كما تقولون، فضعوا السلاح. قال: فوضعوها. ثم صلينا وصلوا^(٣)). إلى هنا جرت الأمور بشكل طبيعي وقد اطمأن مالك بن نويرة وقومُه إلى خالد وجنّده، ولكنَّ المفاجأة كانت حين قرّر خالد أن يأسرهم بعد الصلاة جماعةً ويقتلهم.. فماذا كان عذرُه فيما أقدم عليه وهو العذر الذي قدّمه للخليفة لاحقاً؟

قال ابن إسحق: (وكان خالد يعتذر في قتله أنه^(٤) قال له وهو يراجع^(٥) : ما إخال صاحبكم^(٦) إلا وقد كان يقول كذا وكذا. قال^(٧) : أو ما تعدّه لك صاحباً؟^(٨)).

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٣.

٢. بحيث أنهم لم ينتظروا النهار حتى يطلع عليهم ولم يتحققوا من إسلامهم بالأسلوب الذي أواسهم به الخليفة أبوبكر.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٣.

٤. أي ابن نويرة.

٥. أي أثناء حوار دار بينهما.

٦. أي أبوبكر.

٧. فردّ عليه خالد قائلاً.....

٨. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٣.

في مقابل هذه الكلمة قرّر خالد القضاء على القوم على حين غفلة منهم وبعد أن أعطوا الأمان!

قال الطبري: (ثم قدّمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه. فلما بلغ قتلهم عمر بن الخطاب تكلم فيه عند أبي بكر فأكثر، وقال: عدو الله عدى على امرئ مسلم فقتله، ثم نزا على امرأته) ^(١).

فماذا كانت ردة فعل الخليفة أبي بكر؟

قال ابن إسحق: (وأقبل خالد بن الوليد قافلاً حتى دخل المسجد وعليه قباء له، عليه صدأ الحديد معتجراً بعمامة له قد غرز في عمامته أسهماً! فلما أن دخل المسجد قام إليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطّمها ثم قال: أرياء! قتلت امرأ مسلماً ثم نزوت على امرأته! والله لأرجمنك بأحجارك) ^(٢).

أما خالد فلم يجب بشيء ولم تبد منه ردة فعل، خاصة وأنه (لا يظن إلا أن رأي أبي بكر على مثل رأي عمر فيه. حتى دخل على أبي بكر، فلما أن دخل عليه أخبره الخبر واعتذر إليه، فعذره أبو بكر وتجاوز عنه ما كان في حربه تلك) ^(٣).

فماذا كانت ردة فعل الخليفة عمر؟

قال ابن إسحق - وهو يصف خروج خالد من مجلس الخليفة قوياً - :

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٤.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٤.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٤.

(وعمر جالس في المسجد فقال^(١) لهم: هلم إلي يا ابن أم شملة^(٢) قال: فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه، فلم يكلمه ودخل بيته. وكان الذي قتل مالك بن نويرة عبد بن الأزور الأسدي. وقال ابن الكلبي: الذي قتل مالك بن نويرة ضرار بن الأزور^(٣)).

• عند سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:

□ من المرتدّين:

١. مالك بن نويرة.
٢. سجاح التميمية.
٣. وكيع سيد بني مالك بن حنظلة التميمي (مجهول الحال)
٤. سماعة (مجهول الحال)
٥. أم تميم ابنة المنهال زوجة مالك بن نويرة

□ من المسلمين:

١. الخليفة أبو بكر.
٢. الخليفة عمر بن الخطاب.
٣. خالد بن الوليد.

١. خالد بن الوليد.

٢. الشَّمْلَة: كساء من صوف أو شَعَر يُتَغَطَّى ويتلفّف به. والكلمة تُطلق ويراد بها: أم الخمر أو أم الدنيا، أو أم الشمس. وأم شملة أيضاً: أم الدنيا.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٤.

٤. أبو قتادة الأنصاري.

٥. ضرار بن الأزور.

٦. متمم بن نويرة.

■ أحداث هذا المشهد:

في رواية سيف عن ردة مالك بن نويرة أنه لما انصرف سجاح إلى الجزيرة، ندم مالك لردته وموقفه وتحير في أمره والقرار الذي يمكن أن يتخذه للخروج من المأزق الذي وجد نفسه فيه، خاصة وقد فقد حليفه وكيعاً وسماعة اللذين عرفا قبح ما أتيا من ردة، وتوبتهما من (فرجعا رجوعاً حسناً ولم يتجبرا، وأخرجوا الصداقات، فاستقبلا بها خالداً)^(١).

وهكذا لم يبق في بلاد بني حنظلة شيء يُكره إلا ما كان من مالك بن نويرة ومن اجتمع إليه. لذا توجه خالد بن الوليد نحو البطاح، فلم

أخو مالك «ت ٣٠ هـ تقريباً». أسلم مع أخيه حين وفدت تميم على النبي وحسن إسلامه، وعده صاحب الإصابة بين صحابة الرسول. كان شاعراً وقد رثى أخاه مالكا، وشهد بجودة شعره ولا سيما مراثيه عدد من النقاد. أسر من قبل بني تغلب في الجاهلية خلال إحدى غاراتها على تميم، وقام أخوه باستنقاذه. استقر في المدينة وتزوج بها إلا أن زواجه كان قلقاً لشدة حزنه على أخيه وبكائه عليه وراثته له.

الجرائم التي ارتكباها بحق الأبرياء،

قال الحموي: (وقيل: البطحاء ماء في ديار بني أسد بن خزيمة، وهناك كانت الحرب بين المسلمين وأهل الردة). وكلامه يشعر إلى أنه غير مطمئن إلى ذلك، والذي يبدو أن المنطقة من مختلفات سيف، وإلا فالبطاح مكان معروف يتبع مكة المكرمة. وعلى فرض صحته فهو قريب من براحة.

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٢.

يجد فيها تجمعاً للمرتدين، لأنَّ مالكا كان قد فرّقهم ونهاهم عن الاجتماع ورجع هو إلى منزله.

بثَّ خالد السرايا، وأمرهم بالدعوة إلى الإسلام، وأن يأتوه بكل من لم يُجب، فإن امتنع منهم أحد فعليه أن يقتلوه!

قال سيف: (وكان مما أوصى به أبو بكر: إذا نزلتم منزلاً فأذنوا وأقيموا، فإنَّ أذن القوم وأقاموا فكفوا عنهم، وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة ثم اقتلوهم كل قتلة، احرق فما سواه! وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم، فإن أقرّوا بالزكاة فاقبلوا منهم، وإن أبوها فلا شيء إلا الغارة، ولا كلمة)^(١).

وصلت إحدى السرايا إلى حيث منزل مالك بن نويرة وقومه، فاختلفت السرية فيهم - وفيهم أبو قتادة - بين من شهد أنهم قد أذنوا وأقاموا وصلّوا، وبين من يشهد بذلك. فلما اختلفوا فيهم، أمر بهم خالد بن الوليد فحبسوا في ليلة شديدة البرودة. ولما ازداد الجو برودة، أمر خالد منادياً فنادى: (أدثوا أسراكم)^(٢). أساء الجند فهم مراد خالد، لأن في لغة كنانة إذا قالوا: «دثروا الرجل فأدثوه دفئة» أي اقتلوه! وفي لغة غيرهم: «أدفه» تعني اقتله. فظن الجند أن خالد أراد القتل، فقتلوهم!

وهكذا، قتل ضرار بن الأزور مالكا، وسمع خالد صراخ النساء فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: (إذا أراد الله أمراً أصابه)^(٣).

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٢.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٣.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٣.

ويكمل سيف قصته وكيف اختلف أصحاب خالد فيما جرى، حيث اتهمه أبو قتادة بأنه السبب فيما جرى، فزبره خالد، فغضب قتادة ومضى حتى أتى أبا بكر، فغضب عليه أبوبكر حتى كلمه عمر فيه، فلم يرض إلا أن يرجع قتادة إلى خالد وينضم إلى عسكره، فرجع إليه وبقي معه حتى عودتهم إلى المدينة لاحقاً.

قال سيف: (وتزوج خالد أم تميم ابنة المنهال^(١) وتركها لينقضي طهرها^(٢)). أي أنه - بزعم سيف - قد تزوجها، ولكن لم يدخل بها! وهو بهذا يريد أن يدفع عن خالد فعلة سيّلام عليها لاحقاً، وبشدة، بل وسيطالب عمر أبا بكر بأن يحده عليها!

وأضاف سيف إمعاناً في تبرئة خالد: (وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعايره^(٣)). أي لم تكن المشكلة شرعية وأخلاقية، بل مسألة خالف بها خالد العرف القائم.

قال سيف: (وقال عمر لأبي بكر: إن في سيف خالد رهقاً^(٤) فإن لم يكن هذا حقاً، حق عليه أن تقيده. وأكثر عليه في ذلك. وكان أبو بكر لا يقيّد من عماله ولا وزعته^(٥) فقال: هيه يا عمر، تأوّل فأخطأ، فارتفع لسانك عن خالد. وودى مالكا^(٦) وكتب إلى خالد أن يقدم عليه، ففعل، فأخبره خبره،

١. وهي زوجة مالك بن نويرة!

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٣.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٣.

٤. أي إثماً.

٥. الوازع: واحد الوزعة، وهم الولاة المانعون من محارم الله.

٦. دفع الخليفة ديته.

فعدّره وقَبِلَ منه ^(١) وعَنّفه في التزويج الذي كانت تعيب عليه العرب من ذلك ^(٢).

كما وأضاف سيف أن متمم بن نويرة أخا مالكا وفد على أبي بكر ناشداً دم أخيه، واسترجاع السبي، فكتب له برّد السبي، (وألح عليه عمر في خالد أن يعزله وقال: إن في سيفه رهقاً. فقال: لا يا عمر، لم أكن لأشيم سيفاً ^(٣) سلّه الله على الكافرين) ^(٤).

وأكمل سيف تقديم بعض التفاصيل عن خبر قتل مالك فقال: (كان مالك بن نويرة من أكثر الناس شَعراً، وإنَّ أهل العسكر أثفوا برؤوسهم القدور! ^(٥) فما منهم رأس إلا وصلت النار إلى بشرته ما خلا مالكا، فإنَّ القَدْرَ نضجت ^(٦) وما نضج رأسه من كثرة شعره. وقى الشعرُ البشرة حرّها أن يبلغ منه ذلك) ^(٧).

• المقارنة بين الروايتين:

ربط سيف قضية مالك بن نويرة بحركة سجاح وآخرين من أهل الردة، وهو ما لم نجده في الرواية الأخرى للأحداث. كما واختلق سيف - بحسب الظاهر - أرضاً باسم البطاح.

١. أي أخبر خالد الخليفة بما جرى فقبل عذره.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٣.

٣. شام السيف شيماً: سلّه وأغمده، وهو من الأضداد.

٤. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٣.

٥. أثف القدر: جعل لها أثافاً، أي الحجارة التي توضع عليها القدر.

٦. أي نضج الطعام الذي في القدر.

٧. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٣.

سعى سيف لتبرير فعلة خالد بن الوليد بأنه قال: «أدفتوا أسراكم» والتي قصد منها المعنى الظاهر، بينما تأولها بعض جنده فقتلوا مالكا والآخرين، ثم نسب ما جرى إلى القضاء الإلهي المحتوم سعياً للتخفيف من وطأة الجريمة.

كما حاول سيف شرعنة علاقة خالد بامرأة مالك بعد قتله، وإخراج تلك الفعلة عن الحد المجرّم لتكون مجرد أمر قبيح عرفاً.

وادّعى استعمال الرؤوس أثافيّ للقدر، وهو تصرف وحشي يصعب تصور صدوره من المسلمين مهما أخطأوا في تصرفاتهم، ولكنه أسلوب سيف بن عمر المتهم بالزندقة في تشويه صورة الإسلام.

وعلى العموم فهذا المشهد لا علاقة له بالردة، لشهادة الشهود بأنهم قوم يصلّون وعلى الإسلام، وأقصى ما في الأمر - إن صحّت رواية غير سيف - هو منعهم إيصال الزكاة إلى المدينة، دون وضوح في الدافع، هل هو لعدم الاعتراف بالقيادة السياسية في المدينة، أو بخلاً، أو نتيجة ضعف الإيمان، وهو ما كان بالإمكان معالجته بالحكمة بعيداً عن القتال.

المشهد الخامس معركة اليمامة (عُقْرَبَاء)



المشهد الخامس

معركة اليمامة (عقرباء)

سيد بني حنيفة وخطيبها. وقومه بنو حنيفة من العرب العدنانيين. وُصف بأنه كان رجلاً جميلاً شجاعاً لبيباً، له شرف وذكور، وصاحب رأي وحيلة. كان هُوذة يخضر قوافل كسرى عند مرورها بدياره وهي في طريقها إلى نجران واليمن، وكان يتردد إلى كسرى في مجلسه، ويزوره في المهمات. عرض عليه النبي الإسلام فقال: (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني؛ فاجعل إلي بعض الأمر أتبعك). فلما قرأ كتابه قال: (لو سألني سيّابة) بلحة خضراء (ما فعلت. بادَ وبَادَ ما في يديه). مات بعد ذلك بزمان قليل.

جاء في وصف البلاذري حول إسلام أهل اليمامة أن رسول الله ﷺ كتب إلى ملوك الآفاق في أول سنة سبع أو ست، ومن بين مَنْ كتب إليهم هُوذة بن علي الحنفي وقومه من أهل اليمامة، يدعوهم إلى الإسلام، وأنفذ كتابه بذلك مع سُلَيْط بن قيس بن عمرو الأنصاري. فبَعَثُوا إلى رسول الله ﷺ وفدَهُمْ. عن رافع بن خديج، قال: (قَدِمَت على رسول الله ﷺ وفودُ العرب، فلم يَقدِم علينا وفدٌ أقسى قلوباً ولا أحرى أن يكون الإسلام لم يَقرَّ في قلوبهم من بني حنيفة) ^(١).

١. الطبراني: الجامع الكبير، ح ٤٤٣٢.

عن رافع بن خديج قال: (كان بالرجال بن غنمويه من الخشوع واللزوم لقراءة القرآن والخير فيما يرى رسول الله شيء عجب، فخرج علينا رسول الله يوماً والرجال معنا جالس مع نفر فقال: «أحد هؤلاء النفر في النار»، قال رافع: فنظرت في القوم، فإذا بأبي هريرة الدوسي وأبي أروى الدوسي والطفيل بن عمرو الدوسي ورجال بن غنمويه، فجعلت أنظر وأتعجب وأقول من هذا الشقي؟ ولما توفى رسول الله رجعت بنو حنيفة، فسألت: ما فعل الرجال بن غنمويه؟ فقالوا: قُتِلَ. هو الذي شهد لمسيلمة على رسول الله أنه أشركه في أمره من بعده، فقلت: ما قال رسول الله فهو حق. وسمع الرجال يقول: كبشان انتطحا، فأحبُّهما إلينا كبشُنا).

وكان في الوفد مجاعة بن مرارة، الذي أقطعه رسول الله ﷺ أرضاً مواتاً سألته إياها. وكان فيهم أيضاً الرجل بن عُنْفُوَة^(١)، فأسلم وقرأ سورة البقرة وسوراً من القرآن، إلا أنه ارتدَّ بعد ذلك.

كما تحدّث البلاذري عن طمع مسيلمة في أن يكون الأمر له بعد وفاة النبي ﷺ، ومثله هُوْذَة، وأن كلاهما اشترط للتسليم والنصرة موافقة النبي على ذلك، وكيف أن النبي رفض ذلك قطعياً. كما تحدّث البلاذري عن موت هُوْذَة بعد هذا الموقف بقليل، لتخلو الساحة لمسيلمة وشيطنته، وأضاف أنه لما انصرف وفد بني حنيفة إلى اليمامة ادّعى مسيلمة الكذاب النبوة، وشهد له

الرجال بن عُنْفُوَة بأن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر معه ! فاتّبعه بنو حنيفة وغيرهم ممّن باليمامة^(٢).

١. وقيل «غنمويه».

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٠٥.

ولنقارن فيما يلي بين روايات سيف وغيره حول ردّة مسيلمة وقومه من بني حنيفة.

• عند غير سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:

□ من النصاري:

١. هُوْذَة بن علي الحنفي.

□ من المرتدّين:

١. مسيلمة الحنفي. (لم يثبت إسلامه أصلاً).

٢. مجاعة بن مرارة.

٣. محكم بن الطفيل وكان يقال له محكم اليمامة.

٤. الرّجال بن عُنْفُوَة^(١).

□ من المسلمين:

١. سُلَيْط بن قيس

٢. خدّاش بن بشير

القرشي العامري.

٣. عبد الله بن زيد.

٤. وحشي الحبشي.

سليط بن قيس الأنصاري الخزرجي
«ت ١٣ هـ» في فتوحات العراق. شهد
مع النبي غزواته كلها.

عبد الله بن زيد الأنصاري الخزرجي.
شهد بيعة العقبة الثانية، وشهد بدرًا
وباقى المشاهد. «ت ٣٢ هـ» في المدينة.

١. وقيل «غنمويه».

٥. أبو دجانة الأنصاري.

٦. معاوية بن أبي سفيان.

٧. عبد الرحمن بن أبي بكر القرشي.

٨. عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصاري

الخرجي^(١).

■ أحداث هذا المشهد:

لودققنا في الروايات فإننا سنجد أن عموم بني حنيفة لم يُسلموا حتى يرتدّوا، بل كانوا من البداية أتباع مسيلمة الذي لم يثبت إسلامه كما ذكرنا مسبقاً، اللهم إلا ما كان من مجّاعة، وقليل آخرين كانوا ضمن الوفد. وقد تحدّث البلاذري كيف وقع مجّاعة في أسر المسلمين المتوجّهين أصلاً إلى اليمامة لمواجهة مسيلمة وأنصاره، وقُتل بعض من كان مع مجّاعة وأسِرَ آخرون.

أبودجانة سَمَاك بن خَرَشَة الأنصاري الخزرجي. شهد بيعة العقبة الثانية، وشهد بدرًا وباقي المشاهد. كان من شجعان المسلمين، وكانت له عصابة حمراء يرتديها تُميّزه في المعارك. «ت ٢١هـ» شهيداً في معركة اليمامة.

عبد الرحمن بن أبي بكر القرشي التيمي. اسمه في الجاهلية عبد الكعبة فسماه النبي عبد الرحمن. كان من الرماة الماهرين، وشاعراً مُجيداً. كان مع المشركين في بدر وأُحد، وتأخّر إسلامه إلى ما بعد صلح الحديبية. لما أراد معاوية البيعة أخذ البيعة لابنه يزيد من كبار شخصيات المدينة، بعث إليه مَن يحمل مائة ألف درهم، فألقاها عبد الرحمن وقال: (ارجع وقل له إن عبد الرحمن لا يبيع دينه بدنياه). ولما علم بعد ذلك أن معاوية يريد أن يأتي المدينة غادر إلى مكة. ولم يكد يبلغ مشارف مكة حتى توفّي! دفن في أعالي مكة سنة ٥٣ هـ.

١. ، وهو غير عبد الله بن زيد المتقدم، وقد قُتل هذا يوم الحرّة على عهد حكم يزيد سنة ٦٣ هـ.

قال بعد ذلك في وصف المعركة الكبرى في اليمامة: (التقى الناس فكان أول من لقيهم الرجال بن عنزة فقتله الله، واستشهد وجوه الناس وقراء القرآن. ثم إن المسلمين فاءوا وثابوا، فأنزل الله عليهم نصره، وهزم أهل اليمامة، فأتبعوهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً. ورمى عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق أخو عائشة لأبيها مُحْكَمًا بسهم فقتله، وألجأوا الكفرة إلى الحديقة، فسميت يومئذ حديقة الموت، وقتل الله مسيلمة في الحديقة) ^(١).

وذكر البلاذري اختلاف الأقوال في قاتل مسيلمة وهم:

- خدّاش بن بشير بن الأصم.
- عبد الله بن زيد بن ثعلبة.
- أبو دجانة سمالك بن خرشة.
- عبد الله بن زيد بن عاصم.

ثم أضاف البلاذري: (وكان وحشيُّ بن حرب الحبشي قاتل حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدّعي قتله ويقول: قتلْتُ خيرَ الناس وشرَّ الناس) ^(٢).

وأراح البعض نفسه فقال: (إن هؤلاء جميعاً شركوا في قتله) ^(٣).

ثم دخل معاوية على الخط فادّعى أنه قاتل مسيلمة! قال البلاذري: (وكان معاوية بن أبي سفيان يدّعي أنه قتله) ^(٤). ونقل البلاذري كيف خدع مجاعة خالداً بعد انتهاء المعركة حين أراد دخول حصن اليمامة، وتمّت المعاهدة بين الطرفين، وأسلم من في الحصن، وهي رواية قريبة مما سيذكرها سيف.

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٠٦.

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٠٦.

٣. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٠٦.

٤. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٠٦.

• عند سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:

□ من المرتدّين:

١. مسيلمة الحنفي.
٢. مجاعة بن مرارة.
٣. الرّجال بن عُنْفُوَة.
٤. خولة بنت جعفر.
٥. شُرْحَبِيل بن مسيلمة.

□ من المسلمين:

١. عكرمة بن أبي جهل.
٢. زيد بن الخطاب.
٣. خالد بن الوليد.
٤. شرحبيل بن حسنة.
٥. البراء بن مالك.

■ أحداث هذا المشهد:

زيد بن الخطاب العدوي، أخو الخليفة عمر. أسلم قبل عمر، وهاجر إلى المدينة، وشارك مع النبي في حروبه.

البراء بن مالك الأنصاري الخزرجي أخو الصحابي أنس بن مالك، شهد مع النبي المشاهد التي بعد بدر كلها، «ت ٢٠ هـ».

روى سيف أن الخليفة أبا بكر أرسل قائدين متتاليين لمواجهة مسيلمة ومَن معه من المرتدين في اليمامة:

○ عكرمة بن أبي جهل

○ شرحبيل بن حسنة

وأنَّ عكرمة أراد أن يبادر بالقتال قبل وصول شرحبيل حتى يُسجِّل الانتصار باسمه، إلا أنه انهزم في المواجهة مع مسيلمة، ولما علم شرحبيل بذلك راسل الخليفة أبا بكر، فأمر عكرمة بالتوجُّه إلى عُمان ومهرة لمساندة القوات الإسلامية فيهما واستنهاض المسلمين في الطريق للمساندة.

كرر شرحبيل خطأ عكرمة، حيث أراد أن يسبق خالد ليسجِّل النصر باسمه، إلا أنه سرعان ما هُزم في المواجهة مع مسيلمة، ولامه خالد - لاحقاً - على ذلك.

وعند ثنيَّة اليمامة، التقى خالد وجيشه بفرقة من جيش اليمامة من ٢٣ فارساً، بقيادة «مَجَّاعة بن مُرارة»، وقد خرجت الفرقة للثأر من بني عامر استنقاذاً لامرأة منهم اسمها «خولة بنت جعفر»، وكذلك وللثأر من بني تميم الذين سلبوا منه عدداً من الأنعام، فوقعوا جميعاً في أسر المسلمين.

أمر خالد بقتل جميع الأسرى ما عدا شخصين:

○ خولة بنت جعفر

○ وقائد الفرقة: مَجَّاعة

تقع على بعد ٥٠ كم تقريباً شمال الرياض. قال الحموي: (كأنها لكثرة عقاربها سميت بذلك). والجبيلة كانت محلة من محلات بلدة عقرباء.

ثم أكمل خالد طريقة نحو مسيلمة وأنصاره الذي عسكر بدوره في عَقْرَبَاء حيث تواجه الطرفان فيها. ونادى شرحبيل بن مسيلمة:



(يا بني حنيفة، اليوم يوم الغيرة، اليوم إن هُزِمتم تُستردف النساء سبيات، ويُنكحن غير خطيبات. فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم)^(١).

كانت الجولة الأولى من القتال لصالح المرتدّين، وأطلق سراح مجّاعة، إلا أن المسلمين سرعان ما عادوا وكرّوا عليهم، وهكذا كانت المعركة سجّالاً، تارة يتغلب فيها المسلمون وأخرى تكون الغلبة فيها للمرتدين.

وقد روى سيف لبعض قادة المسلمين ومقاتليهم بطولات متعددة، من بينها المشاهد التالية:

□ المواجهة بين زيد والرجّال:

روى سيف مواجهة لزيد بن الخطاب والرجّال بن عُنْفُوّة، قال: (فلما دنا

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٨.

صَفَاهُما قال زيد: يا رَجَّال، الله الله، فوالله لقد تركتَ الدينَ، وإن الذي أدعوك إليه لأشرف لك وأكثر لديناك^(١).

أبى الرَجَّال دعوة زيد، فاجتلدا، فقتل الرَجَّالُ، وآخرون من كبار المرتدين. إلا أن هذا لم يفتَّ من عزيمتهم، حيث هجموا بقوة حتى بلغوا معسكر المسلمين، وقطعوا أطناب الخيام وهتكوها، واستنقذوا مجاعة، ونادى زيد بن الخطاب قائلاً: (لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتي. عُضُّوا على أضراسكم - أيها الناس - واضربوا في عدوكم وامضوا قُدُماً)^(٢).

تحمَّس المسلمون وأرجعوا المرتدين إلى أبعد من مواقعهم ومعسكرهم، إلا أن زيدا استشهد في هذه المواجهة.

□ الخلاف بين المسلمين:

وتوالت مواقف القادة المسلمين في حثِّ المقاتلين على الصمود، إلا أنَّ المهاجرين والأنصار جَبَّنُوا أَهْلَ البوادي، وجَبَّنَهُم أَهْلُ البوادي، فافترقت كل مجموعة منهما على حدة، ووقع انقسام آخر: (وقال أهل القرى نحن أعلم بقتال أهل القرى - يا معشر أهل البادية - منكم. فقال لهم أهل البادية: إنَّ أهل القرى لا يُحَسِّنُونَ القتال، ولا يدرون ما الحرب، فسترون إذا امتزنا من أين يَجِيءُ الخلل)^(٣).

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨٠.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨٠.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨١.

فامتاز أهل القرى والبوادي وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر: (فقال أهل البوادي يومئذ: الآن يستحر القتل في الأجزع الأضعف. فاستحراً القتل في أهل القرى، وثبتت مسيلمة، ودارت رحاهم عليه، فعرف خالد أنها لا تركد إلا بقتل مسيلمة) ^(١).

□ نهاية مسيلمة:

لم تحفل بنو حنيفة بقتل من قُتل منهم، ثم برز خالد حتى إذا كان أمام الصف دعا إلى البراز، فجعل لا يبرز له أحدٌ إلا قُتله. وحمس خالد أصحابه، وهزم المرتدون وتطايروا، وتصايح بعضهم في مسيلمة: (فأين ما كنت تعدنا؟ فقال: قاتلوا عن أحسابكم) ^(٢).

وبدأ المرتدون باللجوء إلى حديقة مسورة كانت في ذلك الموقع، فاستغل وحشي الفرصة فخرط على مسيلمة حربته فقتله. وروى سيف أيضاً أن رجلاً من الأنصار قد اشترك مع وحشي في قتل مسيلمة.

ولما دخل المرتدون الحديقة أقفلوها عليهم، فاقترح عليهم البراء بن مالك السور، وفتح الباب للمسلمين، ثم أقفله عليهم، وألقى بالمفتاح من وراء الجدار!

اقتتل الطرفان قتالاً شديداً لم يُر مثله، وقُتل من المرتدين فيها عشرة آلاف مقاتل! وروى سيف رواية يبدو منها أنه قد نسي أن مجاعة لم يعد في أسر المسلمين، حيث ادعى أن خالدًا جاء به وهو يرُسف في الحديد ليريه مسيلمة

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨١.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨١.

وأعلامَ جنده من بين القتلى. وما أن انتهت المعركة إلا وقد قُتل من المرتدين ٢١ ألف مقاتل! بينما استشهد من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة يومئذ ثلاثمائة وستون، ومن المهاجرين من غير أهل المدينة ومن التابعين ستمائة أو يزيدون.

بثَّ خالد الفرسان فجمعوا ما وجدوا من مال ونساء وصبيان، فضمّوا كل ذلك إلى معسكرهم ونادى بالرحيل لينزل على الحصون، فقال له مجّاعة مخادعاً: (إنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس^(١) وإن الحصون مملوءة رجالاً، فهل لك إلى الصلح على ما ورائي)^(٢).

قَبِلَ خالد الاقتراح وتوجّه مجّاعة إلى الحصون، (وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشixe فانية ورجال ضعفى، فظاهر الحديد على النساء، وأمرهن أن ينشرن شعورهن وأن يشرفن على رؤوس الحصون حتى يرجع إليهن، ثم رجع فأتى خالداً فقال: قد أبوا أن يُجيزوا ما صنعت وقد أشرف لك بعضهم نقضاً علي، وهم مني براء)^(٣).

نظر خالد إلى رؤوس الحصون، وقد أنهكت المسلمين الحرب، وطال اللقاء، وأحبّوا أن يرجعوا منتصرين ولا يغامروا باقتحام الحصون، وقد استشهد منهم عدد غير قليل، فصالح خالد مجّاعة على الذهب والفضة والسلاح ونصف السبي ومزرعة من كل قرية يختارها خالد.

ولولا كتابة الصلح، لكان الأمر مختلفاً، فقد روى سيف أن أبا بكر كان قد

١. أي المستعجلون للقتال.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨٢.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨٢.

أرسل رسالة إلى خالد يأمره فيها أن يقتل كل ذكر بالغ من بني حنيفة! إلا أن الرسالة وصلت متأخرة، فوفى خالد لهم ما تمّ الاتفاق والتصالح عليه.

بعد ذلك، حُشِرَتْ بنو حنيفة إلى خالد لأخذ البيعة منها والبراءة مما كانت عليه، وانتهت معركة اليمامة لصالح المسلمين وبتوبة من تبقى من المرتدين من بني حنيفة.

• المقارنة بين الروايتين:

ذكر سيف تصرفَ القائدين عكرمة وشرحبيل بشكل فردي وهزيمتهما، وهو ما لم نجده في الخبر الآخر. حيث:

○ ادّعى قتل كل المجموعة التي كانت بقيادة مجّاعة، بينما ذكرت الرواية الأخرى قتل بعضهم.

○ ضخّم سيف الأرقام من حيث القوات والمقتولين في المعركة، كما هوّل في تفاصيل الأحداث.

○ قلب بعض تفاصيل الأحداث.

○ ادّعى سيف قتل كل المجموعة التي كانت بقيادة مجّاعة، بينما ذكرت الرواية الأخرى قتل بعضهم.

○ ضخّم سيف الأرقام من حيث القوات والمقتولين في المعركة، كما هوّل في تفاصيل الأحداث.

○ قلب بعض تفاصيل الأحداث.

○ ذكر خبر النزاع الداخلي في ساحة المعركة بين فصائل الجيش

الإسلامي بحسب انتماءاتها، وهذا من سعيه الحثيث على الطعن فيها وإثارة الأحقاد فيما بينها.

○ خلق بطولة لخالد بن الوليد في المبارزات الفردية ولا نجد خبر ذلك في الرواية الأخرى.

وعلى العموم فهذا المشهد يمثل حالة ردّة حقيقية وبقيادة شخص ادّعى النبوة فعلاً.

المشهد السادس ردّة أهل البحرين



المشهد السادس

ردّة أهل البحرين

اختلف في نسب المنذر العبدي هل هو من بني دارم التميميين أم من بني عبد القيس، فتلقّيه بالعبدي أربك المؤرخين، حيث أنه يراد به عادة الانتساب إلى عبد القيس، بينما يقول الآخرون أنه نسبة إلى عبد الله الجد الأكبر للمنذر. وقد أرسل إليه النبي رسالة عرض عليه فيها الإسلام. وكان نصرانياً، وغالبية أهل المنطقة ما بين نصارى ومجوس.

إقليم البحرين إقليم واسع، ويمتد من جنوب البصرة إلى عُمان، ويشمل الإحساء عمقاً. وفي «هَجَر» أي الأحساء حالياً كان مقرّ المنذر بن ساوي «ساوي» العبدي. المكوّن الرئيس لأهل هذا الإقليم هم بنو عبد القيس وبنو بكر بن وائل وقليل من بني تميم.

قدّم البلاذري وصفاً مختصراً حول وضع البحرين من حيث الجانبين السياسي والاجتماعي،

قال: (كانت أرض البحرين من مملكة الفرس، وكان بها خلق كثير من العرب من عبد القيس وبكر بن وائل وتميم مقيمين في بدايتها. وكان على العرب بها من قبل الفرس على عهد رسول الله ﷺ المنذر بن ساوي) ^(١).

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٩٥.



ثم تحدث عن رسالة النبي ﷺ إلى المنذر والتي يدعو وقومَه فيها إلى الإسلام، قال: (فلما كانت سنة ثمان وجّه رسول الله ﷺ العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمي، حليف بنى عبد شمس، إلى البحرين ليدعو أهلها

إلى الإسلام أو الجزية، وكتب معه إلى المنذر بن ساوى وإلى «سيبخت» مرزبان هَجَرَ يدعوهما إلى الإسلام أو الجزية. فأسلما، وأسلم معهما جميع العرب هناك وبعضُ العجم. فأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء، وكتب بينه وبينهم كتاباً.... وقد قيل إن رسول الله ﷺ وجّه

أي الحاكم الفارسي لهَجَرَ واسمه «سيبخت». والكلمة في الفارسية تُنطق Marz-Ban والمقطع الأول «مَرز» تعني الحدود، والمقطع الثاني «بان» تعني حارس، والمجموع: حارس الحدود. وكان في ذلك الوقت يمثل منصباً سياسياً إدارياً، وليس مجرد عسكري بسيط يحرس الحدود كما قد يتبادر إلى الأذهان.

العلاء حين وجّه رسلته إلى الملوّك في سنة ست (١). وأصبح العلاء الحضرمي ممثلاً للنبي ﷺ فيها، ثم تحدّث البلاذري عن تبديل العلاء بأبان بن سعيد الأموي وذلك بأمر من النبي ﷺ.

• عند غير سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:

□ من المرتدّين:

١. شريح بن ضبيعة من بني قيس بن ثعلبة «من بني بكر» ويلقب «الحطّم»

□ من المسلمين:

١. الخليفة أبوبكر.

٢. العلاء الحضرمي.

٣. الجارود بن المعلّى.

■ أحداث هذا المشهد:

روى البلاذري أنه لما توفّي رسول الله ﷺ خرج أبان من البحرين فأتى المدينة، فسأل أهل البحرين الخليفة أبابكر أن يردّ العلاء عليهم، ففعل.

قليل هذا اسمه، وقال ابن أبي الحديد: (اسم الجارود: بشر بن خنيس بن المعلّى... وفد الجارود على النبي في سنة تسع وقيل في سنة عشر). وذكر ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب أنه كان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه وكان قد وفّد مع المنذر بن ساوى في جماعة من عبدالقيس. «ت ٢١ هـ». ولإمام علي في نهج البلاغة كتاب برقم ٧١ بعثه لابنه المنذر معنفاً إياه، وقد كان استعمله على بعض النواحي فخان الأمانة.

فيقال إن العلاء لم يزل والياً حتى تُوِيَفَ بها سنة عشرين، فولّى الخليفة عمرُ مكانه أبا هريرة الدوسي... عن أبي هريرة قال: (استعملني عمر بن الخطاب رضي الله عنه على البحرين، فاجتمعت لي اثنا عشر ألفاً. فلما قدمتُ على عمر قال لي: يا عدو الله وعدو المسلمين! - أو قال: وعدو كتابه - سرقت مال الله؟ قال: قلت: لست بعدو لله ولا للمسلمين - أو قال: لكتابهِ - ولكني عدو من عاداهما. ولكن خيلاً تناجحت وسهماً اجتمعت. قال: فأخذ مني اثنا عشر ألفاً...) ^(١). وهذا يعني أن مركز الإقليم بقي ضمن ولائه للمدينة المنورة بعد وفاة رسول الله ﷺ إلا في موضعين، حيث قال البلاذري: (قالوا:

ولما مات المنذر بن ساوى بعد وفاة النبي ﷺ بقليل ارتد من بالبحرين من ولد قيس بن ثعلبة بن عكابة مع الحُطم، وهو شريح بن ضبيعة بن عمرو بن مرثد أحد بني قيس بن ثعلبة... وارتد سائر من بالبحرين من ربيعة ^(٢) خلا الجارود، وهو بشر بن عمرو العبدى، ومن تابعه من قومه... وبلغ العلاء بن الحضرمي الخبر، فسار بالمسلمين حتى نزل جواثا، وهو حصن البحرين، فدلفت

تعد «جواثا» عاصمة مدينة هجر القديمة، ويقع مسجدُها على بُعد ١٧ كم شمال شرق الهفوف، وتعود قصة بنائه إلى العام السابع للهجرة، وذلك عندما سار وفد بني عبد القيس من هجر إلى المدينة المنورة للقاء النبي، وبعد عودة الوفد إلى الأحساء قام زعيمهم ببناء مسجد «جواثا». روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس قال: (أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله في مسجد عبد القيس بجواثا بهجر).

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٠٠.

٢. مثل بني عبد القيس.

عرفت القطيف تاريخياً باسم الخُطّ «أو الخُط»، وقيل أنه مشتقّ من Chateni أو Katti، والذي ادّعي أنه اسم قبيلة عربية كانت تسكن هذه المنطقة قديماً. والقطيف تأسست على أنقاض مدينة الخط التي أنشأها أردشير بن بابك في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي. وقد أسكن الفرس فيها عساكر جلبوهم من الهند كان يطلق العرب عليهم «الزط» وبالفارسية Jat مما يفتح المجال لاحتمال آخر لمصدر اسم هذه المدينة.

إليه ربيعة، فخرج إليها بمن معه من العرب والعجم، فقاتلها قتالاً شديداً. ثم إن المسلمين لجأوا إلى الحصن فحصرهم فيه عدوهم.... ثم إن العلاء خرج بالمسلمين ذات ليلة فبيّت ربيعة، فقاتلوا قتالاً شديداً وقتل الحُطَم^(١). ولجأت الفلول إلى الخُطّ، فأتاها العلاء ففتّحها. وانتهت بهذا حركة المرتدين، وعادت الأمور إلى الاستقرار.

• عند سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:

□ من المرتدين:

١. الحُطَم بن ضبيعة.
٢. كل أهل البحرين.

□ من المسلمين:

١. الخليفة أبوبكر.
٢. العلاء الحضرمي.
٣. الجارود بن المعلّى.

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٠١-١٠٢.

■ أحداث هذا المشهد:

روى البلاذري أنه لما تُوِّفَ رسول مَهْد سيف حديثه عن ردّة أهل هذه المنطقة بقوله أن النبي ﷺ والمنذر بن ساوى مرضا في شهر واحد، وتوفي المنذر بعد النبي بقليل، فارتدّ أهل البحرين، إلا أنّ بني عبد القيس عادوا عن ردّتهم بفضل سيدهم الجارود بن المعلّى... فيما استمر عليها بنو بكر. وكلاهما من ربيعة.

قاد الحُطَم بن ضُبَيْعَة ردّة بني بكر، وانضم إليهم مَنْ لم يدخلوا في الإسلام مِنْ قَبْل. ثم نزل الحُطَم وأنصاره في القطيف وهَجَرَ والخَط، واستمال إليه قسم من سكانها الزط والسيابجة.

أما الخليفة أبو بكر - بحسب رواية سيف - فقد بعث العلاء بن الحضرمي لقتالهم، وانضم إليه آخرون من مسلمي بني حنيفة وبني تميم وغيرهم.

وروى سيف كيف أنهم لما استقروا في إحدى المواقع بلا ماء، نفرت كل إبلهم، فأصابهم القلق الشديد، وأن

استعان الفرس بالزط ضمن تشكيلات جيوشهم، وتركوا قسماً منهم في إقليم البحرين. تعود أصولهم إلى الهند من سكان السند ومُلتان وبلوشستان. والزط: تعريب للكلمة الفارسية جت Jat. أما السيابجة، فقد جاء في لسان العرب: (السَّيَابِجَةُ قوم ذوو جَلَد من السند والهند، يكونون مع رئيس السفينة البحرية يبدرقونها) البَذْرَقَةُ فارسي معرّب أي الخُفارة (واحدُهم سَيِيجِي... ابن السكيت: السيابجة قوم من السند يُستأجرون ليقاتلوا... الجوهري: السيابجة قوم من السند كانوا بالبصرة، جلاوزة وحراس السجن).

العلاء طمأنهم وصلى بهم الفجر، وجثا على ركبتيه ودعا الله سبحانه، وإذا بالماء يفيض من باطن الأرض!

ولم يكتف سيف بهذه الكرامة، بل أضاف قائلاً: (فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تُكْرَدُ^(١) من كل وجه، فأناخت إلينا^(٢) فقام كل رجل إلى ظهره^(٣) فأخذه^(٤)). وليُحْكَم سيف روايته أضاف لاحقاً أن العلاء كتب للخليفة أبي بكر قائلاً: (أما بعد، فإن الله تبارك وتعالى فَجَّرَ لنا الدهناء فيضا لا ترى غواربه^(٥) وأرانا آية وعبرة بعد غم وكرب، لنحمد الله ونمجده. فادعُ الله واستنصره لجنوده وأعوان دينه. فحمد أبو بكر الله ودعاه وقال: ما زالت العرب فيما تُحدث عن بلدانهم يقولون: إن لقمان حين سُئِلَ عن الدهناء^(٦) أحتفرونها أو يدعونها؟ نهاهم وقال: لا تبلغها الأرضية^(٧) ولم تقر العيون^(٨) وإن شأن هذا الفيض من عظيم الآيات، وما سمعنا به في أمة قبلها. اللهم أخلص محمدًا ﷺ فينا^(٩)).

١. أي تُساق.

٢. أي أنها لما وصلت إليهم بركت على الأرض وأناخت لتكون تحت طوع صاحبها بعد أن كانت قد تمردت وهربت في الصحراء.

٣. أي مركوبه.

٤. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨٨.

٥. غوارب الماء: أعالي موجه.

٦. أي الصحراء.

٧. الأرضية: جمع الرشاء: أي الحبل، أو حبل الدلو ونحوها، أي أن الماء موجود في أعماق سحيقة ولا فائدة من البحث عنه.

٨. أي لن يروا الماء إذا احتفروا بحثاً عنه.

٩. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٩٠.



ثم تواجه الطرفان في هَجَر، وبقي القتال مستمراً لمدة شهر، يتواجه خلاله الطرفان، ثم يعود كل منهما إلى خندقه، وهكذا.

وذات ليلة، سمع المسلمون في عسكر المرتدين ضوضاء شديدة، فأرسلوا واحداً منهم ليستعلم الخبر، وعاد إليهم بأن القوم في حالة سُكْر، (فخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا عليهم عسكرهم فوضعوا السيوف فيهم حيث شاؤوا، واقتحموا الخندق هرباً فمتردّ وناج ودَهَشٍ ومقتول أو مأسور. واستولى المسلمون على ما في العسكر، لم يفلت رجل إلا بما عليه) ^(١).

وبعد ما سيطروا على الخندق، خرج المسلمون على القوم يطلبونهم، وأسرُوا مَنْ أسروا منهم، حتى إذا أصبح الصباح قسّم العلاء الغنائم.

راسل العلاء المسلمين من بني بكر واطمأن إلى استقامتهم في إسلامهم،

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨٨.

ثم استنهض مَنْ معه للتوجه نحو «دارين» الواقعة في جزيرة تاروت، وفيها تجمع آخر للمرتدين ومن انضم إليهم من فلول الهاربين.

وهنا تضيف مخيلة سيف صورة خيالية أخرى إلى الأحداث حيث قال: (حتى إذا أتى ساحل البحر اقتحموا على الصاهل^(١) والجمال^(٢) والشاحج^(٣) والناحق^(٤) راكب الحمار والراكب^(٥) والراجل، ودعا ودعوا، وكان دعاؤه ودعاؤهم: يا أرحم الراحمين يا كريم يا حليم يا أحد يا صمد يا حي يا محيي الموتى يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا. فأجازوا^(٦) ذلك الخليج بإذن الله جميعاً^(٧) يمشون على مثل رملة ميثاء^(٨) فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل، وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر في بعض الحالات! فالتقوا بها واقتتلوا قتالاً شديداً، فما تركوا بها مخابراً^(٩) وسبوا الذراري واستاقوا الأموال. فبلغ نفل الفارس ستة آلاف، والراجل ألفين. قطعوا ليلهم وساروا يومهم فلما فرغوا رجعوا عودهم على بدئهم حتى عبروا)^(١٠).

١. أي راكب الفرس.

٢. أي راكب الجمل.

٣. أي راكب البغل.

٤. أي راكب الحمار.

٥. أي راكب الناقة.

٦. أي عبروا.

٧. الراجلون منهم والراكبون على وسائل نقلهم السابقة.

٨. أي سهلة.

٩. أي أحداً حياً يمكنه أن يُخبر الناس بما جرى.

١٠. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨٨-٢٨٩.

وأراد سيف أن يُحكّم روايته الخيالية السابقة فقال: (وكان مع المسلمين راهبٌ في هَجَرٍ، فأسلم يومئذ. فقليل: ما دعائك إلى الإسلام؟ قال: ثلاثة أشياء خشيت أن يمسخني الله بعدها إن أنا لم أفعل. فيضُّ في الرمال، وتمهيدُ أثباج البحار^(١) ودعاءٌ سمعته في عسكرهم في الهواء من السَّحَرِ^(٢)). قالوا: وما هو؟ قال: اللهم أنت الرحمن الرحيم... فعلمتُ أن القوم لم يُعانون بالملائكة إلا وهم على أمر الله. فلقد كان أصحابُ رسول الله ﷺ يسمعون من ذلك الهَجَرِي بَعْدُ^(٣)).

وهكذا انتهت أحداث ردّة أهل البحرين وفق رواية سيف، علماً بأن فتح دارين في جزيرة تاروت - عند غير سيف - لم يكن ضمن حروب الردّة، بل على عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

• المقارنة بين الروايتين:

المشهد من صور الردّة، ولكن دون ادّعاء للنبوة. ويلاحظ عند المقارنة بين رواية البلاذري برواية سيف ما يلي:

○ ضخّم سيف في تصوير حالة الردّة في البحرين بما يخالف الرواية الأخرى، وهكذا فعل بخصوص تفاصيل الأحداث.

○ ذكر سيف مجموعة من الأحداث الوهمية التي صيغت في شكل كرامات

١. الثَّبَج: وسط الشيء.

٢. أي أن الصوت انتقل إليه من الساحل المقابل لجزيرة تاروت إلى حيث كان يقطن في هَجَرٍ والمسافة أكثر من ١٣٠ كم.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨٨-٢٨٩. ومعنى العبارة الأخيرة أنهم كانوا يأخذون عنه ما عنده من علم، كما فعلوا مع كعب الأحبار ووهب بن منبه.

حدثت للجيش الإسلامي، أما عند البلاذري فقد تمّ الأمر كما يلي: (فتقحّم العلاء في جماعة من المسلمين البحر، فلم يشعر أهل دارين إلا بالتكبير، فخرجوا فقاتلوهم من ثلاثة أوجه، فقتلوا مقاتلتهم وحووا الذراري والسبي)^(١). وقد كرر سيف مثل ذلك في أخبار الفتوحات الإسلامية.

○ أورد سيف خبر دارين ضمن أحداث الردّة، بينما الحدث يتعلق بفترة زمنية مختلفة ولا علاقة له بأحداث الردّة.

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٠٤.

المشهد السابع رَدَّةُ أهل عمان ومَهْرَة واليمن



المشهد السابع

ردّة أهل عمان ومهرة واليمن

روى البلاذري أن رسول الله ﷺ بعث في السنة الثامنة للهجرة أبا زيد الأنصاري^(١)، مع عمرو بن العاص إلى عبد وجيفر ابني الجلندى بكتاب منه، يدعوهم فيه إلى الإسلام، وقال: (إن أجاب القوم إلى شهادة الحق وأطاعوا الله ورسوله، فعمرو الأمير وأبو زيد على الصلاة وأخذ الإسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن)^(٢). فلما قدم أبو زيد وعمرو عُمان وجداً عبداً وجيفراً بصُحار على ساحل البحر، فأوصلا كتاب النبي ﷺ إليهما، فأسلما ودعوا العرب هناك إلى الإسلام، فأجابوا إليه ورغبوا فيه. فلم يزل عمرو وأبو زيد بعُمان حتى توفى النبي ﷺ. أما خبر الردّة فقد عُرض كالتالي:

• عند غير سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:

□ من المرتدّين:

١. ذو التاج واسمه لقيط بن مالك الأزدي.

٢. الأشعث بن قيس الكندي.

١. اختلف في اسمه.

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٩٢.



٣. الجفشيّش الكندي^(١).

□ من المسلمين:

١. الخليفة أبوبكر.
٢. جيفر الجلندی.
٣. عبد الجلندی.
٤. حذيفة البارقي.
٥. عكرمة بن أبي جهل.
٦. زياد بن لبيد.
٧. المهاجر بن أبي أمية.
٨. يعلى بن منية.

زياد بن لبيد البياضي الأنصاري
الخرزجي «ت ٤١ هـ». صحابي من
الأنصار، شهد بيعة العقبة الثانية،
وشهد بدرًا وأحدًا وباقي المشاهد،
استعمله النبي على حضرموت.

يَعلى بن أمية التميمي «ت ٦٠ هـ». كان
حليف قريش، ويُنسب إلى أمه فيقال:
يَعلى بن منية، وهي أخت عتبة بن
غزوان. كان من مَسلمة الفتح، ثم في
المعسكر المعادي لعلّي في معركة الجمل.

١. اسمه معدان بن الأسود بن معدي كرب.

■ أحداث هذا المشهد:

بعد وفاة النبي ﷺ ارتدتّ الأزد بقيادة ذي التاج، فوجّه الخليفة أبوبكر إليهم حذيفة البارقي وعكرمة بن أبي جهل فواقعا المرتدّين، وقُتل ذو التاج، وسُبي من أهل دبا سبيٌّ بُعث به إلى أبي بكر، ورجع الأزديون إلى الإسلام. وارتدتّ طوائف أخرى من أهل عمان، فسار إليهم عكرمة، فظفر بهم وقَتَلَ عدداً منهم، كما وأصاب منهم مَغْنَمًا. واجتمع قوم من مَهْرَة، فأَتاهم عكرمة فلم يقاتلوه وأدّوا الصدقة. وأما في حضرموت، فقد أخذ زياد بن لبيد قلوَصاً من صدقة أحد الكنديين^(١)، فسأله الكندي ردّها عليه وأخذ غيرها، فأبى حيث كان قد وسّمها بميسم الصدقة، وكلمه الأشعث بن قيس فيه فلم يجبه.

على إثر ذلك، انتقضت كندة كلها على زياد - إلا بني السكون - فإنهم كانوا معه، فهجم زياد على جماعة من كندة ليلاً وقتل منهم عدداً، وسبى آخرين، وأقبل بهم وبالأموال، فمرّ على الأشعث بن قيس وقومه، فصرخ النساء والصبيان وبكوا، فغضب الأشعث وخرج في جماعة من قومه فتعرّض لزياد ومن معه، فأصيب ناس من المسلمين، ثم هزموهم.

اجتمع رؤساء كندة إلى الأشعث بن قيس، فلما رأى زياد ذلك كتب إلى أبي بكر يستمدّه، وكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أبي أمية يأمره بنجدته.

تلاقى الجمعان، وقُتل من الكنديين مقتلة عظيمة، فلجأ المنهزمون إلى حصن «النجير»، فطلب الأشعث الأمان لعدة منهم وأخرج نفسه من العدة،

١. القُلُوصُ من الإبل: الفتيةُ المجتمعةُ الخلق، وذلك من حين تُركَّبُ إلى التاسعة من عُمرِها، ثم هي ناقة.



وذلك إن الجفشيش الكندي أخذ بحقوقه وطلب منه أن يجعله من العدة، فأدخله وأخرج نفسه. ونزل إلى زياد بن لبيد والمهاجر فبعثا به إلى أبي بكر، فمنّ عليه وزوّجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة^(١)، فولدت له محمداً وإسحاق وقريبة وحبابة وجعدة التي تزوّج بها الإمام الحسن المجتبي عليه السلام لاحقاً، وروي أنها هي التي سمّته فاستشهد.

هذه الرواية لا تُظهر ردّة الأشعث وقومه، ولكن البلاذري يروي رواية أخرى فيها: (ارتد الأشعث بن قيس الكندي في ناس من كندة فحوصروا، فأخذ الأمان لسبعين منهم ولم يأخذه لنفسه، فأتى به أبو بكر فقال: إنا قاتلوك، لأنه لا أمان لك إذ أخرجت نفسك من العدة. فقال: بل تُمنّ عليّ يا خليفة رسول الله وتزوجني. ففعل وزوّجه أخته)^(٢).

١. كان خطبها على عهد النبي وتم إرجاء الزواج إلى ما عودته الأخرى للمدينة، فجرى ما جرى.

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٢٣.

وتحدّث أيضاً عن ردة قبيلة خولان في اليمن: (وارتدّت خولان باليمن، فوجّه أبو بكر إليهم يعلى بن منية... فظفر بهم وأصاب منهم غنيمة وسبائاً. ويقال لم يلق حرباً، فرجع القوم إلى الإسلام)^(١). بذا تكون قد انتهت أحداث الردّة في عمان ومهرة وحضرموت واليمن بحسب رواية البلاذري.

• عند سيف:

■ أطراف وشخصيات هذا المشهد:

□ من المرتدّين:

١. ذو التاج واسمه لقيط بن مالك الأزدي.

٢. شخریت من بني شخراة.

٣. المصْبَحُ المُحَارِبِي.

٤. قيس المكشوح.

٥. الأشعث بن قيس

الكندي

□ من المسلمين:

١. الخليفة أبوبكر.

٢. جيفر الجلندی.

٣. عباد الجلندی.

٤. حذيفة بن محصن الغلفاني «البارقي».

الأمير قيس بن هبيرة أبو حسان
البحلي حليف بني مراد ولذا يقال
المرادي أيضاً، من وجوه العرب
الموصوفين بالشجاعة. وكان ممن
أعان على قتل الأسود العنسي، وقلعت
عينه يوم اليرموك. وكان ذا رأي في
الحرب ونجدة. وكان من أمراء علي
يوم صفين، فاستشهد يومئذ.

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١١٩.



٥. عرفة البارقي.
٦. عكرمة بن أبي جهل.
٧. فيروز.
٨. المهاجر بن أبي أمية.
٩. زياد بن لبيد البياضي.
١٠. خالد بن فلان المخزومي. (لعله شخصية مختلفة).
١١. ربيعة الحضرمي ^(١).

■ أحداث هذا المشهد:

بحسب رواية سيف، فقد ارتدَّ بَعْمَانُ ذو التاج واسمه لقيط بن مالك الأزدي، وادّعى النبوة، وتغلّب على الأخوين جيفر وعباد ابني الجلندى

١. قد يكون ربيعة بن لهاعة الحضرمي الذي قدم في وفد حضرموت على النبي فأسلموا.

الأزدية، اللذين كانا يحكمان عمان، وقد راسلها النبي ﷺ من قبل ودعاها للدخول في الإسلام. ومع وقوع الردّة، اضطر الأخوان إلى اللجوء إلى الجبال والبحر، وبعث جيفر إلى الخليفة أبي بكر يخبره بما جرى، ويطلب منه النصرة، فبعث الخليفة أبو بكر الجنود تحت إمرة قائدتين، هما:

○ حذيفة بن محصن الغلفاني.

○ عرفجة البارقي.

وأمرهما الخليفة أن يجدا السير حتى يقدموا عمان، فإذا كانا منها قريباً كاتبوا جيفراً وعباداً وعملاً برأيهما. ثم أمر الخليفة عكرمة بن أبي جهل المتواجد في اليمامة بمساندة القائدين.

مع اقتراب قوات النجدة، خرج جيفر وعباد من موضعهما الذي كانا فيه فعسكرا بصُحار، وبعثا إلى حذيفة وعرفجة وعكرمة في القدوم عليهما.

وفي «دبا» وقع القتال الشديد بين المرتدين بقيادة ذي التاج، والمسلمين من أهل عمان ومن جاء لنصرتهم، وكاد ذو التاج أن ينتصر، فإذا بالمدد العظيم يأتي من قبل بني ناجية وعبد القيس، فمالت الكفة لصالح المسلمين، فوّلّى المرتدون الأدبار، وقُتل منهم في المعركة عشرة آلاف، (وركبوهم حتى أثخنوا فيهم، وسبوا الذراري، وقسموا الأموال على المسلمين، وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر مع عرفجة) ^(١).

□ مواجهة الردّة في مهرة:

لما فرغ القادة الثلاثة من ردّة عُمان، خرج عكرمة في جنده نحو مهرة،

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٩٢.

وطلب المساندة من أهل عمان وما حولها. وفي مهرة كان القوم منقسمين متعادين، وكان هذا الانقسام عاملاً مساعداً لنصرة المسلمين:

○ قسم في «جَيْرُوت» امتلأ بالرجال وقائدهم يُقال له «شخريت» من «بني شخراة».

○ والقسم الأعظم من مهرة في «النجد» وقائدهم المصْبَح من بني مُحَارِب. لما رأى عكرمة قلة من مع شخريت دعاه إلى الرجوع إلى الإسلام، فأجابه، ثم إلى المصْبَح يدعوه إلى الإسلام فاغتر بكثرة من معه، وأصرّ على موقفه أيضاً عداوةً لشخريت.

ووقع القتال بين الطرفين، فكان أشد من القتال الذي جرى في دبا، ولكن المسلمين انتصروا عليهم، وقُتِل المصْبَح (فقتلوا منهم ما شاءوا، وأصابوا^(١) ما شاءوا، وأصابوا فيما أصابوا ألفي نجبية^(٢) فخمّس عكرمة الفيء...) (٣).

بعد ذلك، عرض عكرمة الإسلام على أهل تلك البقاع على اختلاف مواطنهم وانتماءاتهم، فقبلوا، وكتب بذلك إلى الخليفة يخبره.

□ مواجهة الردّة في أنحاء من اليمن:

وأضاف سيف أنه لما بلغ أهل اليمن وفاة النبي ﷺ انتقضوا، فحارب أبو بكر المرتدة جميعاً بالرُّسل والكتب كما كان رسول الله ﷺ، إلى أن رجع

١. أي غنموا.

٢. النجبية: المختارة من الإبل وقد يراد بها القوة الخفيفة.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٩٣.

أسامة بن زيد من الشام، وحينها تغيّر المشهد إذ لجأ إلى استعمال القوة. وتعددت المواجهات، ففي تهامة انتفض عكّ والأشعر، فتواجه معهم المقاتلون المسلمون، فاقتتلوا (فهزمهم الله وقتلوهم كل قتلة، وأنتنت السبل لقتلهم، وكان مقتلهم فتحاً عظيماً)^(١).

وارتدّ في اليمن قيس المكشوح، وجمع حوله الأنصار، وقاتل المسلمين من أهل اليمن، بمن فيهم فيروز الوالي المعين من قبل الخليفة، واستعمل الغدر، إلا أن قيساً هُزم في المعركة التي وقعت دون صنعاء، فولّى هارباً.

في هذه الأثناء قدم عكرمة من مَهرة سائراً نحو اليمن حتى ورد «أبين»، ومعه بشرٌ كثير من مَهرة والأزد وعبد القيس وناجية وحديان وغيرهم. وجمع عكرمة النخ بعد هروب ساداتهم المرتدين، فوجد عامّتهم على الإسلام، فأمنهم.

من جهته، أرسل الخليفة أبو بكر المهاجر بن أبي أمية نحو اليمن أيضاً، فسار حتى نزل صنعاء، فتتبع شذاذ القبائل الذين هربوا، فقتل منهم من قُدر عليه كل قتلة، ولم يعف عن متمرّد.

وفي حضرموت واجه زياد البياضي عامل الخليفة عليها حالات من الردّة والتمرد والنزاعات الداخلية، ومن بينها حركة الأشعث بن قيس الكندي.

وقع القتال بين الطرفين، وهُزمت كنده، والتجأ الهاربون منها ومن غيرها من المرتدين إلى حصن النُّجير المنيع قرب حضرموت، واجتمعت قوات المسلمين القادمة من المعركة ومن كان مع عكرمة الذي (فرّق في كنده

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٩٤.

الخيول، وأمرهم أن يوطئوهم... فقتلَ مَنْ بَقِرَى بني هند إلى برهوت^(١) وبعث فيمن بعث إلى الساحل خالد بن فلان المخزومي وربيعة الحضرمي فقتلوا أهل مَحا وأحياء آخر^(٢).

لما بلغ كندة - وهم في الحصار - ما لقي سائر قومهم قالوا: (الموت خير مما أنتم فيه. جُزُوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم لله أنفسكم، فأنعم عليكم، فبؤتم بنعمه، لعله أن ينصركم على هؤلاء الظلمة. فجزوا نواصيهم وتعاقدوا وتواثقوا ألا يفر بعضهم عن بعض)^(٣).

وفي الصباح وقع القتال بأفنية الحصن الذي لجأت إليه كندة، حتى كثرت القتلى، وهُزِمَتْ، وقد أكثروا فيهم القتل. ثم خرج الأشعث للتحدث مع المهاجر بن أبي أمية، واتفق معه على أن يكون له الأمان مع تسعة نفر وأهليهم فقط، وأن يُسلمه بقية كندة والمتحصنين في النجير!

وافق المهاجر، وكتب الأشعث الكتاب، ونسي أن يضع نفسه في القائمة! ولما حان وقت التنفيذ، تم تسريب مَنْ أعطوا الأمان، فخرجوا من الحصن، وبقي سائر الناس فيه.

إلى هنا انتهى ما نقله الطبري عن سيف بهذا الخصوص، إلا أنه نقل تنمة ما جرى برواية ابن إسحق، ولا نعلم هل تشابهت النهاية في الروایتين أم لا.. بل لماذا لم ينقل الطبري عن سيف تنمة الخبر؟ قال ابن إسحق: (فلما فُتح الباب، اقتحمه المسلمون، فلم يدعوا فيه مقاتلاً إلا قتلوه، ضربوا أعناقهم

١. وادي بحضرموت.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٢.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٢.

صبراً^(١) وأحصي ألف امرأة ممن في النَجِير والخندق، ووُضِعَ على السبي والفيء الأحراس^(٢).

جاء الأشعث بالكتاب ليستثني مَنْ فيه من القتل والسبي، فإذا باسمه قد سقط مما هو مُدَوَّن فيه، فقال المهاجر: (الحمد لله الذي أخطأك نوَّك^(٣) يا أشعث يا عدو الله، قد كنتُ أشتهي أن يخزيك الله. فشده وثاقاً وهمَّ بقتله فقال له عكرمة: أخره وأبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم في هذا، وإنه كان رجلاً نسي اسمه أن يكتبه، وهو ولي المخاطبة، أفذاك يُبطلُ ذاك؟ فقال المهاجر: إن أمره لبين، ولكنني أتبعُ المشورة وأوثرها^(٤)).

وهكذا، بُعث بالأشعث إلى أبي بكر مع السبي (فكان معهم يلعنه المسلمون، ويلعنه سبائا قومُه، وسماء نساء قومِه «عُرف النار»^(٥))^(٦).

أراد الخليفة قتل الأشعث، ولم يقبل عذره في نسيان تدوين اسمه، فقال الأشعث: (أو تحتسب في خيراً فتطلق إساري وتقبلني عثرتي وتقبل إسلامي وتفعل بي مثل ما فعلته بأمثالي وترد علي زوجتي؟ تجدني خير أهل بلادِي لدين الله)^(٧).

وذكر ابن إسحق أن الأشعث كان قد خطب أم فروة بنت أبي قحافة مقدّمه

١. أي وهم في حالة استسلام.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٤.

٣. أي نجمك، يشير إلى حظه التغييس.

٤. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٤.

٥. كناية عن الشخص الغادر.

٦. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٤.

٧. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٤.

على رسول الله ﷺ فزوّجه وأخّرها إلى أن يقدم الثانية، فمات رسول الله، وفعل الأشعث ما فعل، وها هو بين يدي الخليفة طالباً العفو، ومعلنًا التوبة، فقبِلَ منه وردّ عليه أم فروة.

• المقارنة بين الروایتين:

- بعض الأحداث ترتبط فعلاً برّدّة حقيقية، ولكن ادّعى سيف أن واحدة منها مرتبطة بدعوى النبوة من قبل ذي التاج.
- ذكر سيف بعض الشخصيات الوهمية ضمن الأحداث.
- هوّل في الأرقام وتفاصيل المواجهات.
- ذكر سبباً مختلفاً لقتال الأشعث عما جاء في الرواية الأخرى.
- اختلق بعض التفاصيل لمجريات الأحداث.

الخاتمة



الخاتمة

بعد هذا العرض المختصر والمقارن لحروب الردّة يمكننا القول بأن ما قام به سيف بن عمر التميمي يمثل جريمة تاريخية بشعة بحق مقطع مهم وحساس في تاريخ الأمة الإسلامية، وقدّم من خلاله صورة مشوّهة عن حقيقة الوضع الذي تكوّن بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكأن كل جهود النبي ذهبت هباءً منثوراً إلا في ثلاث بقاع محدودة هي مكة والمدينة والطائف. ولولا حروب الإبادة والحرق والقتل بصورة المختلفة التي مورست من قبل خالد بن الوليد وغيره حتى بحق من لم يرتكبوا جرائم بحق المسلمين، لما استقر الإسلام في الجزيرة العربية.

وقد استغل المستشرقون هذه الصور المختلقة التي قدّمها سيف وآخرون - وعمدتهم سيف - عن حروب الردة والفتوحات أيضاً، وأكّدوا على مقولتهم بأن الإسلام إنما انتشر بجد السيف، بينما الواقع أن الأمر كان يواجه في كثير من الحالات بالمصالحة وعقد الاتفاقيات السلمية، بل وترحيب الأهالي وكبار الشخصيات في تلك المناطق بالمسلمين ومساعدتهم للتخلص من ظلم بعض الحكام.

ولقد سعيت في بحثي هذا أن أؤكد ما تحدّث عنه العديد من الباحثين قبلي

عن ضرورة تنقيح التاريخ، ومن بينها ما عُرف بعنوان حروب الردّة، بعيداً عن الأهواء والعصبيات والدوافع الطائفية والأمزجة الشخصية.

وقد تبين لنا على الأقل أن الكثير من التفاصيل التي يتم تداولها هي من وحي الخيال، وأنها وإن رفعت أسهم بعض الشخصيات إلا أنها وجّهت سهامها إلى الإسلام، وقدمته بصورة لا تختلف عما ارتكبه المغول من قبل، ويرتكبه التكفيريون الإرهابيون اليوم.

قال السيد العسكري: (انتشر بين خصوم الاسلام أنّ الاسلام - شريعة خاتم الانبياء - انتشر بالسيف والدم، حتّى اتخذ خصوم الإسلام من ذلك ذريعة للطعن عليه، وإذا بحثنا في كتب السير والتواريخ لم نجد دليلاً على هذا الزعم إلاّ في أحاديث سيف، فهو الذي روى في الحروب والغزوات الاسلامية أعداداً ضخمة من القتلى، وإبادة للجماعات الانسانية ما لا نظير لها إلاّ في حروب البرابرة المتوحشين أمثال جيوش التتر، بينما الواقع - الذي نجده في روايات غيره - أنّ الاسلام لم يشهر السيف إلاّ في وجه من تحدّاه بالسيف، ومن قابله من الحكّام المتسلّطين على الشعوب بالسيف والدم، وأنّ الشعوب كثيراً ما كانت تساعد المسلمين في حروبهم على حكّامها المستبدين. وكثيراً ما نجد في روايات سيف ذكر حروب للمسلمين أبادوا فيها عدداً ضخماً من الناس، وهدموا دورهم، وتركوا الأرض يباباً بعدهم، في حين أنّ تلك المعارك لم تقع بتاتاً، وكل ما ذكره فيها - من قادة الفتح الإسلامي وأشعارهم وقتلاهم وهدم مساكن الشعوب - اختلاق في اختلاق)^(١).

١. العسكري: عبد الله بن سبأ، ج ٢، ص ٢٥-٢٦.

تاريخ تدوين المصحف الشريف



تاريخ تدوين المصحف الشريف

وجدت أنّ من المناسب تناول موضوع تدوين المصحف الشريف كبحث مكمل لحروب الردّة وذلك لما جاء في الأخبار من أن عدداً ملحوظاً من حفاظ القرآن الكريم استشهدوا في معركة اليمامة التي وقعت في السنة الحادية عشرة للهجرة وتحدثنا عنها مسبقاً، وقد أثار ذلك قلق الخلافة، إذ كان الاعتماد عليهم في بقاء النص القرآني وحفظه أكثر بمراتب من المدونات القرآنية التي لم تُجمَع إلى ذلك الوقت على هيئة كتاب مجلد واحد، وإنما كانت مبعثرة على قطع من الجلد والبردي وغير ذلك، اللهم إلا المصحف الذي كتبه أمير المؤمنين علي عليه السلام بنفسه مباشرة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وقد رفضت الخلافة - بحسب بعض النصوص - تبني هذا المشروع، دون أن تبادر لإنجاز مشروع مماثل.

ولكن عندما وجدت الخلافة نفسها في وضع حرج بعد استشهاد أولئك الحفاظ، عملت على البدء بمشروع التدوين وبموازاة بعض المشاريع المحدودة التي قام بها بعض الصحابة بأنفسهم كجهد فردي لتدوين مصاحف خاصة بهم، وعُرفت لاحقاً بأسمائهم كمصحف عبدالله بن مسعود، ومصحف أبي بن كعب الأنصاري.

ولابد من التنبيه إلى ضرورة أن نفرّق بين:

○ القرآن: وهو كلام الله ﷻ المنزل على نبيه الأكرم ﷺ.

○ المصحف: القرآن مدوّنًا، أو النسخة المدوّنة من القرآن.

وحديثنا هنا عن المراحل التي مرّ بها القرآن الكريم حتى أصبح مصحفًا

بهذا الشكل الذي بأيدينا اليوم.

وفيما يلي بعض الأخبار التي تحدّثت عن ذلك الظرف الحرج الذي واجهته الخلافة باستشهاد تلك الثلّة من الحفاظ في حرب اليمامة. ففي سنن الترمذي عن عبيد بن السباق أن زيد بن ثابت حدّثه قال: (بعث إليّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال: إن عمر بن الخطاب قد

زيد بن ثابت بن الضحّاك الأنصاري النجاري «ت ٤٥ هـ». صحابي من كتّاب الوحي، روى الحديث، وكُلف من قبل الخلافة بمشروع جمع القرآن في مصحف على عهد الخليفة أبي بكر ثم ضمن مشروع توحيد المصاحف على عهد الخليفة عثمان. كان له موقف معارض لموقف الأنصار في يوم السقيفة وانحاز إلى المهاجرين.

أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ^(١) بقراء القرآن يوم اليمامة، وإنّي لأخشى أن يستحرَّ القتلُ بالقراء في المواطن كلّها، فيذهب قرآن كثير، وإنّي أرى أن تأمر بجمع القرآن^(٢).

قال أبو بكر لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟

١. استحرَّ: اشتدّ وكثر.

٢. المراد هنا من جمع القرآن تدوينه في كتاب واحد، وإلا فإنّ جمع القرآن المدوّن تمّ قبيل وفاة رسول الله كما تؤكّد ذلك بعض النصوص التي سنتعرّض لها تدريجياً.

فقال عمر: هو والله خير.

فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر عمر، ورأيت فيه الذي رأى.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، قد كنت تكتب لرسول الله ﷺ الوحي، فتتبع القرآن.

قال^(١): فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي من ذلك. قال: قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟

فقال أبو بكر: هو والله خير.

فلم يزل يراجعني في ذلك أبو بكر وعمر حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدرهما، صدر أبي بكر وعمر، فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والعُصَب^(٢) والخاف - يعني الحجارة - وصدور الرجال فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٣) (٤).

ولكن في رواية البخاري الشبيهة بالرواية السابقة اختلاف في تحديد السورة وزيادة في شأن المصحف. ففيها أن زيدا قال: (فتتبع القرآن أجمعه

١. والقاتل هو زيد بن ثابت.

٢. عُصَب جمع عسيب: جريدة النخل المستقيمة يُكشَطُ خوصُها.

٣. سورة المائدة: ١٢٨-١٢٩.

٤. الترمذي: السنن، ح ٣١٠٣. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

من العُصب واللعاب وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، ثم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾^(١) حتى خاتمة براءة فكانت المصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه^(٢).

قال ابن حجر في شرح الحديث السابق: (وهذا يدل على أن كثيراً ممن قُتل في وقعة اليمامة كان قد حفظ القرآن، لكن يمكن أن يكون المراد أن مجموعهم جمعه لا أن كل فرد جمعه)^(٣).

وأما عن سبب عدم جمع القرآن على هيئة مصحف أو بتعبير آخر على هيئة كتاب واحد على عهد النبي ﷺ - كما جاء في الخبر - فقد قال المباركفوري: (قال الخطابي وغيره: يحتمل أن يكون ﷺ إنما لم يجمع القرآن في المصحف لما كان ترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاءً لوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة المحمدية، زاده الله شرفاً، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق رضي الله عنه بمشورة عمر)^(٤).

ولربما كان الأصح أن نقول أن الجمع في صورة كتاب لم يتم على عهد النبي ﷺ لأنه كان يحتمل نزول بعض الآيات التي تجعل في طيات السور، لأن

١. سورة التوبة: ١٢٨. وباقي الآية مع الآية الأخيرة من السورة كالتالي: ﴿حَرِصْ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

٢. البخاري: صحيح البخاري، ح ٤٧٠١.

٣. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، في شرح الحديث ٤٧٠١.

٤. المباركفوري: تحفة الأحوذ بشرح جامع الترمذي، شرح الحديث ٣١٠٢.

بعض السور ما كانت تنزل بكاملها في الحدث الواحد، بل روي أن بعض الآيات من سورة ما لربما نزلت بعد سنوات، فأمر الله نبيه أن يجعلها في موضع محدّد بين آيات تلك السورة. فما دام احتمال نزول المزيد من الآيات والسور قائماً، لم يكن من المصلحة كتابة القرآن على هيئة كتاب واحد، لاحتمال ظهور نسخ منه لاحقاً تختلف في عدد سورها وآياتها.

وحول تحديد عدد من قُتل في يوم اليمامة نجد الرواية التالية التي تذكر عدد الأنصار منهم فقط: (عن قتادة قال: ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً أعز يوم القيامة من الأنصار. قال قتادة: وحدثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون. قال: وكان بئر معونة على عهد رسول الله ﷺ ويوم اليمامة على عهد أبي بكر يوم مسيلمة الكذاب)^(١).

وقد التفت ابن حجر وهو يشرح الحديث إلى خللٍ محتمل في الرقم المذكور بخصوص شهداء أحد، لذا قال: («قُتل منهم يوم أحد سبعون» هذا هو المقصود بالذكر من هذا الحديث هنا، وظاهره أن الجميع من الأنصار، وهو كذلك إلا القليل. وقد سرد ابن إسحاق أسماء من استشهد من المسلمين بأحد فبلغوا خمسة وستين، منهم أربعة من المهاجرين: حمزة وعبد الله بن جحش وشماس بن عثمان ومصعب بن عمير).

ثم ذكر بعض الاختلاف البسيط في روايات المؤرخين حول العدد والأسماء ثم قال: (قوله: «ويوم بئر معونة سبعون» سيأتي شرح ذلك قريباً، ويوضح

١. البخاري: صحيح البخاري، ح ٣٨٥٠.

أن الجميع لم يكونوا من الأنصار، بل كان بعضهم من المهاجرين مثل عامر بن فهيرة مولى أبي بكر ونافع بن ورقاء الخزاعي وغيرهما. قوله: «ويوم اليمامة سبعون» قد سرد أسماءهم الذين صنّفوا في الردّة كسيف ووثيمة^(١).

وحيث بيّنا في بحث الردّة قيمة روايات سيف، فلا مجال للوثوق بما يذكر، وأما وثيمة فقد جاء في معجم أسماء الرواة أن الصحيح أنه ابن وثيمة واسمه «زفر بن وثيمة النصري الدمشقي» وقال عنه ابن القطّان: (مجهول الحال)^(٢)، بينما نقل عثمان الدارمي عن ابن معين وعن دحيم أنه ثقة. زاد دحيم: (ولم يلق حكيم بن حزام). وذكره ابن حبان في الثقات^(٣).

ولربما كان قول دحيم أنه لم يلق حكيم بن حزام تعريضاً به، لأنه يروي عن حكيم بلا واسطة! والسؤال: كيف وثّقه وهو يروي وبلا واسطة عن شخص لم يلقه؟ نعم قد يقال بوقوع خطأ بسقوط اسم في البين، والله أعلم.

وفي تفسير ابن كثير أنه: (قُتل من القراء يومئذ قريب من خمسمائة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) فلهذا أشار عمر على الصديق بأن يجمع القرآن؛ لئلا يذهب منه شيء بسبب موت من يكون يحفظه من الصحابة بعد ذلك في مواطن القتال^(٤).

وفي الوقت الذي لا نستطيع فيه الجزم برقم ٧٠ من خصوص الحفاظ

١. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، في شرح الحديث ٢٨٥٠.

٢. أحمد إسماعيل شكوكاني وصالح عثمان اللحام: معجم أسامي الرواة الذين ترجم لهم العلامة محمد ناصر الدين الألباني جرحاً وتعديلاً، ج ٢، ص ٤٥.

٣. ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ٢٨٢.

٤. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٢٦.

من الأنصار فقط، فإن الرقم ٥٠٠ من عموم الحفاظ لاشك مبالغ فيه، فهو يعني بالنظر إلى رواية قتادة وأنس أن عدد من سواهم كان ٤٣٠ شهيداً من الحفاظ! فهل كان بين المهاجرين مثل هذا العدد الحافظ لكل القرآن؟ إلا أن يُقال أن المراد بذلك عدد حفاظ شيء من القرآن لا كل القرآن كما ذكر ابن حجر من قبل، وهذا في حد ذاته غريب، فهل من مسلم لا يحفظ شيئاً من القرآن؟ ويبقى من المحتمل أن يكون المراد حفاظ أجزاء من القرآن، أي لعدد ومقدار كبير من القرآن دون أن يكون بالضرورة حفظاً لكامل القرآن، وبذا يكون الخبر أكثر مقبولة.

وعلى العموم فإن ما يمكن أن يقال في المقام أن عدداً لاقتاً من حفاظ القرآن من المهاجرين والأنصار قد استشهدوا يوم اليمامة، وهو ما استدعى من الخلافة اتخاذ خطوة تدوين المصحف.

• جمع القرآن على عهد النبي:

بالطبع فإن كل ما سبق لا يعني أن القرآن المدون لم يُجمع على عهد رسول الله ﷺ على هيئة صُحُف «الصحف: جمع صحيفة، وهي القطعة من الجلد أو القرطاس يُكتب فيه» وفي مكان واحد، بل بمعنى أنه لم يظهر بصورة كتاب ومجلد ومصحف «المصحف: الصحف أو الأوراق المجموعة بين دفتين، والدفتان هما الجلدان اللذان يُتخذان لجمع الصحف والأوراق.. هذا هو الرأي المشهور.. وفي المقابل هناك رواية يبدو منها أن القرآن قد جُمع بصورة كتاب واحد، وظهر بالتالي بصورة مصحف.. بل كانت هناك عدة مصاحف ونسخ منه على عهده ﷺ.

فعن أبي أمامة قال: (لما كان في حجة الوداع قام رسول الله ﷺ وهو يومئذ مُردف الفضل بن عباس على جمل آدم^(١)، فقال: «يا أيها الناس، خذوا من العلم قبل أن يُقبض العلم، وقبل أن يُرفع»، وقد كان أنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٢).

قال: وكنا قد كرهنا كثيراً من مسألته، واتقينا ذلك حين أنزل الله عز وجل ذلك على نبيه ﷺ. قال: فأتينا أعرابياً فرشونا برداء فاعتم به. قال: حتى رأيت حاشيته خارجة على حاجبه الأيمن. قال: ثم قلنا له: سل النبي ﷺ. فقال له: يا نبي الله، كيف يُرفع العلم منا وبين أظهرنا المصاحف، وقد تعلمنا ما فيها، وعلمناها نساءنا وذرائعنا وخدمنا؟ قال: فرفع النبي ﷺ رأسه وقد علت وجهه حمرة من الغضب. قال: فقال: «أي، ثكلتك أمك، وهذه اليهود والنصارى بين أظهرهم المصاحف لم يصبحوا يتعلقوا منها بحرف مما جاءتهم به أنبياءهم، ألا وإن ذهاب العلم ذهاب حملته». ثلاث مرات^(٣).

وهناك روايات أخرى استشف منها البعض أنها تشير إلى وجود مصحف شريف في المسجد النبوي على عهد رسول الله ﷺ وأنه كان يصلي حيث ذلك المصحف، فقد روى البخاري عن يزيد بن أبي عبيد، قال: (كنت آتي مع سلمة بن الأكوع، فيصلي عند الأستوانة^(٤) التي عند المصحف، فقلت: يا أبا مسلم،

١. أي اشتدت سمرتة.

٢. سورة المائدة: ١٠١.

٣. البيهقي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ح ٩٧٦.

٤. أي العمود الذي يعتمد عليه سقف المسجد.

أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة؟ قال: فإني رأيت النبي ﷺ يتحرى الصلاة عندها^(١).

والإنصاف أن هذه الرواية لا تدل بوضوح على المطلوب، ويبدو أنه بعد تدوين المصحف على عهد الخلفاء وُضعت نسخته عند هذه الاسطوانة في المسجد النبوي، فصار علامة على الاسطوانة التي كان يصلي عندها رسول الله ﷺ، لا أن المصحف كان موجوداً على عهده.

ومثل هذه الرواية رواية البيهقي عن: (جعفر بن محمد بن علي عن أبيه عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال: كانت المصاحف لا تُباع، كان الرجل يأتي بورقة عند النبي ﷺ فيقوم الرجل فيحتسب فيكتب ثم يقوم آخر فيكتب حتى يفرغ من المصحف)^(٢)، حيث لم يقصد ابن عباس أنهم كانوا يستنسخون من المصحف، بل كانوا يستنسخون بحيث أن مجموع ما يكتبونه يشكل المصحف، وإلا كيف بإمكان رجل واحد أن يجلس لفترة زمنية محدودة ويبيده ورقة واحدة فينسخ كل المصحف في تلك الجلسة ليأتي الآخر فينسخ مصحفاً آخر وهكذا؟

وأقصى ما يدل عليه الخبر أن القرآن كان مجموعاً، وأنه كلما نزلت سورة أو مجموعة من الآيات أضيفت إلى المجموعة المدونة فعلاً من السور والآيات السابقة، وأن المسلمين كانوا يستنسخونها من هذه المجموعة المتوفرة أمامهم. أما الرواية التالية عن أبي محرز: (أن عثمان بن أبي العاص، وقد إلى

١. البخاري: صحيح البخاري، ح ٤٨٠ و ح ٥٠٢.

٢. البيهقي: السنن الكبرى، ح ١١٠٦٥.

رسول الله ﷺ مع ناس من ثقيف، فدخلوا على النبي ﷺ فقالوا له: احفظ علينا متاعنا أو ركا بنا. فقال: على أنكم إذا خرجتم انتظروا تموني حتى أخرج من عند رسول الله ﷺ. قال: فدخلت على رسول الله ﷺ فسألته مصحفاً كان عنده، فأعطانيه واستعملني عليهم، وجعلني إمامهم وأنا أصغرهم^(١) فهي - إن صحّت - تدلّ بشكل واضح وصريح على المطلوب، إلا إذا قلنا أنه كان مصحفاً يشتمل على مجموعة من السور القرآنية، لا بمعنى مصحف كامل.

وهكذا لا يتم عندي الاستدلال على المطلب بكلام السيد المرتضى عند دفاعه عن سلامة القرآن من التحريف والنقصان والزيادة حيث قال: (قد بينّا صحة نقل القرآن في المسائل الطرابلسية وأنه غير منقوص ولا مبدّل ولا مُغيّر، وأن العلم بأن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو الذي ظهر على يدي الرسول ﷺ كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المصنّفة المشهورة والأشعار المدونة، وذكرنا ان العناية اشتدت بالقرآن والدواعي توفرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حدٍّ لم يبلغه في نقل الحوادث والوقائع والكتب المصنّفة، لأن القرآن مُعجز النبوة، وأصل العلم بالشرعية والأحكام الدينية، وكل شيء دعا إلى نقل جميع ما تقدم حاصل فيه، ويستبد بدواع إلى النقل ليس في الحوادث وما أشبهها، وأن علماء المسلمين بلغوا في ضبطه وحمايته بأن عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه والقراءات المختلفة في حروفه، حتى فرّقوا بين ما روي وما عُرف، وبين ما لم يُذكر ولم يُسطر، فكيف يجوز أن يكون مغيّراً أو منقوصاً مع هذا العناية الصادقة والضبط الشديد؟

وقد بيّنا في الموضع الذي أشرنا إليه أن القرآن كان على عهد النبي ﷺ مجموعاً مؤلفاً على ما هو عليه الآن. ودلّلنا على صحّة ذلك بأنّه كان يدرّس ويُحفظ جميعه في ذلك الزمان، حتى عيّن النبي ﷺ على جماعة من الصحابة حفظهم له، وأنه كان يُعرّض على النبي ﷺ، وأن الجماعة من الصحابة، منهم ابن مسعود، ختم القرآن على النبي ﷺ عدة ختمات، وكل ما ذكرناه يقتضي عند أدنى تأمل أنه كان مجموعاً مرتّباً، غير منشور ولا مبثوث^(١).

فكلام السيد المرتضى غير صريح في أنه قصد وجود مصحف ومجلد، بل على وجود نسخة كاملة من القرآن المدوّن، فهل كان على هيئة مصحف أم مجموعة من الصحف المرتّبة المجموعة في مكان واحد كالصندوق مثلاً؟ النص السابق لا يبيّن ذلك، بل لعل العبارة الأخيرة تؤيّد الاحتمال الثاني لاسيما بلحاظ أن الشريف المرتضى تجنّب في النص السابق استعمال كلمة مصحف على وجه التحديد.

• مصحف الإمام علي:

ولذا فإنني أستقرب مقولة جمّع القرآن على عهد رسول الله ﷺ في صحف متفرّقة ولكنها مجموعة في مكان واحد، لا مقولة تدوينه بشكل مصحف ومجلد وكتاب واحد، وأنّ أوّل من جمعه على هيئة مصحف وبين دقّتين هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

فالسبب على سبيل المثال في ضمن حديثه عن جمع القرآن وترتيبه ذكر أوّل الرواية التي تتحدّث عن مشروع الخلافة لجمع القرآن في مصحف: (في

١. الشريف المرتضى: الذخيرة في علم الكلام، ص ٣٦١ - ٣٦٤.

جمعه وترتيبه. قال الديرعاقولي في فوائده: حدثنا إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عبيد، عن زيد بن ثابت، قال: قُبِضَ النبي ﷺ ولم يكن القرآن جُمع في شيء. قال الخطابي: إنما لم يجمع ﷺ القرآن في المصحف؛ لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاءً بوعده الصادق بضمن حفظه على هذه الأمة، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر.

وأما ما أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن... الحديث ^(١)، فلا ينال ذلك؛ لأن الكلام في كتابة مخصوصة على صفة مخصوصة، وقد كان القرآن كتب كله في عهد رسول الله ﷺ لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور.

قال الحاكم في المستدرک: جُمع القرآن ثلاث مرات: إحداها: بحضرة النبي ﷺ. ثم أخرج بسند على شرط الشيخين، عن زيد بن ثابت قال كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع.... الحديث. قال البيهقي: يُشبهه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفترقة في سورها، وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ.

الثانية: بحضرة أبي بكر، روى البخاري في صحيحه، عن زيد بن ثابت، قال: أرسل إليّ أبو بكر، مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إنَّ عمر أتاني، فقال: إنَّ القتل قد استحرَّ بقراء القرآن، وإني

١. يبدو أن هذا الخبر وضع لتأييد موقف بعض الخلفاء من منع تدوين الحديث، والبحث في هذا يخرجنا عن غرض الكتاب.

أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

فقلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟

قال عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن.

قلت: كيف تفعّلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟

قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح به صدر أبي بكر وعمر.

ففتبعت القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدّها مع غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ التوبة: ١٢٨ - ١٢٩، حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند

أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر.

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن، عن عبد خير قال:

عَبْدُ خَيْرَ بن يزيد، ويقال: ابن محمد بن خولى الهمداني، قيل أن اسمه عبد الرحمن. أدرك الجاهلية، أسلم في عهد النبي، وشهد مع الإمام علي صفين. روى عن عدد من الصحابة.

سمعت علياً يقول: أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله^(١).

ثم استدرك السيوطي مباشرة وروى ما يدل على أن علياً هو أول من جمع القرآن في مصحف وبما يناقض رواية عبد خير. قال: (لكن أخرج أيضاً من طريق ابن سيرين، قال: قال علي: لما مات رسول الله ﷺ آليت ألا أخذ عليّ ردائي إلا لصلاة جمعة حتى أجمع القرآن. فجمعه)^(٢).

وذكر بعد ذلك السيوطي رأي ابن حجر في ترجيح رواية عبد خير على رواية ابن سيرين لأن الرواية الثانية منقطعة السند^(٣)، قال: (قال ابن حجر: هذا الأثر ضعيف لانقطاعه، وبتقدير صحته، فمراده بجمعه حفظه في صدره، وما تقدم من رواية عبد خير عنه أصح، فهو المعتمد)^(٤).

إلا أن السيوطي لم يرتض قول ابن حجر فردّ عليه قائلاً: (قلت: قد ورد من طريق آخر أخرجه ابن الضريس في فضائله: حدثنا بشر بن موسى، حدثنا هوزة بن خليفة، حدثنا عوف، عن محمد بن سيرين، عن عكرمة، قال: لما كان بعد بيعة أبي بكر قعد علي بن أبي طالب في بيته، فقيل لأبي بكر: قد كره بيعتك، فأرسل إليه، فقال: أكرهت بيعتي؟

قال: لا والله.

قال: ما أقعدك عني؟

١. السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ص ٢٠٧-٢٠٨.

٢. السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ص ٢٠٩.

٣. المنقطع هو ما لم يتصل إسنادُه إلى الراوي.

٤. السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ص ٢٠٩.

قال: رأيتُ كتاب الله يُزاد فيه، فحدّثت نفسي أن لا ألبس ردائي إلا لصلاة حتى أجمعه^(١).

قال له أبو بكر: فإنك نعم ما رأيت.

قال محمد: فقلت لعكرمة: ألفوه^(٢) كما أنزل الأول فالأول؟

قال: لو اجتمعت الإنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا.

وأخرجه ابن أشته في المصاحف من وجه آخر، عن ابن سيرين وفيه: أنه^(٣) كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ، وأن ابن سيرين قال: تطلّبت ذلك الكتاب، وكتبت فيه إلى المدينة، فلم أقدر عليه^(٤).

ثم ذكر السيوطي أقوالاً أخرى حول أول من جمع القرآن في مصحف وبيّن وجهها أو خطأها، قال: (وأخرج ابن أبي داود من طريق الحسن: أن عمر سأل، عن آية من كتاب الله ف قيل: كانت مع فلان، قتل يوم اليمامة. فقال: إنا لله. وأمر بجمع القرآن، فكان أول من جمعه في المصحف. إسناده منقطع. والمراد بقوله: فكان أول من جمعه أي: أشار بجمعه. قلت: ومن غريب ما ورد في أول من جمعه، ما أخرجه ابن أشته في كتاب «المصاحف» من طريق كهَمس، عن ابن بريدة، قال: أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى

١. المعطيات التاريخية الكثيرة تدل على خلاف ذلك، وأنه امتنع عن البيعة لستة أشهر إلى جاء إليه الخليفة عثمان بن عفان يطلب منه البيعة لأبي بكر حتى يخرج الناس لقتال المرتدين بعد امتناعهم من ذلك بسبب موقف الإمام علي من مسألة الخلافة.

٢. لعل الصحيح (ألفه) أي الإمام علي، فهو الذي جمعه مرتباً وفق النزول، فهو الذي كان عنده ذلك وسيأتي معنا من كلام الغرناطي في الصفحات التالية ما يؤكّد ذلك.

٣. أي الإمام علي.

٤. السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، ص ٢٠٩.

أبي حذيفة، أقسم لا يرتدي برداء حتى جمعه، فجمعه، ثم ائتمروا: ما يسمونه؟ فقال بعضهم: سُمُوهُ السُّفْر، قال: ذلك تسمية اليهود، فكرهوه، فقال: رأيت مثله بالحبشة يسمى المصحف، فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف. إسناده منقطع أيضاً، وهو محمول على أنه كان أحد الجامعين بأمر أبي بكر^(١). ولكن كيف يكون أحد الجامعين له بأمر الخليفة بعد مقتل القرّاء يوم اليمامة وهو أحده المقتولين فيها؟

ولنتذكر في هذا المقام ما رواه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة حيث قال: (روى المدائني قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته. فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة مَنْ بها من شيعة علي عليه السلام فاستعمل عليهم زياد ابن سمية وضم إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطرفهم وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم).

وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة^(٢)، وكتب إليهم أن انظروا مَنْ قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم

١. السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ص ٢٠٩.

٢. لإسقاط الشهادة أثر معنوي شديد، فهو اتهام بالفسق، وإسقاط للقيمة المعنوية للمسلم.

أبيه وعشيرته. ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلوات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي. فكثر ذلك في كل مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفّعه. فلبثوا بذلك حيناً.

ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتونني بمناقض له في الصحابة! فإن هذا أحب إليّ وأقر لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله. فقرئت كتبه على الناس، فرُويَت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجد الناس في رواية ما يجري هذا المجرى، حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلّمي الكتاتيب، فعلموا صبيانهم وغلماهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم. فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان انظروا من قامت عليه البيعة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفّع ذلك بنسخة أخرى من اتهمتموه بمولاه هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره. فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ولا سيما بالكوفة، حتى أن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته

فيلقي إليه سرّه و يخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه. فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة. وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراءون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك، فيفتعلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان، فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها^(١).

وقد ذكر غير السيوطي حقيقة أن علياً عليه السلام هو أول جامع للقرآن في مصحف، ومن بينهم ابن جزّي الكلبّي الغرناطي، قال: (وكان القرآن على عهد رسول الله ﷺ متفرّقاً في الصحف وفي صدور الرجال، فلما توفّي رسول الله ﷺ قعد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بيته، فجمعه على ترتيب نزوله، ولو وجد مصحفه لكان فيه علم كبير، ولكنه لم يوجد. فلما قُتل جماعة من الصحابة يوم اليمامة في قتال مسيلمة الكذاب أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضي الله عنه بجمع القرآن مخافة أن يذهب بموت القراء. فجمعه في صحف غير مرتّب السور وبقيت تلك الصحف عند أبي بكر، ثم عند عمر بعده، ثم عند بنته حفصة)^(٢).

وقال ابن النديم في الفهرست: (ترتيب سور القرآن في مصحف أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام قال ابن المنادي: حدثني الحسن بن

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٤-٤٦.

٢. ابن جزّي: التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١، ص ١٢.

العباس، قال أخبرت عن عبد الرحمن بن ابي حماد عن الحكم بن ظهير السدوسي عن عبد خير عن علي عليه السلام أنه رأى من الناس طيرة^(١) عند وفاة النبي ﷺ فأقسم أنه لا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن، فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن، فهو أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه، وكان المصحف عند أهل جعفر. ورأيت أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني رحمه الله مصحفاً قد سقط منه أوراق بخط علي بن أبي طالب يتوارثه بنو حسن^(٢) على مر الزمان^(٣).

وفي كتب الإمامية روايات أخرى تدل على ذات المطلب، ولو صحّت فإنّها توضّح ما جرى أواخر عهد النبي ﷺ وبعد وفاته وبصورة جليّة. ففي تفسير القمي عن أبي بكر الحضرمي: (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ قال لعلي: يا علي، القرآن خلف فراشي في الصحف والحريير والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة. فانطلق علي عليه السلام فجمعه في ثوب أصفر ثم ختم عليه في بيته وقال: لا أرددي حتى أجمعه. فإنّه كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه)^(٤).

والمراد من قوله: (لا أرددي حتى أجمعه) عدم ارتداء الثياب التي يرتديها عند الخروج من المنزل. والتزاماً منه بالوعد الذي قطعه على نفسه امتنع أيضاً عن ارتداء هذه الثياب حتى عند زيارة البعض له في منزله.

١. أي تشاؤماً مما هو قادم مما قد يؤثّر على دينهم.

٢. يتبيّن من بعض الأخبار أن علياً كتب عدة نسخ من المصحف، ولا دليل على أن يكون المصحف المشار إليه هو المصحف الأول الذي كتبه.

٣. ابن النديم: الفهرست، ج ١، ص ٣٠.

٤. القمي: تفسير القمي، ص ٤٥١.

ويبدو من خلال جمع المعطيات التاريخية وبعض الروايات التي استعرضناها وسواها من الروايات أن قوله هذا كان بعد وفاة النبي ودفنه.

• تدوين الكتب السماوية :

تحدث القرآن الكريم عن الكتب السماوية السابقة، وذكر بعضها على وجه التحديد، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾^(١).

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِأَحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾^(٢).

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾^(٣).

كما تحدث عن تدوين بعض تلك الكتب السماوية، حيث قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾^(٤).

فالصُّحُفِ الْأُولَى: كتب الأنبياء السابقين، كما مر علينا في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾^(٥).

والصحف: جمع صحيفة، وهي قطعة من جلد أو كاغد أو خرقة أو غير ذلك يُكْتَبُ فيها. ولما كان الكتاب مجموع صحف، أطلق «الصحف» على الكتب.

١. سورة الأعلى: ١٨-١٩.

٢. سورة آل عمران: ٣-٤.

٣. سورة الإسراء: ٥٥.

٤. سورة طه: ١٣٣.

٥. سورة الأعلى: ١٨-١٩.

كما أن العهد القديم، وهو القسم الأول من الكتاب المقدس عند النصارى، يشتمل على عدة كتب لأنبياء غير التوراة، كالزبور «المزامير»، وأسفار صموئيل وإرميا وحزقيال وزكريا والقضاة ويشوع بن سيراخ وإشعيا وعاموس وعوبديا وناحوم وحبقوق وغيرهم.

وهكذا نجد في القرآن حديثاً عن التدوين على الألواح، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١). وكان إنزال هذه الألواح المكتوبة ضمن الأربعين ليلة التي ذهب فيها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للقاء الله، وهي ليست التوراة كما يظن البعض، إذ لا يمكن للتوراة بكل ما فيها أن تنزل في ألواح مهما تم تصغير الخط فيها وعظم حجم الألواح. كما أن التوراة تشتمل على أحداث ما بعد إنزال الألواح، فكيف اشتملت على ذكر أمر لم يحدث بعد؟

كانت «الوصايا العشر» هي المدونة على تلك الألواح، وهي جزء من التوراة، وفيها بحسب التوراة الحاضرة: (ثُمَّ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ قَائِلاً: «أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعِبُودِيَّةِ.

○ لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمَثَالاً مَنْحُوتاً.....

○ لَا تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهُكَ بَاطِلاً.....

○ اذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ^(٢).....

○ أَكْرَمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ

إِلَهُكَ.

○ لَا تَقْتُلْ.

١. سورة الأعراف: ١٤٥.

٢. هناك تفاصيل كثيرة في هذا النص عن يوم السبت ولم نذكرها طلباً للاختصار.

- لَا تَزْنِ.
- لَا تَسْرِقْ.
- لَا تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةً زُورٍ.
- لَا تَشْتَهَ بَيْتَ قَرِيبِكَ.
- لَا تَشْتَهَ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلَا عَبْدَهُ، وَلَا أَمَتَهُ، وَلَا ثَوْرَهُ، وَلَا حِمَارَهُ، وَلَا شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ»^(١).

ويبدو أن يد التحريف قد طالت هذه الوصايا، فقد أشار القرآن الكريم إلى ما جاء في الوصايا العشر حيث قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

- لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
- وَبِأَلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
- وَذِي الْقُرْبَىٰ
- وَالْيَتَامَىٰ
- وَالْمَسَاكِينِ
- وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا
- وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
- وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ، وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ
- لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ
- وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ»^(٢).

١. العهد القديم: سفر الخروج، الإصحاح ٢٠: ١-١٧.

٢. سورة البقرة: ٨٢-٨٤.

فبالمقارنة لا نجد على سبيل المثال أثراً للزكاة في النص التوراتي للوصايا ونجد تركيزاً غريباً وتطويلاً في الحديث عن التشريعات المتعلقة بيوم السبت بما يفوق الاهتمام بسائر العناوين المذكورة.

وأكد القرآن في موضع آخر على وحدة المسؤوليات مع تعدد الرسالات حيث قال عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ:

- أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
- وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
- وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ
- وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنٌ
- وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

- وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ
- وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُلْ فَنسًا إِلَّا وُسْعَهَا
- وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى
- وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
- وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿لاحظ الربط بين ما أنزل على موسى وعلى النبي للدلالة على وحدة الوصايا﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿.

ولماذا التكرار ما دامت هذه الوصايا قد أنزلت من قبل؟ ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾^(١).

وعلى كل حال، فإن تلك الوصايا العشر كانت مدونة على تلك الألواح، فهل نزلت مدونة أم سمعها موسى عليه السلام فدونها على الألواح؟

النص التوراتي يقول: (ثُمَّ أُعْطِيَ مُوسَى عِنْدَ فَرَاعِهِ مِنَ الْكَلَامِ مَعَهُ فِي جَبَلٍ سَيْنَاءَ لَوْحِي الشَّهَادَةِ: لَوْحِي حَجَرٍ مَكْتُوبَيْنِ بِإِصْبَعِ اللَّهِ... فَأَنْصَرَفَ مُوسَى وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ وَلَوْحَا الشَّهَادَةِ فِي يَدِهِ: لَوْحَانِ مَكْتُوبَانِ عَلَى جَانِبَيْهِمَا. مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا كَانَا مَكْتُوبَيْنِ. وَاللُّوْحَانِ هُمَا صَنْعَةُ اللَّهِ، وَالْكِتَابَةُ كِتَابَةُ اللَّهِ مَنْقُوشَةٌ عَلَى اللَّوْحَيْنِ)^(٢).

ونلاحظ هنا التعبير بالمشى، بينما في القرآن جاء بصيغة الجمع، وقد حاول بعض المفسرين التوفيق بين النصين من خلال كون الكتابة على الجانبين، فهذا يعني بمثابة أربعة ألواح، أو لأن الإثنين أقل الجمع.

ثم نتحدث التوراة عن تحطم الألواح في لحظة غضب موسى عليه السلام كما تحدث عنها القرآن، ولكن التوراة تضيف أمراً آخر حيث تقول: (ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: انْحَتْ لَكَ لَوْحَيْنِ مِنْ حَجَرٍ مِثْلَ الْأَوَّلَيْنِ، فَأَكْتُبَ أَنَا عَلَى اللَّوْحَيْنِ

١. سورة الأنعام: ١٥١-١٥٧.

٢. العهد القديم: سفر الخروج، الإصحاح ٣١: ١٨، والإصحاح ٣٢: ١٥-١٦.

الْكَلِمَاتِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى اللُّوحَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ اللَّذَيْنِ كَسَرْتَهُمَا^(١) . وليس في القرآن شيء من هذا، بل قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ... وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾^(٢) .

كما تحدّث القرآن عن تدوين التوراة على القرطاس، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾^(٣) . والقرطاس: الصحيفة من أي شيء كانت، من رَقٍّ أو كَاغِدٍ أو خرقة، والمعنى: أي تجعلون الكتاب الذي أنزل على موسى أوراقاً متفرقة قصداً لإظهار بعضها وإخفاء بعض آخر.

ولكن هل نزلت التوراة مدونة، أم كانت شفوية ثم دُوِّنت؟ النص التالي في التوراة يدل على القول الثاني. فبعد نصوص كثيرة عن كلام الله عَزَّوَجَلَّ الموحى إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والتعاليم النازلة عليه يقول: (وَكَتَبَ مُوسَى هَذِهِ التَّوْرَةَ وَسَلَّمَهَا لِلْكَهَنَةِ بَنِي لَاوِي حَامِلِي تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ، وَلِجَمِيعِ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ.... وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «هُذَا أَيَّامُكَ قَدْ قَرُبَتْ لَكِي تَمُوتَ. ادْعُ يَشُوعَ، وَقِفْ فِي خِيَمَةِ الْاجْتِمَاعِ لَكِي أُوصِيَهُ». فَاَنْطَلَقَ مُوسَى وَيَشُوعُ وَوَقِفَا فِي خِيَمَةِ الْاجْتِمَاعِ... فَعِنْدَمَا كَمَلَ مُوسَى كِتَابَةَ كَلِمَاتِ هَذِهِ التَّوْرَةِ فِي كِتَابٍ إِلَى تَمَامِهَا، أَمَرَ مُوسَى اللَّادِيَيْنِ حَامِلِي تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ قَائِلًا: «خُذُوا كِتَابَ التَّوْرَةِ هَذَا وَضَعُوهُ بَجَانِبِ تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ إِلَهُكُمْ، لِيَكُونَ هُنَاكَ

١. العهد القديم: سفر الخروج، الإصحاح ٣٤ : ١ .

٢. سورة الأعراف: ١٥٠-١٥٤ .

٣. سورة الأنعام: ٩١ .

شَاهِدًا عَلَيْكُمْ. لِأَنِّي أَنَا عَارِفٌ تَمَرُّدَكُمْ وَرِقَابَكُمْ الصُّلْبَةَ. هُوَذَا وَأَنَا بَعْدُ حَيٍّ مَعَكُمْ الْيَوْمَ، قَدْ صَرْتُمْ تَقَاوُمُونَ الرَّبَّ، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ بَعْدَ مَوْتِي! اجْمَعُوا إِلَيَّ كُلَّ شُيُوخِ أَسْبَاطِكُمْ وَعُرَفَاءِكُمْ لِأَنْطِقَ فِي مَسَامِعِهِمْ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَأَشْهَدَ عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ. لِأَنِّي عَارِفٌ أَنَّكُمْ بَعْدَ مَوْتِي تَفْسُدُونَ وَتَزِيغُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ، وَيُصِيبُكُمُ الشَّرُّ فِي آخِرِ الْأَيَّامِ لِأَنَّكُمْ تَعْمَلُونَ الشَّرَّ أَمَامَ الرَّبِّ حَتَّى تَغِيظُوهُ بِأَعْمَالِ أَيْدِيكُمْ»^(١).

ومن غير المستبعد أن يكون الإنجيل وغيره من الكتب السماوية التي سبقت القرآن الكريم قد نزلت شفوية ثم دُوِّنت في الأثناء أو بعد الانتهاء من نزولها بكاملها، فتحوّلت إلى «صُحُف» بحسب التعبير القرآني، أو إلى «أسفار» بحسب التعبير الوارد عند أهل الكتاب والذي استعمله أيضاً القرآن الكريم حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢). والمؤدَّى واحد.

نعم، قد يتمسك البعض بأن القرآن عبّر عنها بكلمة «كتاب»، مما يدل على أنها نزلت مدونة، ولكن التدقيق في استعمال هذه الكلمة في القرآن لا يدل على ذلك، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ بخصوص القرآن نفسه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣). ونحن نعلم أنه لم ينزل مدوناً، حيث قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ كِتَابٍ فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا

١. العهد القديم: سفر الخروج، الإصحاح ٢٢: ٩-٢٩.

٢. سورة الجمعة: ٥.

٣. سورة البقرة: ٢.

سَحَرٌ مُبِينٌ^(١). ولنلاحظ قوله: ﴿كَتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ فالكتاب هو المضمون لا النسخة المدونة.

وهكذا يدل على المطلوب قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّهُ لَتَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(٢).

وللتوراة المتداولة عدة نسخ، بينها اختلافات، كما وقعت المزيد من الاختلافات نتيجة الترجمة من لغة إلى أخرى، كما أن للإنجيل المتداول عدة نسخ، بينها اختلافات كبيرة، كما وقعت المزيد من الاختلافات نتيجة الترجمة من لغة إلى أخرى، وجانب مهم من هذه الاختلافات يعود إلى أن تاريخ تدوين ما بأيدي الناس من نسخ للتوراة والإنجيل جاء متأخراً عن عهد النبيين الكريمين.

فعندما غزا البابليون في القرن السادس قبل الميلاد بقيادة نبوخذ نصر ديار بني إسرائيل، هدموا الهيكل وأحرقوا كتب اليهود، بما في ذلك التوراة، وكثير من كتب العهد القديم، وأخذوا معهم اليهود أسرى إلى بابل.

وبعد عدة سنوات سقطت دولة البابليين على يد الإمبراطور الفارسي كورش، وتمت إعادة اليهود إلى ديارهم، وإعادة بناء هيكلهم

مؤسس الدولة الإخمينية، «ت ٥٢٩ ق.م.» فتح آسيا الصغرى وبابل وميديا، ويؤكد بعض الباحثين أنه هو ذو القرنين المذكور في القرآن. أثنى عليه اليهود في كتبهم المقدسة لأنه كان مخلصهم من السبي البابلي.

١. سورة الأنعام: ٧.

٢. سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥.

يقول الدكتور بولس الفغالي في كتابه المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم أن عزرا كان كاهناً في فترة السبي، ومستشاراً لحكومة فارس من أجل الشؤون اليهودية. وتُسبب إليه كتب عديدة. توفي عزرا سنة ٤٤٠ ق.م.

بأمر وتمويل من كورش نفسه، إلا أن قسماً من اليهود فضلوا البقاء في بابل. وفي تلك الفترة قام عزرا الكاتب بإعادة كتابة التوراة، وفي ذلك يقول القس «أنطونيوس فكري»: (وظيفة عزرا الكاتب:

أ. إعادة الشعب اليهودي كشعب له شريعة الله تحكمه. وهو وضع

للشعب قوانين تحكمه بحسب ناموس موسي والأنبياء فهو كان مفوضاً من ملك فارس بصلاحيات خاصة بذلك والصورة التي أعادها عزرا للشعب استمرت حتى أيام المسيح.

ب- ترتيب وتجميع الأسفار المقدسة. خصوصاً بعد أن ضاع كل شيء خلال السبي.

عزرا والكتاب المقدس:

أ. أعاد عزرا تجميع كل الكتاب المقدس «العهد القديم»، واليهود والمسيحيين ينسبون له هذا الفضل. وهذا رأي كثير من الآباء أن عزرا هو الذي جمع أسفار العهد القديم مثل باسيليوس وترتليانوس وإيريناوس وغيرهم.

ب- هو جمع الأسفار وحذف ما هو غير قانوني، وقسم الأسفار إلى ٣ أقسام، هي الناموس والأنبياء والكتب المقدسة «هاجيوجرافا». وإلى

هذا التقسيم أشار السيد المسيح فقال: ناموس موسى والأنبياء والمزامير، فكانت المزامير أول كتاب في قسم الكتب المقدسة، ولشهرة المزامير سميت الكتب بالمزامير.

ج- عزرا الذي كتب سفره بإرشاد ووحى الروح القدس، وجمع الكتب القانونية بإرشاد الروح قام أيضاً - بإرشاد الروح القدس - بإضافة بعض الشروحات لما كان غامضاً مثل «الإصحاح الأخير لسفر التثنية + تك ١٢: ٦ + ١٤: ٢٢ + ٣: ٣٦ + خر ١٥: ٣٥ + تث ١٢: ٢ + ١١: ٣ + ١٤: ١ + أم^(١) ١: ٢٥ وهناك إضافات كثيرة توجد بين أقواس، فهو كان يضيف ويشرح بوحى من الروح القدس.

د- هو أيضاً غير أسماء بعض الأماكن التي اشتهرت بأسماء جديدة، وأزال الأسماء التي لم تعد تستخدم ليفهم الناس المعاصرين مثال: تك ١٤: ١٤ كان «لايش» هو الاسم القديم للمنطقة التي سميت «دان» فيما بعد.

هـ- هو جمع الأسفار المقدسة التي استطاع أن يجمعها بعد السبي وقابلها بغاية الدقة واعتمد النسخة الموجودة بين أيدينا الآن. وهو أضاف سفري أخبار الأيام والسفر المنسوب له أي سفر عزرا. فهو صار كائنا سيوس الذي أعاد

بطريك الإسكندرية في القرن الرابع الميلادي. ولد من أبوين وثنيين، وتبنّى عقيدة التثليث بقوة، وواجه عقيدة التوحيد لدى النصارى بقيادة أريوس، وتبنّى الإمبراطور الروماني قسطنطين عقيدته في مجمع نيقية، وحُكم على أريوس وأتباعه بالهرطقة.

١. تك: سفر التكوين - خر: سفر الخروج - تث: سفر التثنية - أم: سفر الأمثال.



مخطوطات أو لفائف البحر الميت وتشتمل على التوراة وكتب أخرى من العهد القديم، وتعود إلى ما بين القرن الثاني والأول قبل الميلاد. وهي أقدم مخطوطة متوفرة للتوراة إلى حد الآن. نعم يدّعي السامريون «السامرة» بأن لديهم أقدم نسخة للتوراة وتعود إلى ٣٠٠٠ عام.

الدين لصحته بعد أن شوهه أريوس. وعزرا أعاد الكتاب المقدس بعد أن ضاع الكثير وأضاف الشعب الكثير من الأسفار المزورة. ولقد أحب الشعب عزرا لغيرته وتقواه. واعتبروه في مقام موسى. بل هناك قول يهودي أن موسى لو لم يأخذ الناموس لكان عزرا هو الذي استحق هذا عن جدارة^(١).

١. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/15-Sefer-Ezra/Tafseer-Sefer-Ezra__00-introduction.html

أما بالنسبة إلى الأناجيل المدونة والمتداولة اليوم، فيقول القس «فهم عزيز» الأستاذ بكلية اللاهوت الإنجيلية: (كانت أول مجموعة عرفتها الكنيسة من العهد الجديد هي مجموعة رسائل بولس^(١) فهي أول ما جُمع من كل كتب العهد الجديد... أما المجموعة الثانية: فهي مجموعة الأناجيل الأربعة، وقد ظهرت هذه المجموعة متأخرة بعض الوقت عن مجموعة كتابات بولس)^(٢).

ولذا فقد أرّخ القس عزيز ظهور الأناجيل وأسفار العهد الجديد ما بين ١٠٠-١٧٠م، أي بعد رفع المسيح بحسب التأريخ المسيحي بحدود ٦٧ سنة على الأقل. بالطبع هذا لا يعني أن الإنجيل لم يكن مدوناً على عهد المسيح عليه السلام، ولكن كلامنا في النسخ المتداولة منه اليوم، وهي أربعة، وقد كانت أكثر من ٣٠٠ نسخة مختلفة، ولكنها ألغيت من الاعتبار في المجمع المسكوني الذي عُقد في نيقية سنة ٣٢٥م على أساس التصويت.

جاء في قاموس الكتاب المقدس: (أقدم المخطوطات الموجودة الآن هي من مجلدات البردي ثم تحوّلت من القرن الرابع إلى مجلدات من الرقوق الجلدية. وقبل اختراع الطباعة بوقت قصير أفسحت الرقوق الجلدية المكان للورق في العالم الغربي. والخلاصة أن الأسفار الأصلية كانت على شكل لفائف أو مجلدات من البردي، وفي القرنين الثاني والثالث كانت على شكل مجلدات من البردي، أما في القرن الرابع فأصبحت على شكل

١. وهي ليست من الأناجيل الأربعة، بل ملحقة بها، لأن بولس هذا تبع السيد المسيح بعد رفعه، وليس هو بكتاب الإنجيل، بل هذه رسائل خاصة به.

٢. فهم عزيز: المدخل إلى العهد الجديد، ص ٢١٨.



نسخة من الإنجيل مدوّنة على البردي وموجودة ضمن مخطوطات مكتبة تشستر بيتي Chester Beatty في دبلن - إيرلندا.

مجلدات من الرقوق مع بعض المجلدات من البردي التي ظلت مستخدمة حتى القرن السابع... جميع ما وصلنا من أقدم المخطوطات اليونانية للعهد الجديد، مسجّل على ورق البردي، ويرجع تاريخها إلى الفترة من منتصف القرن الثاني الميلادي حتى القرن الرابع^(١).

• من حفظ القرآن إلى تدوينه :

نزل القرآن الكريم بصورة غير مدوّنة، كما مرّ بنا، واهتمّ النبي ﷺ وأصحابه بحفظ ما ينزل من آياته وسوره عن ظهر غيب، وكانوا يتدارسونه

بصورة متواصلة، كما كانوا يتلونه في صلواتهم وفي مجالسهم. قال الشيخ أبو الحسن الشعراني: (كان عدد حفاظ القرآن في عهد النبي ﷺ يفوق التواتر، ورغم أنهم جميعاً لم يحفظوا كل السور، إلا أنه كان لكل سورة جُمٌّ غفير من الحُفَاط) ^(١).

وقد روى المؤرخون أن النبي ﷺ بعث مع أهل المدينة مصعب بن عمير، وأمره بأن يُقرِّئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويُفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ في المدينة.

وفي صحيح البخاري: (عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس) ^(٢).

وكان النبي ﷺ يوجه أصحابه إلى أن تعليم القرآن واجب شرعي لذا فينبغي أن يكون بلا مقابل مادي، فعن عبادة بن الصامت قال: (كان رسول الله ﷺ يُشْغِل، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن. فدفع إلي رسول الله ﷺ رجلاً وكان معي في البيت أعشيه عشاء أهل البيت، فكنت أقرئه القرآن فانصرف انصرافاً إلى أهله فرأى أن عليه حقاً، فأهدى إلي قوساً لم أر أجود منها عوداً ولا أحسن منها عطفاً، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: ما ترى يا رسول الله فيها؟ قال: جمرة بين كتفيك تقلدتها أو تعلقتها) ^(٣).

١. الشعراني: مقدمة تفسير منهج الصادقين لفتح الله الكاشاني.

٢. البخاري: صحيح البخاري، ح ٣٧١٠.

٣. محمود محمد خليل: المسند الجامع، ح ٤١٨٤.

وهذه صورة أخرى يقدّمها عبادة بن الصامت حيث قال: (وكان يُسمَع لمسجد رسول الله ﷺ ضجّة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يُخفّضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا) ^(١).

كما اهتم النبي ﷺ بتعليمهم معاني الآيات وما فيها من أحكام وتعاليم وغير ذلك. عن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب: (أن رسول الله ﷺ كان يُقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعاً) ^(٢).

ولكن بموازاة ذلك، اعتنى النبي الأكرم ﷺ بتدوين ما كان ينزل عليه الوحي خلال العهدين المكي والمدني، وأخذ لنفسه عدداً من الكتاب، وأطلق عليهم لاحقاً عنوان «كتاب الوحي».

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا التدوين بقوله جلّ وعلا: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً، فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ ^(٣). ولربما كان هذا هو المقصود من قوله جلّ وعلا: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَن شَاءَ ذَكَرْهُ، فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ ^(٤).

ولا نملك نصّاً يحدد لنا أول ما كُتب من القرآن، إلا أن خبر إسلام الخليفة عمر بن الخطاب في السنة الخامسة للبعثة يشتمل على ذكر صحيفة مدوّنة فيها سورة طه.

١. الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢٤١.

٢. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١، ص ٥٠.

٣. سورة البينة: ٢-٢.

٤. سورة عبس: ١١-١٦.

حَبَّابُ بن الأَرْتِ التَّمِيمِي «ت ٢٧ هـ»، صحابي من السابقين إلى الإسلام، وكان من المستضعفين الذين عُدُّوا في هذا الطريق. سُبِيَ صغيراً من قبيلته بني تميم، وبيع في مكة فاشتريته أم أنمار الخزاعية التي كانت حليفة لبني زُهرة من قريش. ثم هاجر إلى المدينة وشهد مع النبي المشاهد كلها، ثم انتقل أواخر حياته إلى الكوفة، فمات بها، ودُفِن هناك.

نُعَيْم بن عبد الله بن أسيد القرشي العدوي الملقَّب بالِنْحَام. أسلم قبل هجرة الحبشة، وكان يكتُم إسلامه، وأقام بمكة وقدم مهاجراً إلى المدينة سنة ست، ومعه أربعون من أهله.

روى أحمد بن حنبل في خبر طويل: (وكان حَبَّاب بن الأَرْتِ يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه، فذكر له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين من رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق بن أبي قحافة، في رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقاه نُعَيْم بن عبد الله فقال له:

أين تريد؟

قال: أريد محمداً، هذا الصابيء الذي قد فرَّق أمرَ قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها، فأقتله.

فقال له نعيم: والله، لقد غرَّتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قال: وأي أهل بيتي؟

قال: خَتْنُكَ^(١) وابن عمك

سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما.

فرجع عمر عامداً لختنه

وأخته، وعندهما خباب بن الأرت

معه صحيفة فيها «طه» يقرئها إياها، فلما سمعوا حسَّ عمر تغيب خباب ابن الأرت في مخدعٍ لعمر، أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءته عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينة^(٢) التي سمعتها؟ قالوا: ما سمعت شيئاً.

قال: بلى، والله لقد أخبرت عما تابعتما محمداً على دينه.

وبطش بختنه سعيد بن زيد، وقامت إليه فاطمة أخته لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك، قالت له أخته وختنه: نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

ولما رأى عمر ما بأخته من الدَّمِ ندم على ما صنع، فارعوى وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأن أنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد؟

١. ختنك: صهرك.

٢. هينة: صوت خفي وكلام غير مفهوم.

سعيد بن زيد القرشي العدوي «ت ٥١ هـ» من السابقين الأولين إلى الإسلام، قيل كان أبوه زيد من الأحناف الموحدين في الجاهلية؛ وأخته عاتكة بنت زيد زوجة عمر، وزوجته هي أخت عمر فاطمة بنت الخطاب.

وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها.

قال: لا تخاف. وحلف لها بآلهته ليردنها إليها إذا قرأها.

فلما قال لها ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر.

فقام عمر فاغتسل، ثم أعطته الصحيفة، وفيها «طه» فقرأها...^(١).

وعند جمع الروايات المختلفة فإننا سنجد أن المسلمين كانوا يدونون القرآن على عهد رسول الله ﷺ على:

- الشَّظَاظ: الشَّظِيَّة: شَقَّةٌ مِنْ خَشَبٍ أَوْ قَصَبٍ أَوْ عَظْمٍ.
- الرُّقَاع: الرُّقْعَةُ: قِطْعَةٌ مِنَ الْوَرَقِ أَوِ الْجِلْدِ يَكْتُبُ فِيهَا.
- الأَضْلَاع: الضِّلْعُ: الْعُودُ فِيهِ اعْوْجَاجٌ وَعَرَضٌ.
- الأَسْيَار: قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ مِنَ الْجِلْدِ.
- الألواح: اللُّوح: كُلُّ صَفِيحَةٍ عَرِيضَةٍ مِنْ خَشَبٍ أَوْ غَيْرِهِ.
- اللَّخَاف: صَفَائِحُ الْحِجَارَةِ.
- الْعُسْبُ: الْعَسِيبُ: جَرِيدَةُ النَّخْلِ الْمُسْتَقِيمَةِ يُكْشَطُ خُوصُهَا.
- الْأَكْتَاغ: الْكَتْفُ: عَظْمٌ عَرِيضٌ خَلْفَ الْمَنْكَبِ.
- الْأَقْتَاب: الْقَتَبُ: الرَّحْلُ الصَّغِيرُ عَلَى قَدَرِ سَنَامِ الْبَعِيرِ.
- الْأَدِيم: جِلْدٌ مَدْبُوعٌ.
- الْقِرَاطِيس: الْقِرْطَاسُ: صَحِيفَةٌ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَتْ.
- الرَّقُّ: جِلْدٌ رَقِيقٌ يُكْتُبُ فِيهِ.

١. أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ج ٢٩٦.

- الحرير: قماش أو ورق أو رقوق ناعمة مسوأة.
- الصُّحُف: الصحيفة: قطعة من جلد أو كاغذ أو خرقة أو غير ذلك يُكتب فيها.

وكما ذكرنا من قبل، فقد اتخذ النبي ﷺ لنفسه كتاباً يكتبون القرآن، ولا نملك خبراً يوضح لنا بالدقة من هو أول من كتب شيئاً من القرآن في مكة المكرمة، وإن كان لا يبعد أن يكون علياً عليه السلام لكونه أول من أسلم، ولأنه أقرب الناس لنبي الله وأكثرهم التصاقاً به، وكان يقرأ ويكتب.

أَبِيّ بن كعب بن قيس الأنصاري الخزرجي «ت ٣٠ هـ أو قبل ذلك». شهد بيعة العقبة الثانية، وشهد مع النبي المشاهد كلها. جمع أبيّ بن كعب القرآن، وعرضه على النبي في حياته.

وأما في المدينة المنورة فقد روى الواقدي أن أباّ بن كعب الأنصاري كان أول الأنصار الذي كتبوا القرآن في المدينة بعد الهجرة: (أول من كتب لرسول الله ﷺ مقدمه المدينة: أبيّ بن كعب الأنصاري،

وهو أول من كتب في آخر الكتاب «وكتب فلان»، فكان أبيّ إذا لم يحضر دعا رسول الله ﷺ زيد بن ثابت الأنصاري، فكتب له، فكان أبيّ وزيد يكتبان الوحي بين يديه، وكتبه إلى من ي كاتب من الناس، وما يقطع^(١)، وغير ذلك^(٢). ولا نعرف من كتب شيئاً من القرآن الكريم في المدينة في الفترة التي سبقت الهجرة، وكان مصعب بن عمير مبعوثاً إليهم من قبل رسول الله ﷺ يعلمهم القرآن وأحكام الدين ومعارفه.

١. أي إذا أعطى النبي لأحد قطعة أرض أو بيت أو غير ذلك، تم تدوين ذلك الأمر.

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ح ٦٦٢.

وهكذا تمّ تدوين القرآن الكريم أو بعضه من قِبَل عدّة من الصحابة، وجاءت بعض المصادر بأسمائهم كالتالي:

١. الإمام علي بن أبي طالب.
٢. أبي بن كعب.
٣. زيد بن ثابت.
٤. عبد الله بن أرقم.
٥. علاء بن عقبة.
٦. الزبير بن العوام.
٧. جهم بن الصلت.
٨. حذيفة بن اليمان.
٩. معيقب بن أبي فاطمة.
١٠. خالد بن سعيد.
١١. حنظلة بن ربيع.
١٢. عبد الله بن سعد بن أبي السرح.
١٣. أبو بكر بن أبي قحافة.
١٤. عمر بن الخطاب.
١٥. عثمان بن عفان.
١٦. عامر بن فهيرة.
١٧. ثابت بن قيس.
١٨. معاوية بن أبي سفيان.
١٩. المغيرة بن شعبة.

٢٠. خالد بن الوليد.
٢١. العلاء الحضرمي.
٢٢. عمرو بن العاص.
٢٣. عبد الله بن رواحة.
٢٤. محمد بن مسلمة.
٢٥. شرحبيل بن حسنة.
٢٦. معاذ بن جبل.
٢٧. عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول.
٢٨. أبان بن سعيد.

قال د. صبحي الصالح: (وكان كل ما يُكْتَب يُوَضَّع في بيت النبي ﷺ وَيُنسخ الكتاب منه لأنفسهم نسخةً منه) ^(١).

• أسلوب النبي في التدوين:

كان النبي حريصاً على أن يكون ما يدوّنهُ كُتّاب الوحي صحيحاً ومطابقاً لما علّمهم إياه، ولذا كان يطلب من الكاتب أن يقرأ عليه كل ما كتب، فإذا وجد في ذلك خللاً أقامه، وإذا تمّت الكتابة بشكل كامل وسليم سمح بأن تخرج النسخة إلى سائر المسلمين ليقروا منها أو يستنسخوا. وفي وصف هذا الأسلوب النبوي في التدوين نجد الرواية التالية عن زيد بن ثابت قال: (كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ وهو يُملي عليّ، فإذا فرغتُ قال: اقراه، فأقرؤه، فإن كان فيه سقطُ أقامه، ثم أخرجُ به إلى الناس) ^(٢).

١. الصالح: علوم القرآن، ص ٧٢-٧٤.

٢. الطبراني: المعجم الكبير، ص ١٦٥.

وفي الكافي رواية تدل على أن ما كان يكتبه الإمام علي عليه السلام أشمل من الآيات والصور، فعنه عليه السلام أنه قال: (.... فما نزلت على رسول الله ﷺ آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها علي، فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله تبارك وتعالى، ولا علماً أملاه لي وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا) ^(١).

• توحيد المصاحف:

بعد رحيل رسول الله ﷺ تم مشروع الإمام علي عليه السلام بكتابة مصحف خاص به، كما قامت الخلافة بعد ذلك بكتابة مشروعاتها الخاص والذي تحدث عنه في بداية البحث، كما أشرت إلى قيام بعض الصحابة بكتابة مصاحف خاصة بهم. قال ابن أبي داود: (جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر، فكان رجال يكتبون، ويملي عليهم أبي بن كعب) ^(٢).

واختلفت النسخ المتداولة المستنسخة من هذه المصاحف بحسب جهد كل صاحبي في خطه وأسلوب كتابته وجمعه وترتيبه للصور وما إلى ذلك من شؤون التدوين، وهو ما أثار بعد سنوات حفيظة حذيفة بن اليمان على ما هو مروى، فوفد من الكوفة إلى المدينة، ودخل على الخليفة عثمان، وشرح له المشكلة، فطلب النسخة الموجودة عند أم المؤمنين حفصة، وشكل لجنة من بعض الصحابة الشباب: زيد بن ثابت «٣٦ سنة»، وعبدالله بن الزبير «٢٣ سنة» وسعيد بن العاص «٢٢ سنة» وعبدالرحمن بن الحارث «٢٢ سنة» لتقوم

١. الكليني: الكافي، ج ١، ص ٦٢.

٢. ابن أبي داود: المصاحف: ص ١٥٤.

بكتابة مصحف يكون المصدر لسائر المصاحف. ولما لم تستطع اللجنة تنفيذ المطلوب، تمت الاستعانة بعبد الله بن عباس وأبي بن كعب وبآخرين، فكان أبي هو المملي ويكتب الآخرون، وذلك في السنة الرابعة والعشرين للهجرة، وتم المشروع في السنة اللاحقة.

وقد روى ابن أبي داود أن الخليفة عثمان خطب في الناس قائلاً: (أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون، فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافاً وأشدّ لحناً، فاجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً)^(١). ويقصد بالإمام المصحف الذي سيكون مصدر الاستنساخ عنه بعد مصادرة النسخ المنتشرة بين الناس، ولذا عُرف هذا المصحف لاحقاً باسم المصحف الإمام.

وهكذا، استدعت الخلافة كل النسخ المتداولة للمصحف في الأقطار الإسلامية، وتمّ محوها وإحراقها، واعتماد هذه النسخة الجديدة، والاستنساخ عليها ست نسخ أخرى^(٢)، وتم إبقاء النسخة الأم في المدينة، وأُرسلت باقي النسخ إلى الأمصار: الكوفة والبصرة ومكة والشام والبحرين واليمن، على أن يقوم الناس في تلك الأمصار بالاستنساخ من تلك النسخة المركزية.

وقد روي عن علي عليه السلام موافقته لهذا المشروع حيث قال: (فوالله ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا. استشارنا في أمر القراءات... قلنا: فماذا رأيت؟ قال: أرى أن يُجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت)^(٣).

١. ابن أبي داود: المصاحف: ص ٢٠٥.

٢. وقيل ثمانى نسخ.

٣. ابن أبي داود: المصاحف، ص ٢٢.

وفي رواية أخرى: (لو وليت في المصاحف ما ولي عثمان لفعلت كما فعل)^(١).

وقد انزعج عبد الله بن مسعود من المشروع لأنه كان يرى أنه أولى بالاستعانة به حيث قال: (يا معشر المسلمين، أَعْزَلْ عن نسخ المصاحف ويتولاها رجل، والله أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر)^(٢)، ثم رفض تسليم مصحفه، وروى اليعقوبي في تاريخه أنه تعرض للضرب وجُرَّ برجله حتى كُسِرَ له ضلعان^(٣)!

ومنذ ذلك اليوم أصبحت النسخة المتوفرة من المصحف بأيدي الناس هي نسخة «المصحف العثماني»، ويمكن تسجيل الملاحظات التالية بخصوصها:

الملاحظة الأولى: رُتبت على أساس أن تكون الفاتحة أولاً ثم السور السبع الطوال ثم المثني ثم المثاني ثم المفاصلات ثم قصار السور. ولم تُوفق اللجنة كلَّ التوفيق في هذا، حيث تصوروا أن سورة الأنفال المكوّنة من «٧٥» آية مع سورة التوبة «١٢٩» آية عبارة عن سورة واحدة، وذلك لعدم وجود البسملة أول سورة التوبة، وبالتالي تصوّروا أن مجموع ما بين أيديهم هو «٢٠٤» آية، ولذا وضعوهما مع السور الطوال، فقَبَلها سورة الأعراف المكوّنة من «٢٠٦» آية، وبعدها سورة يونس المكوّنة من «١٠٩» آية.

الملاحظة الثانية: اشتملت نسخة المصحف - بحسب الظاهر - على أخطاء وتناقضات إملائية لم تؤثر على الأصل القرآني، لأن الناس قد حفظوا ما هو الصحيح والمراد من تلك الكلمات.

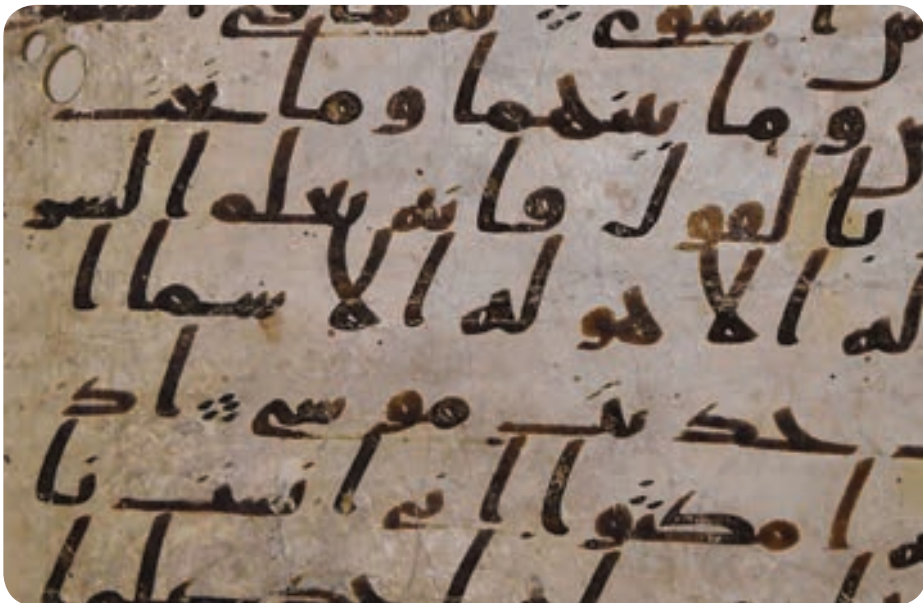
١. ابن أبي داود: المصاحف، ص ٢٢.

٢. ابن حجر: فتح الباري، ج ٩، ص ١٧.

٣. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥٩-١٦٠.



لعل هذه هي أقدم نسخة متوفرة من صفحات من المصحف الشريف وتعود إلى قبل ١٣٧٠ سنة وكتبت بالخط الحجازي، وموجودة في جامعة برمنجهام. بريطانيا، وفي الأسفل صورة مقرّبة منها.



عبد الله بن السائب القرشي المخزومي. عاصر النبي صغيراً، وقرأ القرآن على أبي بن كعب، وحدث عنه أيضاً. توفي ما بين ٦٤-٧٣ هـ.

المغيرة بن أبي شهاب القرشي المخزومي «ت ٩١ هـ»، أخذ قراءة القرآن عن الخليفة عثمان.

أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب بن ربيعة السلمي «ت ٧٤ هـ». كان أعمى. وأخذ القرآن عن الإمام علي والخليفة عثمان وابن مسعود وأبي بن كعب.

أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري «ت ٤٤ هـ»، حفظ القرآن وعلمه للناس في البصرة والكوفة، وقد تأثر الخوارج به كثيراً وأجبروا الإمام علياً أن يختاره للتحكيم بعد صفين.

وروي أن الخليفة عثمان بن عفان أشار إلى ذلك حين راجع نسخة المصحف بعد الانتهاء من المشروع حيث قال: (قد أحسنتم وأجملتم، أرى فيه شيئاً من اللحن^(١))، لكن ستقيمه العرب بألسنتها. ثم قل: لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف، لم يوجد فيه هذا^(٢).

ولو صحّ هذا عنه، فإنه سيرد عليه الإشكال: لماذا لم يقيم بتكليف رجال من هذيل وثقيف بالمشروع تجنباً لوقوع اللحن؟ ولعل وجودها كان أحد أهم الأسباب التي دفعت الخليفة إلى إرسال مقريء مع كل نسخة أرسلها إلى الأمصار التي ذكرناها، فبعث مثلاً عبد الله بن السائب إلى مكة، والمغيرة بن أبي شهاب إلى الشام، وأبا عبد الرحمن السلمي إلى الكوفة، وعبد الله بن قيس إلى البصرة.

١. المراد من اللحن هنا الأخطاء الإملائية، وسأشير إلى ذلك لاحقاً.

٢. ابن أبي داود: المصاحف، ص ٣٤.



مصحف الجامع الكبير في اليمن. عمره ١٣٤٤ عاماً

ويبدو أن البعض اشتبه عليه الأمر فذكر عامر بن عبد قيس التميمي العنبري بدلاً من عبد الله بن قيس، علماً بأن عامراً هذا كان من المغضوب عليهم، وقد نُفي من قبل الخليفة عثمان من البصرة إلى الشام

وقد كتب الشيخ محمد هادي معرفة حول هذه الأخطاء والتناقضات تحت عنوان: «مخالفات في رسم الخط» قال فيه: (لا شك أن الخط وضع ليعبر عن المعنى بنفس اللفظ الذي ينطق به، فالكتابة في الحقيقة قيد للفظ المعبر عن المعنى المقصود، وعليه فيجب أن تكون الكتابة مطابقة للفظ المنطوق به تماماً؛ ليكون الخط مقياساً للفظ من غير زيادة عليه أو نقصان. غير أن أساليب الإنشاء والكتابة تختلف عن هذه القاعدة بكثير، ولكن لا بأس بذلك

ما دام الاصطلاح العام جارياً عليه، فلا يسبب اشتباهاً أو التباساً في المراد. هذا، ورسم الخط في المصحف الشريف تخلف حتى عن المصطلح العام، فضيه الكثير من الأخطاء الإملائية وتناقضات في رسم الكلمات، بحيث إذا لم يكن سماع وتواتر في قراءة القرآن، ولا يزال المسلمون يتوارثونها جيلاً بعد جيل في دقة وعناية بالغة؛ لولا ذلك لأصبح قراءة كثير من كلمات القرآن - قراءة صحيحة - مستحيلة^(١).

ثم استدرك قائلًا: (ملحوظة: ليس وجود المخالفة لرسم الخط في المصحف الشريف بالذي يمس كرامة القرآن:

أولاً: القرآن - في واقعه - هو الذي يُقرأ، لا الذي يُكتب، فلتكن الكتابة بأي أسلوب، فإنها لا تضر شيئاً مادامت القراءة باقية على سلامتها الأولى، التي كانت تُقرأ على عهد الرسول ﷺ وصحابته الأكرمين. ولا شك أن المسلمين احتفظوا على نص القرآن بلفظه المقروء صحيحاً، منذ الصدر الأول فإلى الآن، وسيبقى مع الخلود في تواتر قطعي.

ثانياً: تخطئة الكتابة هي استنكار على الكتبة الأوائل جهلهم أو تساهلهم، وليس قدحاً في نفس الكتاب الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٢).

ثالثاً: إن وجود أخطاء ظلت باقية لم تتبدل، يفيد المسلمين في ناحية احتجاجهم بها على سلامة كتابهم من التحريف عبر القرون، إذ إن أخطاء

١. معرفة: تلخيص التمهيد في علوم القرآن، ص ٢٠١-٢٠٢.

٢. سورة فصلت: ٤٢.

إملائية لا شأن لها، وكان جديراً أن تُمدَّ إليها يد الإصلاح، ومع ذلك بقيت سليمة عن التغيير؛ تكريماً بمقام السلف فيما كتبوه، فأجدر بنصّ الكتاب العزيز أن يبقى بعيداً عن احتمال التحريف والتبديل رأساً. وقلنا - أنفاً - إنّ الحكمة في الإبقاء على تلكم الأخطاء كانت هي الحذر على نفس الكتاب أن لا تمسه يد سوء بحجة الإصلاح، ومن ثمّ أصبحت سداً منيعاً دون أطماع المغرضين؛ وبذلك بقي كتاب الله يشقّ طريقه إلى الأبدية بسلام^(١).

ويمكن ذكر أسباب عديدة لظهور هذه الأخطاء والتناقضات التي عبّر عنها الخليفة عثمان باللعن، وطلب الإمام علي عليه السلام عدم المسّ بها حين قال: (إنّ القرآن لا يُهاج اليوم ولا يحوّل)^(٢)، ومن بينها بداءة الخط عندهم، وأخذه عن السريانية، وتعدّد الكتاب لذلك المصحف.

قال ابن خلدون: (كان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الأحكام، والإتقان، والإجادة ولا إلى التوسط؛ لمكان العرب من البداوة، والتوحّش، وبعدهم عن الصنائع. وانظر ما وقع - لأجل ذلك - في رسمهم المصحف، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم، ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها..)^(٣).

وقال ابن الخطيب: (لما كان أهل العصر الأول قاصرين في فن الكتابة، عاجزين في الإملاء؛ لأمّيتهم، وبدائتهم، وبعدهم عن العلوم والفنون،

١. معرفة: تلخيص التمهيد في علوم القرآن، ص ٢٠٢-٢٠٣.

٢. الطبري: تفسير الطبري، ج ٢٧، ص ١٠٤.

٣. ابن خلدون: المقدمة، ص ٤١٩.

كانت كتابتهم للمصحف سقيمة الوضع، غير محكمة الصنع؛ فجاءت الكتابة الأولى مزيجاً من أخطاء فاحشة، ومناقضات متباينة في الهجاء والرسم^(١).

وقال إبراهيم الأبياري: (قال ابن قتيبة، وهو يناقش بعض القراءات: «وليست تخلو هذه الحروف، من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الإعراب، أو أن تكون غلطاً من الكاتب.

فإن كانت على مذهب النحويين؛ فليس هاهنا نحن بحمد الله. وإن كانت خطأ في الكتابة، فليس على الله ولا على رسوله ﷺ جناية الكاتب في الخط. ولو كان هذا عيباً يرجع على القرآن؛ لرجع عليه كل خطأ وقع في كتابة المصحف، من طريق التهجي... فنحن إذن بين رسم لكتاب كان ما رسموا آخر الجهد عندهم. ولقد حفظ الله كتابه بالحفظ القارئ، أكثر مما حفظه بالكتاب الكاتبين. ثم كانت إلى جانب الحفظ حجة أخرى على الرسم، وهي لغة العرب، أقامت الرسم لتدعيم الحفظ، ولم تقم الحفظ لتدعيم الرسم)^(٢).

ومن الأمثلة على الأخطاء الإملائية:

○ ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾^(٣)، والصحيح: ﴿وَإِخْتِلَافٌ﴾.

○ ﴿عَلَّمَ الْغُيُوبَ﴾^(٤)، والصحيح: ﴿عَلَّامٌ﴾.

١. ابن الخطيب: الفرقان، ص ٥٧.

٢. الأبياري: تاريخ القرآن، ص ١٤٥-١٤٦.

٣. سورة البقرة: ١٦٤.

٤. سورة المائدة: ١٠٩.

- ﴿يَأْتِيهِمْ أَنْبَؤُا﴾^(١)، والصحيح: ﴿أَنْبَاءُ﴾.
- ﴿وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾^(٢)، والصحيح: ﴿وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾.
- ﴿بِالْغَدَاةِ﴾^(٣)، والصحيح: ﴿بِالْغَدَاةِ﴾.
- ﴿فِيكُمْ شُرَكَؤُا﴾^(٤)، والصحيح: ﴿فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾.
- ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ﴾^(٥)، والصحيح: ﴿إِنَّهُ لَا يِيَّاسُ﴾.
- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا﴾^(٦)، والصحيح: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ﴾.
- ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾^(٧)، والصحيح: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾.
- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾^(٨)، والصحيح: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾.

ومن الأمثلة على التناقضات الإملائية:

- كلمة «شيء» كتبت تارة بهذه الصورة: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾^(٩)، وتارة أخرى وفي نفس السورة بهذا الشكل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾^(١٠).

-
١. سورة الأنعام: ٥.
 ٢. سورة الأنعام: ٢٦.
 ٣. سورة الأنعام: ٥٢.
 ٤. سورة الأنعام: ٩٤.
 ٥. سورة يوسف: ٨٧.
 ٦. سورة إبراهيم: ٩.
 ٧. سورة إبراهيم: ٢١.
 ٨. سورة الكهف: ٢٣.
 ٩. سورة الكهف: ٢٣.
 ١٠. سورة الكهف: ٤٥.

- كلمة «الملاء» كُتبت تارة بهذه الصورة: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾^(١) ، وتارة أخرى وفي نفس السورة بهذا الشكل: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ﴾^(٢) .
- كلمة «إيلاف» كُتبت تارة بهذه الصورة: ﴿لَا يَلِفُ قُرَيْشٌ﴾^(٣) ، وتارة أخرى وفي نفس السورة بهذا الشكل: ﴿إِي لَفِهِمْ رَحْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(٤) .
- كلمة «يمحو» كُتبت تارة بهذه الصورة: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾^(٥) ، وتارة أخرى في سورة أخرى بهذا الشكل: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(٦) .
- كلمة «ظلام» كُتبت تارة بهذه الصورة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٧) ، وتارة أخرى في سورة أخرى بهذا الشكل: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٨) .
- كلمة «بسطة» كُتبت تارة بهذه الصورة: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾^(٩) ، وتارة أخرى في سورة أخرى بهذا الشكل: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾^(١٠) .

هذا، ولم يرتضِ بعض الباحثين ما ذكرناه من وجود الأخطاء الإملائية

١. سورة المؤمنون : ٢٥.

٢. سورة المؤمنون : ٣٣.

٣. سورة قريش : ١.

٤. سورة قريش : ٢.

٥. سورة الشورى : ٢٤.

٦. سورة الرعد : ٣٩.

٧. سورة الحج : ١٠.

٨. سورة آل عمران : ١٨٢.

٩. سورة الحج : ١٠.

١٠. سورة الأعراف : ٦٩.

والتناقضات في الرسم العثماني للمصحف، معتبرين أنَّ الخطأ فرع وجود القواعد، أما وإذ لم تكن هناك قواعد للكتابة العربية في ذلك العهد الذي كان فيه الخط ناشئاً وفي بدايات تبلوره وتشكُّله، فلا يصح أن يقال بوجود خطأ، واستدلُّوا على قولهم هذا بالخبر التالي الذي رواه أبو عمرو الداني حيث قال: (سُئِلَ مالك فقيل له: أرايت من استكتب مصحفاً اليوم أترى أن يكتب على ما أحدث الناس من الهجاء اليوم؟ فقال: لا أرى ذلك. ولكن يكتب على الكتابة الأولى. قال أبو عمرو الداني: ولا مخالف له في ذلك من علماء الأمة وبالله والتوفيق) ^(١).

وعموماً فإنَّ وجود عدم تطابق بين المنطوق والمكتوب لا يخص كتابة المصحف، ولا اللغة العربية فقط، بل نجد في اللغات الأجنبية موارد كثيرة جداً وفي الكتابة الدارجة إلى يومنا هذا، فمن الحروف ما يُنطق ولا يُكتب، ومنها ما يُكتب ولا يُنطق، والأسباب عديدة، ومن أمثلة ذلك في اللغة الإنجليزية:

○ حرف b في الأمثلة التالية: Climb / crumb / dumb / comb

○ حرف d في مثل: Handkerchief / Wednesday

○ حرف e في مثل: Hope / drive / gave / write / site

○ حرف w في مثل: one تلفظ ولا تُكتب.

والرسم الإملائي العربي كان معروفاً قبل نزول القرآن الكريم، والصحابة لم يخترعوا الطريقة الإملائية الموجودة في المصحف العثماني، بل كتبوا أكثر القرآن بالطريقة السائدة للكتابة في عصرهم، وتشهد النقوش التي ترجع

١. المقنع: لأبي عمرو الداني، ص ٩، ١٠.

إلى القرن الأول الهجري أن الكتابة السائدة حينئذٍ مطابقة للصورة التي نجدها في الرسم العثماني^(١).

ولما ظهر علماء اللغة في البصرة والكوفة وأسسوا لفن الكتابة ضوابط وروابط، بنوها على أقيستهم النحوية وأصولهم الصرفية وسموها على الخط القياسي أو الاصطلاحي المخترع، وسمّوا رسم المصحف بالخط المتبع. وكلما تقدّم الزمن ازدادت الحاجة إلى توحيد قواعد الكتابة وضبطها^(٢).

وسبب إبقاء رسم المصحف على الكتابة الأولى هو صيانة القرآن من أن يتعرض للتغيير والتبديل بين حين وآخر مما قد يؤدي إلى وقوع الخطأ والتحريف والتبديل.

وبمرور الزمان وتطوّر وتقعيد الخط والكتابة العربية برز الاختلاف النسبي بين كتابة المصحف والكتابة الإملائية المعروفة بشكل أوضح، مما دعا علماء القراءات والرسم إلى تأليف كتب تشرح هذه الاختلافات، وتستنبط قواعد رسم المصحف، وتضبط كيفية كتابة الكلمات، وكانت مؤلفاتهم بين دراسة منهجية عامة تُعنى بضبط القواعد والأصول، ودراسة تطبيقية تتبّع الكلمات القرآنية حسب ترتيب السور والآيات فتبين طريقة رسمها، فظهر علم رسم المصحف^(٣). ومن أمثلة هذه الكتب:

○ المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار: لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني «ت ٤٤٤ هـ» حققه الأستاذ محمد أحمد دهمان.

١. فهد الرومي: دراسات في علوم القرآن، ص ٣٢٨.

٢. غانم قدوري الحمد: رسم المصحف، ص ٧٢٥.

٣. فهد الرومي: دراسات في علوم القرآن، ص ٣٣٩.

○ الجامع لما يحتاج إليه من رسم المصحف: ابن وثيق الأندلسي «ت ٦٥٤هـ» تحقيق د. غانم قدوري الحمد.

○ البديع في معرفة ما رُسم في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه: لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن معاذ الجهني «ت ٤٤٢ هـ تقريباً». تحقيق د. غانم قدوري الحمد ونشره في مجلة المورد م ١٥ العدد الرابع ١٤٠٧هـ.

○ عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل: لأبي العباس أحمد بن البناء المراكشي «ت ٧٢١هـ» حققته د. هند شلبي.

○ عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد: للإمام الشاطبي «ت ٥٩٠ هـ» وهي قصيدة نظم فيها مسائل المقنع: لأبي عمرو الداني، وعدد أبياتها ٢٩٨ بيتاً، وتسمى الرائيّة، وشرحها كثير من العلماء.

○ مورد الظمان في رسم وضبط القرآن: لأبي عبد الله محمد بن محمد الشريسي الشهير بالخرّاز «ت ٧١٨ هـ»، وهي أيضاً قصيدة جاءت في قسمين، الأول في الرسم، والثاني في الضبط. ويُعرف الأول بمورد الظمان، والثاني بضبط الخراز. وجاءت المنظومة جامعة لما ورد في أمهات مصادر الرسم، شاملة للمشهور من أوجه الخلاف بين المصادر.

○ رسم المصحف: دراسة لغوية تاريخية: د. غانم قدوري الحمد.

○ جامع البيان في معرفة رسم القرآن: علي إسماعيل السيد هنداوي. وضعه وفق ما جاء في مورد الظمان، حيث يذكر مضمون الأبيات أولاً، ثم يورد الأبيات آخرًا ويعقب كل مبحث بمجموعة من الأسئلة للتدريب والمراجعة^(١).

ثم إن بعض الموارد التي اعتُبرت من الأخطاء الإملائية هي في الواقع طريقة كانت معتمدة في الكتابة لغرض معين، وذلك من قبيل كتابة الألف واواً لغرض التفتيح، وذلك إذا كان أصلها واواً، وبشرط أن لا تكون مضافة. وذلك في مثل كلمة:

○ «الصلاة: الصلوة»: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(١).

○ «الزكاة: الزكوة»: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢).

○ «الحياة: الحيوة»: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(٣).

○ «الربا: الربوا»: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾^(٤).

ومن قبيل كتابة الألف ياءً في ما جاء رباعياً، سواء كان اسماً أو فعلاً، وسواء اتصلت الكلمة بضمير أم لم تتصل، لقيت ساكناً أم متحركاً، من قبيل: الموتى، السلوى، أعطى، فترضى، إحديهما، أخريكم، مجريها.

١. سورة البقرة: ٣.

٢. سورة البقرة: ١١٠.

٣. سورة البقرة: ١١٠.

٤. سورة البقرة: ٢٧٥.

وتكتب نون التوكيد الخفيفة ألفاً إذا كان ما قبلها مفتوحاً مثل: ﴿وَلْيَكُونَا مِنْ الصَّاعِرِينَ﴾^(١) وقوله عز وجل: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾^(٢).

أما تاء التأنيث فتُرسَم هاء في الأسماء دون الأفعال. وتُقرأ بالتاء في الوصل وبالهاء في الوقف، وهذا هو الأكثر، مثل «رحمة» و«نعمة». ولكن هناك ثلاثة عشر مورداً نجد فيها أن تاء التأنيث قد كُتبت تاءً مفتوحة، وهي كالتالي:

- ﴿رَحِمَتْ﴾ في «سورة البقرة: ٩» و «سورة الأعراف: ١٠» و «سورة الزخرف: ١١» و «سورة هود: ١٢» و «سورة مريم: ١٣» و «سورة الروم: ١٤».
- ﴿نِعِمَّتْ﴾ في «سورة البقرة: ١٥» و «سورة آل عمران: ١٦» و «سورة المائدة: ١٧» و «سورة إبراهيم: ١٨» و «سورة فاطر: ١٩» و «سورة لقمان: ٢٠» و «سورة النحل: ٢١» و «سورة الطور: ٢٢».
- ﴿سَنَتْ﴾ في «سورة فاطر: ١» و «سورة الأنفال: ٢» و «سورة غافر: ٣».
- ﴿ابْنَتْ﴾ في «سورة التحريم: ٤».
- ﴿شَجَرَتْ﴾ في «سورة الدخان: ٥».
- ﴿أَمْرَاتٌ﴾ في «سورة آل عمران: ٦» و «سورة يوسف: ٧» و «سورة القصص: ٨» و «سورة التحريم: ٩».
- ﴿قَرَّتْ﴾ في «سورة القصص: ١٠».
- ﴿بَقِيَّتْ﴾ في «سورة هود: ١١».

١. سورة يوسف: ٢٢.

٢. سورة العلق: ١٥.

- ﴿فُطِرَتْ﴾ في «سورة الروم: ١٢».
 - ﴿لُعِنَتْ﴾ في «سورة آل عمران: ١٣» و «سورة النور: ١٤».
 - ﴿وَجُنَّتْ﴾ في «سورة الواقعة: ١٥».
 - ﴿وَمَعْصِيَتْ﴾ في «سورة المجادلة: ١٦».
 - ﴿كَلِمَتْ﴾ في «سورة الأنعام: ١٧» و «سورة يونس: ١٨» و «سورة غافر: ١٩».
- قالوا: والفرق بين ما كُتِبَ بالتاء المفتوحة، والهاء أن ما كُتِبَ بالهاء يوقف عليه بالهاء، ويوصل بالتاء، وأما ما كُتِبَ بالتاء المفتوحة فيُقرأ بالتاء عند الوصل والوقف، كذلك عند ضيق نفس، أو مقام تعليم، أو اختبار.
- وأكتفي بهذا المقادر من سرد القواعد التي استخلصوها، والاستثناءات التي ذكروها في مقام بيان أن ما اعتُبر أخطاءً إملائية أو تناقضات ليس في الواقع كذلك، وأنه تسرّع في الحكم على ما جاء بخصوص تدوين المصحف العثماني، بل بالغ بعضهم وادّعى أن رسم المصحف توقيفي عن الرسول ﷺ علمه أصحابه، فكتبوا المصحف به كما تعلموه.
- قال الدبّاغ: (ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف من النبي، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدي إليها العقول، وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية، وكما أن نظم القرآن معجز، فرسمه أيضا معجز^(١)).

وعارضهم آخرون بصراحة، ومنهم ابن خلدون والباقلاني وابن قتيبة وغيرهم. قال الباقلاني: (وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً، إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه).

وقال: (أن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً ولا نهى أحداً عن كتابته، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح وأن الناس لا يخفى عليهم الحال).

وقال: (وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة، وكان الناس قد أجازوا ذلك وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته وما هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأثيم ولا تناكر، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حدٌ محدود مخصوص كما أخذ عليهم في القراءة والأذان، والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أي صورة كانت)^(١).

الملاحظة الثالثة: كان المصحف العثماني خالياً من التنقيط والتشكيل وغيرهما من العلامات، حيث لم تكن قد ابتكرت بعد، وكان المعتمد في التمييز بين الكلمات على الحفظ وعلى الفطرة اللغوية. فكلمة ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾^(٢) تُكْتَب مثل كلمة «فتثبتوا» تماماً، والفرق بينهما في النقط لا غير.

١. الزرقاني: مناهل العرفان، ج ١، ص ٢٧٢ - ٢٧٤،

٢. سورة الحجرات: ٦.

ومع بروز الأخطاء في الحفظ والقراءة بسبب كثرة عدد المسلمين من غير أصول عربية، صار من الضروري أن يتم إدخال تغيير في كتابة المصحف.

فكانت أول خطوة عبارة عن إضافة التشكيل على آخر حرف من كل كلمة، وذلك على يد أبي الأسود الدؤلي في منتصف القرن الهجري الأول، وكانت الفتحة على هيئة نقطة فوق الحرف على أوله، والضمّة على آخره، والكسرة تحت أوله، والتنوين على هيئة نقطتين. وبعد مدّة عمدوا إلى تشكيل كل حروف الكلمات وليس فقط الحرف الأخير منها.

ثم دخل التنقيط على يد تلميذي أبي الأسود، وهما نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر، للتمييز بين الباء والتاء والثاء والنون والياء، وبين الدال والذال والراء والزاي... إلخ.

وتم التمييز بين نُقَط التشكيل ونقط الحروف باللون، فجعلت نقط التشكيل باللون الأحمر والحروف ونقاطها بالأسود. وقد سُمّي تنقيط الحروف بالإعجام، أي لإخراج الحرف من حالة العُجمة والإبهام.

ثم تم إدخال الهمزة والتشديد وغيرهما من قبل الخليل الفراهيدي في منتصف القرن الثاني الهجري، وحوّل نقط التشكيل إلى الأشكال المعروفة.

وكلما امتد الزمان ازدادت العناية بالمصحف من حيث تيسير رسمه وتجويد خطّه وإضافة العلامات كعلامات الأجزاء والأحزاب التي تمتّ في عهد المأمون أوائل القرن الثالث الهجري، والتذهيب والتلوين والزخرفة والترقيم وكتابة أسماء السور في بداية كل سورة.. إلخ، هذا بالإضافة إلى العناية أصلاً، ومنذ البدء بالكتابة بخط جلي مميّز وجميل ما أمكن.



في الأعلى نسخة بلا تنقيط - وفي الأسفل نسخة بتنقيط محدود



ففي الخبر المروي عن أبي حكيمة العبدى أنه قال: (كنت أكتب المصاحف بالكوفة، فيمرُّ علينا علي بن أبي طالب فيقوم فينظر، فيُعجبه خطُّنا ويقول: هكذا نوروا ما نور الله)^(١). وفي الخبر ما يدلُّ على اهتمام الإمام بهذا الشأن بدلالة كلمة «يمرُّ» بصيغة الفعل المضارع الدالة على الاستمرار والتكرار.

وقد واجهت بعض تلك الخطوات حالات من الاعتراض والرفض كما هو حال أي مشروع تغييرى لما اعتاده الناس، لاسيما لما هو مقدس حقيقةً أو لما هو مقدس عندهم، يُضاف إلى ذلك خوفهم من أن تكون تلك الإضافات مدخلاً للتلاعب في النص القرآني.

أبو بكر محمد بن سيرين البصري «ت ١١٠ هـ». تابعى اهتم بالتفسير والحديث والفقه وتعبير الرؤيا، وكان عالماً بالحساب، والفرائض، والقضاء.

أبو عتبة أو أبو عبيدة عباد بن عباد الخواص، تابعى، لا يُعرف عنه إلا القليل، وأنه كان من الزهاد. له وصية أخلاقية مشهورة.

روى ابن أبي داود عن محمد بن سيرين أنه: (كره نقط المصحف بال نحو)^(٢) أي بغرض التشكيل، وأنه برّر ذلك بقوله: (أخشى أن يزيدوا في الحروف)، وروى ذلك أيضاً عن الحسن البصري وقتادة الذي قال بشأن من يقوم بذلك: (وددت أن أيديهم قُطعت). وعن عباد بن عباد الخواص أنه كان لا يقرأ إلا في مصحف غير منقوط.

١. ابن أبي داود: المصاحف، ص ٥٢٧.

٢. ابن أبي داود: المصاحف، ص ٥٢٣-٥٢٥.



مخطوطات لمصاحف تاريخية وبخطوط وزخارف متنوعة



ابن مقلة، أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة الشيرازي «ت ٣٢٨ هـ». من أشهر خطاطي العصر العباسي وأول من وضع أسس مكتوبة للخط العربي.

إلا أنَّ تلك الإضافات أخذت طريقها تدريجياً وأصبحت أمراً مقبولاً، وعمل الوزير ابن مقلة على كتابة المصحف بخط النسخ بعد أن كانت الكتابة تتم غالباً بالخط الكوفي.

ثم جاء دور طباعة المصحف الشريف بالآلة، وتمَّ ذلك أول مرة في مدينة البندقية الإيطالية، في حدود سنة ١٥٣٠م، بيد أن السلطات الكنسية وقفت منه موقفاً متعصباً، فأصدرت أمراً بإتلاف كل نسخه؛ ثم قام هنكلمان بطبع المصحف الشريف في مدينة هامبورغ الألمانية عام ١٦٩٤م.

أما أول طبعة بمبادرة من المسلمين فكانت في مدينة سانت بطرسبورج الروسية عام ١٧٨٧م، ثم ظهرت طبعة حجرية في مدينة طهران بإيران عام ١٨٢٨م وأخرى في مدينة تبريز الإيرانية أيضاً عام ١٨٣٣م.

وفي مصر قام الشيخ رضوان بن محمد الشهير بالمخللاتي بكتابة مصحف عني فيه بكتابة الكلمات في ضوء الرسم العثماني، وقُدِّم له بمقدمة أبان فيها تحرير المصحف ورسمه وضبطه، وطبعه بمطبعة حجرية هي المطبعة البهية في القاهرة عام ١٣٠٨ هـ.

وفي القاهرة، عام ١٣٤٢ هـ- ١٩٢٣ م تشكلت لجنة عليا من مشيخة الأزهر، مستعينة بكبار العلماء، بإقرار من قبل الملك فؤاد الأول، كان قوامها كل من: شيخ المقاريء المصرية محمد خلف الحسيني، والأستاذ حفني ناصف العالم

اللغوي، ومصطفى عناني، وأحمد الإسكندري. وقد اضطلعت هذه اللجنة بمهمة ضبط المصحف ورسمه وشكله، فُكِّتَب القرآن - بإقرارها - موافقاً للرسم العثماني، وعلى قراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي، برواية حفص بن سليمان الكوفي^(١).

ثم استمرت طباعة المصحف الشريف في السعودية والكويت وسوريا والمغرب والهند والأردن وفي كثير من بلاد المسلمين طبعات مختلفة، وتم تنسيق الصفحات وترتيب بداياتها ونهاياتها أحياناً وفق أسس وقواعد متعدّدة. ففي مصحف «آل البيت» المطبوع في الأردن - مثلاً - روعي أن تبدأ كل صفحة من صفحاته بآية، وتنتهي بآية بحيث لا يتم تقسم آية آية في صفحتين.

وظهر المصحف المطبوع بطريقة برايل أيضاً، وذلك لتمكين فاقد البصر من قراءة كتاب الله ﷻ، والمصاحف الإلكترونية على أجهزة الحاسوب والأجهزة اللوحية والهواتف الجوّالة الحديثة.

• مطابع حديثة:

في عام ١٤٠٣ هـ الموافق ١٩٨٢ م، تم وضع حجر الأساس لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، وتم افتتاح المشروع بعد سنتين، على مساحة تبلغ ٢٥٠ ألف متر مربع، وبطاقة إنتاجية متوسطها طباعة ١٠ ملايين نسخة. كما ويقوم المجمع بعدة مهام من بينها:

١. تسجيل تلاوة القرآن الكريم.
٢. ترجمة معاني مفردات القرآن الكريم وتفسيره.

١. محمد الصغير: تاريخ القرآن، ص ١٤١-١٤٢.

٣. العناية بعلوم القرآن الكريم.

٤. العناية بالسنة والسيرة النبوية.

٥. العناية بالبحوث والدراسات الإسلامية.

٦. نشر إصدارات المجمع على الشبكات العالمية.

وفي عام ٢٠٠٩م وبالقرب من مدينة مشهد المقدسة بالجمهورية الإسلامية في إيران، تم افتتاح واحدة من أكبر المطابع في منطقة الشرق الأوسط وذلك بغرض طباعة المصحف الشريف. وشيّد هذا المشروع الذي أطلق عليه اسم «المركز الدولي لطباعة وتوزيع المصحف الشريف» على مساحة تبلغ أكثر من ٢٢ ألف متر مربع، وبمساحة بناء تبلغ ١٢ ألف متر مربع، بطاقة إنتاجية تبلغ طباعة ٥ ملايين نسخة من المصحف الشريف سنوياً.

• تجزئة المصحف وتحزيبه :

تقسيم المصاحف إلى أجزاء وأحزاب وأرباع تقسيم اصطلاحى اجتهادى، ولذلك وقع الاختلاف فيه، وإن عُرِف من التقسيمات القديمة ما رواه أوس بن حذيفة قال: (قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبه، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له، وكان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا قائماً على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام، فأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه قريش، ثم يقول: « لا سواء، وكنا مستضعفين مستذلّين بمكة، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، ندال عليهم ويدالون علينا».

فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت

عنا الليلة! قال: «إنه طراً عليّ حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمّه».

قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزّبون القرآن؟

فقالوا: ثلاث، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده^(١). قيل: أي أنهم كانوا يحزّبونها كالتالي:

○ ثلاث سور: وهي بعد الفاتحة: البقرة، وآل عمران، والنساء.

○ خمس سور، وهي: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة.

○ ثم سبع سور، وهي: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل.

○ ثم تسع سور، وهي: سورة الإسراء، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان.

○ ثم إحدى عشرة سورة، وهي: الشعراء، والنمل، والقصاص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس.

○ ثم ثلاث عشرة سورة، وهي: الصافات، وص، والزمر، وحَوَامِيمِ السَّبْع، ومحمد، والفتح، والحجرات.

○ ثم الباقي، وهو: من سورة ق إلى الناس، والمعروف باسم المفصل.

وإن صحّت الرواية فهي تحتل احتمالين، الأول أن ترتيب المصحف الحالي كان معهوداً منذ زمن النبي ﷺ، والاحتمال الثاني أنه قصد أن الصحابة

١. أبوداود: السنن، ح ١٢٩٣.

حزَّبوا القرآن بهذه الصورة بعد كتابة المصحف، وأنه سؤاله لهم لم يكن على عهد النبي الأكرم.

وقال الزرقاني تحت عنوان «تجزئة القرآن»: (كانت المصاحف العثمانية مجردة من التجزئة التي نذكرها، كما كانت مجردة من النقاط والشكل. ولما امتدَّ الزمان بالناس جعلوا يتفننون في المصاحف وتجزئتها عدة تجزئات مختلفة الاعتبار.

فمنهم مَنْ قَسَمَ القرآن ثلاثين قسماً، وأطلقوا على كل قسم منها اسم الجزء، بحيث لا يخطر بالبال عند الإطلاق غيره، حتى إذا قال قائل: قرأت جزءاً من القرآن، تبادر إلى الذهن أنه قرأ جزءاً من الثلاثين جزءاً التي قَسَمُوا المصحف إليها. ومن الناس مَنْ قَسَمُوا الجزء إلى حزبين، وَمَنْ قَسَمُوا الحزب إلى أربعة أجزاء، سَمَوْا كل واحد منها رُبْعاً.

ومن الناس من وضعوا كلمة «خمس» عند نهاية كل خمس آيات من السورة، وكلمة «عشر» عند نهاية كل عشر آيات منها، فإذا انقضت خمس أخرى بعد العشر أعادوا كلمة خمس، فإذا صارت هذه الخمس عشرًا أعادوا كلمة عشر، وهكذا دواليك إلى آخر السورة.

وبعضهم يكتب في موضع الأخماس رأس الخاء بدلاً من كلمة خمس، ويكتب في موضع الأعشار رأس العين بدلاً من كلمة عشر. وبعض الناس يرمز إلى رؤوس الآي برقم عددها من السورة، أو من غير رقم.

وبعضهم يكتب فواتح للصور كعنوان ينوه فيه باسم السورة وما فيها من الآيات المكية والمدنية، إلى غير ذلك. وللعلماء في ذلك كلام طويل بين



الجواز بکراهة، والجواز بلا کراهة، ولكن الخطب سهل على كل حال ما دام الغرض هو التيسير والتسهيل، وما دام الأمر بعيداً عن اللبس والتزید والدخيل، وعلى الله قصد السبيل^(١).

أما التَّحْزِيبُ الموجود حالياً في المصاحف فقد ادَّعى أن واضعه هو الحجاج بن يوسف الثقفي، وأنَّ مناط التقسيم فيه كان على عدد الحروف، إلا أنَّ هذه النسبة غير ثابتة.

• الركوعات القرآنية :

وهناك تقسيم آخر للمصحف ويُعرف بالركوعات القرآنية، ففي مصاحف شبه القارة الهندية وبعض المصاحف الإيرانية تُقسَّم السُّور إلى ركوعات، وكل

١. الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢٨٣.

ركوع عبارة عن عدة آيات تُستحسن قراءتها في الركعة الواحدة من الصلاة لأنها ترتبط ببعضها البعض بسياق واحد من حيث الوحدة الموضوعية، وعلامة الركوع حرف «ع» يوضع على حاشيتي المصحف اليمنى واليسرى^(١).

وقد ادّعى بعض الباحثين أنّ هذه التقسيمة كانت معروفة على عهد رسول الله وإلى عهد قريب جداً، إلا أنها بدأت تختفي من المصاحف تدريجياً إلى أن أصبحت شبه منسية ومجهولة عند الكثيرين: (هذا التقسيم الإعجازي كان معروفاً منذ القدم باسم الركوعات القرآنية، ويعود سبب ذلك أن النبي الأكرم ﷺ وبعد قراءته لسورة الحمد في الركعتين الأولى والثانية للصلوات اليومية كان يقرأ حيناً سورة صغيرة، وفي معظم الأوقات واحدة من هذه السياقات «الركوعات أو الوحدة الموضوعية» ثم يركع.

هذه الركوعات القرآنية كل واحد منها هو وحدة موضوعية تحدد لنا مجال الحد الأدنى لسياق الآيات وتعرّفنا بأسلوب بيان المسألة القرآنية. هذا التقسيم المليء بالأسرار محدّد في كثير من النسخ القرآنية بعلامة «ع» «ركوع» في آخر كل قسم.

أما في بعض النسخ القرآنية في القرن الأخير فقد حُذفت هذه العلامة بسبب عدم الالتفات إلى أهمية هذا التقسيم، وفي بعض النسخ والطبعات القرآنية الأخرى تم تجاهلها أو نسيانها أو أحياناً تبديل مكانها، وذلك بسبب عدم الاهتمام بها... كانت هذه المسألة متداولة ومتعارفاً عليها بين الناس لدرجة أنه لم تكن هناك حاجة لدراسة مصادرها العلمية وكانت

١. فانيامبادي عبد الرحيم: معجم المصطلحات القرآنية، ص ٩.

معروفة عند القدماء بالأمر المتواتر والرائج بين المسلمين منذ صدر الإسلام.

لهذا السبب لا نجد في مصادر علوم القرآن مباحث تفصيلية حولها، والجدير بالذكر أن بعض العلماء أوردوا في كتاباتهم هذه الركوعات القرآنية وذكرها عددها، وأماكنها الدقيقة، والوثائق المعتمدة، واهتموا بها غاية الاهتمام^(١).

وللأسف فإن الكتاب لم يذكر لنا أية رواية عن النبي ﷺ تثبت لنا مدّعه، كما أن اشتهاً الأمر لا يستدعي عدم البحث حوله في الكتب المتخصصة، وكم من قضية بسيطة بُحثت في كتب علوم القرآن، فلماذا نستثني منها هذه المسألة؟ نعم نجد في الهامش أسماء بعض المصادر القليلة التي تعرّضت للموضوع، ولكننا نفقد الدليل التاريخي الأكيد والملموس على ادّعاء اعتماد هذه التقسيمات من قبل النبي ﷺ.

وهذه الركوعات تختلف بين بعض نسخ المصاحف، ومن صورها تقسيم القرآن إلى ٥٥٥ ركوعاً من بينها ركوعاً واحداً لسورة الفاتحة، وأربعون لسورة البقرة، وواحد وعشرون لسورة آل عمران، وأربعة وعشرون لسورة النساء، وستة عشر لسورة المائدة .. إلخ. ولو أخذنا سورة البقرة كمثال فسنجد أن آياتها تنقسم كالتالي:

١-٧ / ٨-٢٠ / ٢١-٢٩ / ٣٠-٣٩ / ٤٠-٤٦ / ٤٧-٥٩ / ٦٠-٦١ /

١. محمد علي لساني فشاركي و حسين مرادي زنجاني: مناهج البحث في القرآن الكريم، ص

٦٢ - ٧١ / ٧٢ - ٨٢ / ٨٣ - ٨٦ / ٨٧ - ٩٦ / ٩٧ - ١٠٣ / ١٠٤ - ١١٢ /
 ١١٣ - ١٢١ / ١٢٢ - ١٢٩ / ١٣٠ - ١٤١ / ١٤٢ - ١٤٧ / ١٤٨ - ١٥٢ /
 ١٥٣ - ١٦٣ / ١٦٤ - ١٦٧ / ١٦٨ - ١٧٦ / ١٧٧ - ١٨٢ / ١٨٣ - ١٨٨ /
 ١٨٩ - ١٩٦ / ١٩٧ - ٢١٠ / ٢١١ - ٢١٦ / ٢١٧ - ٢٢١ / ٢٢٢ - ٢٢٨ /
 ٢٢٩ - ٢٣١ / ٢٣٢ - ٢٣٥ / ٢٣٦ - ٢٤٢ / ٢٤٣ - ٢٤٨ / ٢٤٩ - ٢٥٣ /
 ٢٥٤ - ٢٥٧ / ٢٥٨ - ٢٦٠ / ٢٦١ - ٢٦٦ / ٢٦٧ - ٢٧٣ / ٢٧٤ - ٢٨١ /
 ٢٨٢ - ٢٨٣ / ٢٨٤ - ٢٨٦.

• كلمة أخيرة:

وبذا أكتفي في عرض جوانب من تاريخ تدوين المصحف الشريف، وهناك الكثير من الكتب التي يمكن الرجوع إليها لمعرفة المزيد من هذه التفاصيل، مع ملاحظة أن مؤلفيها قد يختلفون في شيء من التفاصيل التي يذكرونها بناء على آرائهم وأبحاثهم وقناعاتهم التي يكونونها من خلال النظر في الأحاديث والأخبار والنصوص وتقييمها لهم ضعفاً وقوة، والله هو الأعلم بحقائق الأمور.

مصادر الكتاب



١. القرآن الكريم
٢. آثار البلاد وأخبار العباد: زكريا بن محمد بن محمود القزويني
٣. الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز: أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي
٤. الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
٥. الاحتجاج: أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي
٦. أحكام أهل الذمة: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية
٧. إرشاد الأذهان إلى أحكام الايمان: الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي الأسدي
٨. أسباب النزول: علي بن أحمد الواحدي النيسابوري
٩. الاستيعاب في معرفة الأصحاب: يوسف عبد الله محمد عبد البر
١٠. أسد الغابة في معرفة الصحابة: علي بن محمد، المعروف بابن الاثير
١١. الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني
١٢. إعجاز القرآن: محمد بن الطيب أبو بكر الباقلائي
١٣. أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام: عمر رضا كحالة
١٤. أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى البلاذري
١٥. بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي
١٦. البداية والنهاية: إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي
١٧. تاريخ أسماء الضعفاء والكذابين: عمر بن أحمد بن شاهين
١٨. تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري
١٩. تاريخ القرآن: إبراهيم إسماعيل الأبياري
٢٠. تاريخ القرآن: محمد الصغير
٢١. تاريخ اليعقوبي: أحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبي
٢٢. تحرير المعنى السديد وتوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: محمد الطاهر بن عاشور
٢٣. تحفة الأخوذ في بشرح جامع الترمذي: محمد عبد الرحمن المباركفوري
٢٤. التسهيل لعلوم التنزيل: محمد بن أحمد بن جزي الكلبي
٢٥. تفسير العياشي: محمد بن مسعود العياشي
٢٦. تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي
٢٧. تفسير القمي: علي بن إبراهيم القمي
٢٨. تلخيص التمهيد في علوم القرآن: محمد هادي معرفة

٢٩. تهذيب الأحكام: محمد بن الحسن الطوسي
٣٠. تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني
٣١. جامع البيان في تفسير القرآن: محمد بن جرير الطبري
٣٢. الجامع الكبير (سنن الترمذي): محمد بن عيسى الترمذي
٣٣. الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
٣٤. دراسات في علوم القرآن: فهد الرومي
٣٥. دعائم الإسلام: النعمان بن محمد التميمي المعروف بالقاضي النعمان
٣٦. الذخيرة في علم الكلام: علي بن حسين بن موسى المعروف بالشريف المرتضى
٣٧. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: آغا بزرك الطهراني
٣٨. رجال الكشي: محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي
٣٩. الردّة: محمد بن عمر الواقدي
٤٠. رسم المصحف: غانم قدوري الحمد
٤١. سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني
٤٢. السنن: أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني
٤٣. السنن الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي
٤٤. سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي
٤٥. السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري
٤٦. السيرة النبوية: إسماعيل بن عمر بن كثير
٤٧. شرح نهج البلاغة: عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد
٤٨. صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري
٤٩. ظاهرة الردّة في المجتمع الإسلامي الأول: محمد حسن بريغش
٥٠. عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى: مرتضى العسكري
٥١. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر «المشهور باسم تاريخ ابن خلدون»: عبد الرحمن بن خلدون
٥٢. علوم القرآن: صبحي الصالح
٥٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
٥٤. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية: محمد بن علي الشوكاني
٥٥. فتوح البلدان: أحمد بن يحيى البلاذري
٥٦. الفرقان: محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب

٥٧. فضائل الصحابة: أحمد بن حنبل
٥٨. الفقه الجنائي في الإسلام. الردة نموذجاً: حسين الخشن
٥٩. فقه الشريعة: محمد حسين فضل الله
٦٠. الفهرست: محمد بن إسحاق الوراق البغدادي المعروف بابن النديم
٦١. قصة الحضارة: ويل ديورنت
٦٢. الكافي: محمد بن يعقوب الكليني
٦٣. الكامل في التاريخ: علي بن محمد، المعروف بابن الاثير
٦٤. الكتاب المقدس
٦٥. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علي بن حسام الدين الهندي
٦٦. لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي
٦٧. اللعة الدمشقية: زين الدين العاملي
٦٨. مجلة المنهاج
٦٩. مجمع البيان في تفسير القرآن: الفضل بن الحسن الطبرسي
٧٠. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي
٧١. محطات في تاريخ القرآن: مرتضى فرج
٧٢. مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي
٧٣. المدخل إلى العهد الجديد: فهم عزير
٧٤. المستدرک على الصحيحين: الحاكم النيسابوري
٧٥. المسند الجامع: محمود محمد خليل
٧٦. المصاحف: عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني
٧٧. المصنّف: عبدالرزاق الصنعاني
٧٨. معجم أسامي الرواة الذين ترجم لهم العلامة محمد ناصر الدين الألباني
٧٩. جرحاً وتعديلاً: أحمد إسماعيل شكوكاني وصالح عثمان اللحام
٨٠. معجم البلدان: يلقوت الحموي
٨١. المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني
٨٢. معجم المصطلحات القرآنية: فانيامبادي عبد الرحيم
٨٣. المغازي: محمد بن عمر الواقدي
٨٤. المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني
٨٥. المنقح في رسم مصاحف الأمصار: عثمان بن سعيد أبو عمرو الداني

٨٦. من وحي القرآن: محمد حسين فضل الله
٨٧. مناهج البحث في القرآن الكريم: محمد علي فشاركي و حسين مرادي زنجاني
٨٨. مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني
٨٩. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي
٩٠. منهج الإمام أبي عبد الرحمن النسائي في الجرح والتعديل: قاسم سعد
٩١. منهج الصادقين: فتح الله الكاشاني
٩٢. الموطأ: مالك بن أنس
٩٣. الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي
٩٤. نهج البلاغة: الشريف الرضي
٩٥. الهرطقة في المسيحية: ج. ويتلر

مواقع الإنترنت

1. almunajjid.com
2. hobbollah.com
3. st-takla.org
4. www.saaaid.net
5. www.sistani.org